يشرف إدارة الثقافة العامة
كتاب
وزارة التربية والتعليم مصر

افهم طفلك

تأليف
چيمس هيمنج
چوزافين بولسز

ترجمة
احمد عبد العزيز سلامه
ابراهيم محمد الشافعى

مراجعة
دكتور أبو الفتوح رضوان

الألف كتاب (١٣١)

إفهم طفلك

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

الألف كتاب (١٣١)

افهم طفلك

تأليف

جيمس همنج — جوزفين بولز

ترجمة

احمد عبد العزيز سلامه — ابراهيم محمد الشافعي

راجعه

الدكتور ابو الفتوح رضوان

نشرته

دار العالم العربى بالقاهرة

شارع الظاهر ـ تليفون ٤٤٧٠٦

1957

هذه ترجمة لكتاب

THE CHILD IS RIGHT

BY

JAMES HEMMING

AND

JOSEPHINE BALLS

LONGMANS, GREEN AND Co.
LONDON - NEW YORK - TORONTO

قصة هذا الكتاب

ظل كل من المؤلفين متصلا بالأطفال بحكم عمله سنوات طوالا وكان رأيهما خلال ذلك أن يقوما بملاحظة الأطفال وبتسجيل ما يشاهدانه وتحليله وكان فى إعتقادهما أن كل ما يمنى به الآباء من فشل فى تربية أطفالهم إنما يرجع إلى الآباء أنفسهم لا إلى الأطفال . وجملا يستبدلان بالاتجاه التقليدى فى معاملة الأطفال أساليب جديدة ترتب عليها أن تصبح العلاقات بينهم وبين الكبار أينع ثمرة وأكثر إمتاعا . كذلك توصل كل من المؤلفين إلى عدد من النتائج حول الأخطاء الشائعة التى يقع فيها الآباء فتحول بينهم وبين أن يهتدوا إلى هذه الأساليب .

ثم التقى المؤلفان بالصدفة ، وأدهش كلا منهما أن يجد أن أفكاره والنتائج التى توصل إليها تتفق مع أفكار زميله ومع النتائج التى توصل إليها كذلك ، على الرغم من أن أحدهما كان أكثر إهتمامه بصغار الأطفال على حين كان الثانى يعنى أكثر ما يعنى بطلاب المرحلة الثانوية . واحتاج الأمر بطبيعة الحال إلى شيء من التنسيق والتحليل والعمل المشترك فجعلا يقارنان بين المذكرات بعضها وبعض وبين تواريخ الحالات ويستشير كل منهما الآخر فيما يتوصل إليه من نتائج . ثم تبين لهما أن نتائج خبراتهما يجب أن تقال للآباء فانهم فى حاجة إلى أن يقفوا على هذا كله . فجاء الكتاب ثمرة لذلك .

على أن الآنسة بولز هى المسئولة الأولى عن الجزء الأول من الكتاب . أما الجزءان الثانى والثالث فالمسئول عنهما « همنج » . ومع هذا فقد كان كل من المؤلفين يستشير الآخر فى كل موضوع تقريباً حتى يمكن أن يقال إن الكتاب يقره كل من المؤلفين .

الحالات التى وردت بالكتاب

لم نسرد فى هذا الكتاب حالة من الحالات إلا بعـــد أن استأذنا أصحابها فى ذلك أو بعد أن تناولناها بشىء من التغيير والتعديل يجعل من العسير معرفة أصحابها وبهذا نظن أن أحداً من أصحاب هذه الحالات لن يستشعر الحرج والخشية من أن يتعرف عليه الأصدقاء .

كذلك ينبغى أن نذكر أننا عمدنا فى بعض الأحيان إلى الأسلوب الروائى فى عرض الحقائق دون أن يضطرنا ذلك إلى تغيـــير جوهر الموضوع . ولعل هذا الأسلوب لم نتبعه إلا فى حالات صغار الأطفال التى تجرأنا فزعمنا أننا نستطيع قراءة أفكارهم .

ثم اعتذار

وقد اضطرتنا رغبتنا فى توضيح أفكارنا إلى أن نؤكد ما رأيناه من القواعد التى تلزم مراعاتها عند معاملة الأطفال . والتكرار قد يكون مملا ولكننا نرجو أن تشفع لنا فيه الحكمة القائلة « إن كانت الفكرة تستحق أن تقال فانها تستأهل التكرار » ومعذرة إن كنا قد اتبعنا هذه الحكمة فى مواضع كثيرة من الكتاب .

تصـــــــدير

بقـلم

الدكتور أبو الفتوح رضوان

وكيل كلية التربية بجامعة عين شمس

هذا كتاب لا أستطيع أن أسميه كتابا فى علم النفس ولا استطيع أن أسميه كتابا فى التربية ، ولا أستطيع أن أسميه كتابا فى خدمة الطفل ، ولا أستطيع أن أسميه كتابا فى الخدمة الاجتماعية لأنه كل أولئك .. فهو كتاب أزال الحواجز بين هذه المواد جميعاً ، وربط بينها على أسس علمية سليمة لأنها أسس أقيمت على الملاحظة العلمية الدقيقة والخبرة العملية الطويلة.

لقد خالف مؤلفا هذا الكتاب عرف أصحاب العلوم الذين ينحون دائماً إلى عرض نتائج أبحاثهم وما توصلوا إليه من القوانين العلمية وتزويد الناس بما ينبغى أن يعملوه فى أسلوب علمى مجرد محتفظين لأنفسهم بالأمثلة الواقعية والحالات العملية غير منتبهين إلى أنهم يفهمون كتبهم وكلامهم فى ضوء هذه الأمثلة الواقعية التى احتفظوا بها لأنفسهم وإلى أن الناس لن يفهموا ما كتبوا بعد أن أخفوا عنهم هذه الأمثلة .

تنبه المؤلفان إلى هذه الصعوبة فعكسا هذا الاتجاه فى كتابهما ، وعلى

ذلك عرض الكتاب الأمثلة العملية والحالات الواقعية — حالات أطفال حقيقيين — ثم أخذا بيد القارىء فى فهم هذه الأمثلة ليستخلص لنفسه ما تؤدى إليه من طرق التصرف فى علاج الأطفال فى مواقف حياتهم فى المنزل والمدرسة والشارع ومع أقرانهم من الأطفال ومع من يكبرونهم سنا من الآباء والمعلمين والأقرباء .

لذلك أتى هذا الكتاب مفهوما ، مفهوما من مؤلفيه فهماً لم يستمداه من كتب الغير ، ولا من خبرات الآخرين ، ولا من مجلدات العلم ، وإنما استمداه من واقع خبراتهما التى استمداها من الاشتغال مع الأطفال . واستمداه من مغزى فشلهما ونجاحهما فى علاج الأطفال فى حالات سرورهم وحزنهم ومضايقتهم ويأسهم ، وضيقهم بالكبار أحياناً وبزملائهم الصغار أحياناً أخرى . وهو كذلك مفهوم من القارىء لأنه لا يقرأ نظريات مجردة ولا قواعد علمية جامدة قد يخطىء فى فهمها وإذا فهمها فقد يخطىء فى تطبيقها على ابنه أو تلميذه ، وإنما هو يقرأ حالة طفل بجميع أعراضها وجميع مظاهرها : ما فعل الطفل وما قال وما عبر عنه ، وكيف تصرف فى الموقف ليتخلص من مشكلة ومن ثم فهو يستطيع أن يقيس إبنه على هذه الحالة أو تلك ، ويستطيع أن يتصرف معه فى ضوء ما تصرف به المؤلفان فيما عبرا عنه من صفحات هذا الكتاب ، مستفيداً بنجاحهما واخفاقهما اللذين عبرا عنهما بكل اخلاص .

من هنا تأتى أهمية هذا الكتاب ، فإن القارىء لايقرأ فيه علماً ولا معرفة ولا حقائق ، وإنما يقرأ فيه من الحياة نفسها ، وعلى ذلك

فهو لا يكتسب علما بقراءة الكتاب فحسب بل يكتسب مهارة فى معاناة الأطفال ومساعدتهم على التغلب على مشكلاتهم ومساعدة نفسه فى التغلب على مشكلاته معهم .

وقد قام بترجمة هذا الكتاب الأستاذان احمد عبد العزيز سلامه وابراهيم محمد الشافعى وهما ممن تؤهلهما دراساتهما وخبراتهما لترجمة مثل هذا الكتاب . ولذا فقد نجحا نجاحا كبيراً فى ترجمته مع دقة المعنى وسلامة الأسلوب كما نجحا فى تمصيره حتى كادت مسحة الترجمة أن تختفى فيه .

وإنى إذ أقدم هذا الكتاب أرجو أن يعم انتشاره وتتسع قراءته حتى يفيد منه أكبر عدد من الآباء والمعلمين . وذلك لأن كل ما ينجح الطفل فى تعلمه وكل ما ينجح الآباء والمدرسون فى تعليمه للطفل متوقف على سلامته النفسية التى هى بدورها نتيجة لطريقة معاملتهم له . ولذا فهذا الكتاب فى صميم مهنة الأبوة ومهنة التدريس .

أبو الفتوح رضوان

الباب الأول

مرحلة الحضانة

الفصل الأول

الآباء يصنعون الأبناء

ليست وظيفة الآباء مقصورة على إنجاب الأطفال ، ولكن الآباء مسئولون — إلى حد أكبر مما كان يظن — عن خلق وتشكيل جيل جديد من الأبناء . وسيجد القارىء أننا خصصنا هذا الفصل لبيان الواجب الملقى على عاتق الآباء فى نظرنا . والحق أن هذا الواجب لا ينبغى أن يسأل عنه الآباء وحدهم وإنما ينبغى أن يسأل عنه الكبار — آباء كانوا أو غير آباء — لأننا جميعاً على اتصال بالأطفال — نؤثر فيهم على هذا النحو أو ذاك .

الاستمتاع بالحياة

قد يتوهم القارىء — بعد أن تقع عينه على عنوان هذا الكتاب — إننا سنشن حربا على الآباء ، ولكننا ندفع هذا الوهم أولا وقبل أن

نمضى فى الكتاب ، نحن نؤمن بأن الخطأ والخوف وكل ما ينجم عنهما هى ألد أعداء الإنسان ، ولذلك جعلنا هدفنا من هذا الكتاب أن نكافحها لصالح الأطفال وقد اتخذنا من الآباء فى تلك المعركة ظهيرا .

ومن طبيعة الخطأ أنه يحبط مجهودات الإنسان ، كما أن الخوف — ولا سيما إذا تشكر فى ثياب القلق — يبعث على الاكتئاب ويخمد جذوة النشاط ، وهما حيثما كانا يحرمان الإنسان من الاستمتاع بالحياة . ونحن نهدف إلى أن نخلص حياة أطفالنا من الخوف والخطأ حتى يشيع المرح والهناءة حياة الآباء والأطفال على السواء ، إذ الحياة — فى نظرنا — ينبغى أن يغلب فيها جانب المرح .

صحيح أن حياة الناس فى النصف الأول من القرن العشرين قد غشيها ما غشيها من الشدة والتعاسة ، ولكن هذا لا يعنى أن نظل نرزح تحت البؤس والشقاء ، بل أكثر من هذا أننا نجد كثيراً من الأطفال الشاكين المكلومين والآباء التعساء ، والكبار الذين فقدوا القدرة على التكيف مع الحياة ، كما نجد الاضطرابات النفسية وقد تفشت والفشل وقد أصاب الكثيرين ونجد على كل لسان شكوى وفى كل نفس برما وضيقاً بالحياة وافتقاراً إلى الصديق الوفى . قد تكون الفترة التى تظلنا عصيبة ، ولكن كثيراً من الفترات العصيبة قد أظلت الناس ومع ذلك لم يفقدوا فيها حبهم للحياة ، بل ولم يحرموا منحة الضحك ملء قلوبهم .

لابد إذن أن فى الأمر شيئاً ، فكم تصادف من أناس لم يعد للحياة من طعم فى نظرهم ، وهم يضيقون بها ذرعاً ، ويسلكون للتخلص منها

كل سبيل . وكم تصادف من قوم استشرى فيهم الميل إلى العدوان حتى صارت حياتهم جرياً وراء منفعة شخصية أو عرض ينفردون به دون سائر النـــاس ، وماذلك إلا لأنهم لم يتعلموا كيف يستشعرون الرضا بأن يشاركهم الناس ما هم فيه . ونحن لا نلوم أصحاب النفوس المريضة وندع الذي يخلو من سوء التكيف يلقى بأول حجر ـ ولكننا نقول أن السبب الرئيسى الذى حال بين هؤلاء وبين أن « ينموا فى أنفسهم الروح القوية » هو أنه لم يهدهم إلى ذلك أثناء طفولتهم هاد .

ونحن وإن كنا لا نرتضى لأحد أن يشق بالحياة فى أيامنا هذه ، ولا ننكر أن قيام حربين عالميتين فى جيل واحد ، تتخللهما عشرون سنة من الضنك ، كفيل بأن ينشر على البشرية سحائب البؤس والقنوط والاخفاق . إلا أنه ينبغى لنا أن نتقبل ـ نحن الكبار ـ الواجب الملقى علينا نحو الجيل الناشىء ، فنقيهم شر ما يرزح تحته الكبار الآن من جمود واضطرابات نفسية . فإن الاضطرابات تجلب الاضطرابات ولهذا كان واجبنا أن نحطم هذه الحلقة المفرغة .

ونحن نعترف فى صراحة أن المشكلة ليست وليدة تصرف الآباء وسلوكهم نحو أبنائهم فحسب ، بل أنه لينبغى كذلك أن يتوافر للأطفال جميعا المنازل الفسيحة والغذاء الصحى والأمن الاجتماعى والفرص الموفورة . فإذا توافرت هـذه الحاجات كان لابد معها من أن يتخلص أبناء الجيل الحاضر من التركة المثقلة بالجهل والاضطرابات النفسية . نحن نريد أن نوفر لأطفالنـا بداية سعيدة ، أجساما صحيحة وعقولا مدربة ، واتزانا عاطفيا وقلوبا لا يعرف الجزع إليها سبيلا . وقد يكفل

لأطفالنا الجسوم الصحيحة والعقول المدربة أن نحسن رسم السياسة الاقتصادية ونوفر الخدمات التربوية والصحية ، لكن الاتزان العاطفى (النفوس المستقرة) والاستمتاع بالحياة — وبدونهما لايكون للأجسام الصحيحة والعقول المدربة قيمة — لايزود الأطفال بهما إلا الكبار . فما نفع جيل قد صح غذاؤه وأحسنت تربيته إذا افتقر إلى الاتزان والاقبال على الحياة بنفس تتسم بالشجاعة والاقدام ؟

الاطفال السعداء

لايستطيع إلا المنزل ورياض الأطفال والمدرسة أن تغرس فى نفوس الأطفال أوأن تجتث منها حب الحياة من جميع نواحيها والقدرة على العيش بنجاح فيها ، كما أن الكبار المتصلون بالطفل ورفاقه فى اللعب بصفة خاصة يستطيعون أن يغذوا هذه المشاعر أو أن يميتوها . فنحن إذن معشر الكبار نقبض بأيدينا على مستقبل هذه الأمة وحظها من السعادة ونصيبها من الشخصية ودرجة النجاح . كما أننا بتصرفاتنا إما أن نغرس فى صغارنا الثقة فى الحياة وإما أن نخلق فيهم الخوف منها . ولقد كان الناس يعتقدون إلى خمسين سنة مضت أن الشيطان قوة خارجية تؤثر تأثيرها السىء على نفس الطفل . أما اليوم فإننا نعلم أن مثل هذا التفكير يعدنوعا من التهرب من المسئولية ، وأن الذى يجعل من الأطفال رجالا صالحين أو شياطين مردة إنما هو سلوك الكبار نحوهم وأنماط الحياة التى يحبونها واتجاهاتهم نحوها . صحيح أنه قد يرث عن أبويه قدراته ، ولكنه لايرث القدرة على حسن التكيف مع الحياة ولا الشخصية المتزنة ولا الشخصية المتكاملة . وهو لايصل إلى هذا إلا عن

طريق اتصالاته الشخصية والاجتماعية خلال السنوات الأولى من حياته . فلابد أن نسلم بأن الطفل يصير مقبولا أو سيئا ، شجاعا أو جبانا ، مرحا أو مكتئبا ، متزنا أو غير متزن بحسب ما نصيب من نجاح أو فشل فى إشباع حاجاته .

ولقد أتى على الناس حين من الدهر كانوا يؤمنون فيه بأن جسوم الأطفال تتأثر بدرجة إشباع الحاجات الجسمية ولكنهم مع ذلك لم يطبقوا نفس القاعدة على شخصيتهم . فزعموا أن جانباً كبيراً من شخصية الأطفال ، حتى فى أولى مراحل العمر — خلقه وانفعالاته وما إليهما — لم يكن يتأثر بمدى ما يحرزه من نجاح أو فشل فى إشباع حاجاته النفسية ، وإنما كان ذلك نتيجة عوامل أخرى خارجية ، عوامل ليس فى وسع الأسرة أو الأصدقاء أن تتحكم فيها إلا قليلا . فهذه الرذيلة التى نلحظها على « سامى » لم يكن بد من أن يرثها عن أجداده ، وذلك العناد الشديد كانوا يفسرونه على أنه من عمل الروح الشريرة التى تسكن جسده وهكذا . وكان الآباء يقولون « أن الولد قد استحال شريراً كما لو لم يكن لهم من الأمر شىء » ولكن علم النفس والذين قاموا بملاحظة الأطفال قضوا على هذا كله ، إذ تبين لهم أن الطفل يود أن يكون خيراً وأن يكون باعثاً على السرور ومقبول السلوك عند غيره . كما وجدوا أنه يكون كذلك إذا ما أشبعت حاجاته الجسمية والعقلية والعاطفية والروحية وحاجته إلى الإبتكار — هذا إذا لم يكن يعانى بعض الأمراض أما أن عجزت عن أن تشبع هذه الحاجات فكن على يقين من أنك لن تلقى إلا المتاعب من مارد صغير صنعته أنت بيديك .

إن البستانى الحصيف لا يلوم إلا نفسه إن نمت الشجرة التى يرعاها هزيلة ضعيفة . ويدرك فى وضوح وجلاء إنه هو المقصر إذ لم يحس القيام على تربيتها وإمدادها بحاجاتها الطبيعية . فهو إما أن يكون قد قصر فى تسميد الأرض أو فى وقاية الشجرة من الريح العاتية أو لم يعمل على أن يصلها من ضوء الشمس ما هى بحاجة إليه كما أن يكون قد غرسها إلى جوار جدار منزل مرتفع . وهنا يعترض القارىء فيقول « إن المثل الذى تذكره هو نوع من القياس مع الفارق . إذ أن الشجرة وما إليها أمور عادية على حين أن شخصية الطفل أمر مختلف كل الاختلاف . لكننى أتساءل . أصحيح هذا ؟ أليست الحيوانات تخضع فى نموها لنفس القوانين التى تحكم النباتات ؟ إن خير ما يتبع فى تدريب الحيوانات من الطرق يقوم فى أساسه على أن الكائن الحى ينبغى ألا يترك كما تلقيناه فالحيوانات تفتقر إلى من يفهمها ويعطف عليها وأنت لو حققت لها هذا الفهم والعطف استطعت أن تخرج منها مخلوقات صالحة . بل أكثر من هذا أنه لا بد لنا من أن نرفض ما يقوله بعض الناس من أن الطفل يولد وبذور الشر كامنة فى نفسه . إذ الطفل لا يولد « فى الخطيئة » ولا يولد وفى جسده روح آدم الذى ارتكب « الزلة الأولى » بل أنه لا يعدو أن يكون مجموعة خلايا حية حساسة من طبيعتها الإرادة والتفكير دون أن تميل إلى جانب الشر أو إلى جانب الخير ، ولا إلى جانب التكيف أو سوء التكيف ولا إلى النمو المتزن أو غير المتزن . وهكذا يولد الطفل فتتلقفه يد الكبار فهو يعتمد أكثر الإعتماد على قدرة الكبار على أن يعطوه ويربوه دون أن يسألوا على ذلك أجراً . كما أن خلقه وشخصيته يتوقفان لا على قدرة الآباء أن يتركوه كما هو بل على قدرتهم على أن يشكلوه ويصنعوه .

لسنا ندعى أن تربية الأطفال مهمة سهلة فلا بد للشهد من إبر النحل وليس من الهين أن نحسن تقدير حاجات الطفل أو أن نقوم على إرشاد طفل ما يزال ينمو ولا يزال فائق الحساسية جم النشاط . فلابد لنا إذن من أن نرتكب الأخطاء ونذرف الدموع جميعاً الآباء منا والأبناء . ولكن الذى ينبغى أن نؤكده هو أنك تصيب النجاح والفوز إن أدركت أن الطفل الذى تشرف أنت على تربيته يمكن أن يكتمل نموه وتحسن تربيته إلا إذا حرصت على إشباع حاجاته . وإنك لا تجنى إلا الفشل والخيبة والقنوط إن أنت لم تأبه لذلك . ونحن نقرر فى غير مواربة أن الطفل لا يسوء سلوكه ويصر على العناد — وهذا هو ما نصفه بأنه سلوك متمركز حول الذات متجه ضد المجتمع ، سلوك تتفاوت درجته من نوبات الغضب المتصلة إلى جرائم الأحداث — إلا إن كان المجتمع — كما خبره الطفل — قد قصر فى حقه على نحو من الأنحاء . وعلى الكبار المسئولين عن الطفل فى هذه الحالة أن يحملوا هم أنفسهم أوزار الطفل وأن يشرعوا فى إتخاذ الوسائل الكفيلة بإصلاح أمره .

كذلك لسنا نزعم أن «الطفل منزه عن كل عيب» ولا ندعو إلى أن يترك له الحبل على الغارب . بل لا بد للآباء — إذا حاد الطفل عن جادة الصواب — من أن يصطنعوا الحزم فيردوه عن غيه ليفىء إلى رشده . لكن ليتذكر الآباء دائماً أنه لم يخرج عن الجادة لخبث فطرى فى نفسه وإنما لأننا لم نحسن معاملته ولم نحفظه من المؤثرات السيئة . وليتذكر الآباء كذلك أن حالة أطفالهم ستزداد سوءاً بعد سوء حتى تتحسن الطريقة التى يعاملون بها والمؤثرات التى تعمل عملها فيهم

ولذلك فنحن إذا قلنا «الأطفال على حق» إنما نقصد أنهم على حق بكل معانى هذه اللفظة . إذ الخبث و(الشقاوة) مهما بلغتا من الشدة — لا يرجعان إلا إلى أننا قد أخطأنا يوما فى معاملة الطفل ، ولو كان هذا اليوم قد مضى منذ زمن بعيد .

لكن هذا لا يعنى أن يشتط الآباء فيسرفوا فى تأنيب أنفسهم وتقريعها عند كل هفوة أو زلل يرتكبه الأطفال . إذ الحياة والنمو لا يخلوان من الحلو والمر والسمو والإسفاف . وليس ينبغى حين يخطىء أن يركبنا الهم والقنوط ولكن علينا حين يخطىء أن نتنبه إلى أن فى الأمر شيئاً ينبغى أن نتداركه . لقد كان الناس فى الأزمنة الماضية ينحون باللائمة على الأطفال فلما جاءهم علم النفس بنتائج دراسته للأطفال تبين لهم سوء ما كانوا يعملون ، وعرفوا أنه لا جدوى من أن يقع اللوم ويوجه التأنيب للأطفال أو الآباء وإنما الواجب عليهم أن يستقصوا الظروف المحيطة بالطفل ليتبينوا أى هذه الظروف والملابسات كان سبباً فى أن يفقد الطفل ثقته بنفسه وينعدم عنده الإحساس بالأمن والطمأنينة — إذ لا يسأل عن هذه الاضطرابات التى لحقت بالطفل إلا ما حوله من الظروف والملابسات — وعندئذ يشرع الآباء فى إتخاذ الوسائل الكفيلة بإعادة الاتزان والتكيف إلى نفس الطفل .

دوافع الاطفـــال

لسنا بمستطيعين أن نشبع حاجات الأطفال إشباعا تاما إلا إذا عرفنا دوافع الأطفال أو محركات سلوكهم إذ من المسلم به أن الطفل لا يقوم بحركة أو يصدر عنه سلوك إلا إذا كان وراءه « غرض » قد

لايكون واضحاً في ذهن الطفل وقد لايدرى له سبباً ، فهو — بوصفه طفلا — يضرب الكرة بقدمه لتقوى وتشتد ويصرخ ليصيب شيئاً من الطعام أو لتخلصه الأم من ألم فاذا أشبعت حاجاته وأدرك مايبتغيه جميعاً توجهت حركاته وسلوكه وجهة اجتماعية سليمة بناءة ، أما إن حرم إشباع هذه الحاجات فقد أحس القلق وانعدام الطمأنينة وتولد في نفسه الشعور بالنقص والعناد وكراهية المجتمع . وهكذا يضطر إلى أن يلجأ إلى نوبات الغضب ليستلفت إليه الأنظار لأنه يشعر أنه غير مطلوب ولايحبه أحد . ثم يصر على العناد ليستشعر ولو بطريق خاطىء أنه صاحب منزلة وذو مكانة .

كذلك قد يضطر إلى أن يناضل الكبار بأن يزيد من قوة شخصيته وذلك إذا لم يجد له في غير ذلك متنفساً . بل أكثر من هذا أنه قد يعمد بعد أن تتقدم به الأيام والسنون إلى أن يرتدى الملابس الزاهية ويطلق الضحكات المتكلفة ليلقى من الناس التقدير وليكتسى ثوب « الأهمية الاجتماعية » بعد أن حرم الوسيلة الصحيحة للتعبير عن نفسه .

إن أهداف الأطفال لاغبار عليها . . وهم يريدون أن تكون لهم السيطرة على قواهم وأن يكون لهم المركز المضمون كأفراد في هذا المجتمع . والطفل حين يسعى الى بلوغ غاياته هذه إما أن يجد الطريق وقد مهدها الكبار بتعاونهم وفهمهم له وبذلك يمضى نحو غايته في يسر وسعادة ، وإما أن يجد الطريق مملوءة بالأشواك والعقبات ، فلا يملك إلا أن يسعى نحو هذه الغايات بالطرق المنحرفة والعادات المرذولة والميل إلى العدوان وافتراء الأكاذيب والهرب والمروق والسرقة . فمهمة الكبار إذن أن

يفهموا حاجات الأطفال وأن يعرفوا النحو الذى يسلك الأطفال وفقاً له حتى يتسنى لهم بعد هذا أن يوجهوا جهود الأطفال نحو وجهات أحسن ، وجهات يرتضيها المجتمع .

أى نوع من الشخصيات نريد ؟

لست بمستطيع أن تنجح فى إشباع كل حاجات الطفل حتى تتبين بوضوح نوع الشخصية التى تريد أن يبلغها الطفل والتى تناسب هذا العالم الحديث الذى نعيش فيه . ومعنى هذا أنه لابد لنا من أن نتعرف على الشخصية الانسانية التى يتطلبها هذا العصر الحديث .

لا يستطيع الانسان أن يكون مواطنا متكيفاً أحسن التكيف لهذا العالم الحديث إلا إذا اكتمل نموه من جميع النواحى . فمن الواجب أن يكون سليم الجسم ، مثقفاً واعياً لما يدور حوله ، خصب الخيال ، متزن العواطف ، ذا مثل عليا ، ذا روح تميل إلى المخاطرة ، محبا للتعاون . ومثل هذا الشخص يقضى حياته سعيداً ويقوم بدور فعال فيها ، بعد أن تحرر من المخاوف الوهمية ولم يجر وراء أهداف زائفة وصارت عنده القدرة على أن يصمد للطمات الحياة وما قد يصادفه من أنواع الفشل .

ويترتب عن هذا ألا يكون الغرض الأول للتربية والتعليم تزويد الطفل بالمعلومات المدرسية أو تهيئته لمهنة أو عمل وإنما ينبغى أن يكون الغرض الأول منها أن تكسبه القيم التى يستهديها فى حياته والثقة بالنفس والإيمان بالحياة ، وتعوده كيف يتعاون مع غيره من الزملاء . وعلى الجملة فمن الواجب أن يكون غرضنا من التربية أن نعلم الطفل كيف يعيش ،

ونحن إن نجحنا فى هـذا تم لنا كل ماعدا ذلك ، أما إن أخفقنا ، قضى الطفل حياته التى فشلنا فى تدعيمها فى ظلال من الخوف والاضطرابات النفسية التى يعوض بها عن ذلك ، وعاش فى تعاسة وجعل يجرى وراء أهداف وضيعة .

والمؤلفان — لطول خبرتهما — يوقنان أن الآباء إذا جعلوا هدفهم من تربية أولادهم أن يصلوا بهم إلى الرجولة الحقة ، وخصصوا جهودهم فى كل مرحلة من حياة الطفل لاشباع حاجاته إشباعا يمكن الطفل من أن يصل لهذا الهدف استراحوا من كثير مما كانوا يلقونه من عنت وإخفاق .

وبمقدار مايوفق الآباء أو يخفقون فى إشباع حاجات أطفالهم المشروعة ، تكون جهودهم موفقة صائبة أو عقيمة طائشة . ولهذا كان مما تجدر الإشارة اليه أنه من الخطل الاغراق فى تدليل الطفل والاسراف فى أخذه بالعنف والشدة ، إذ الطفل يتطلب ممن حوله أن يحبوه بدرجة غير مبالغ فيها ، وأن يفهموا نفسيته فهما هادئا ، وأن يتركوا له الحرية لينمو دون أن تدفعهم شـدة القلق إلى كثرة التدخل فى شئونه أو إلى أن يدبروا كل كبيرة وصغيرة من شئونه بأنفسهم .

الدور الذى سنقوم به فى هذا الكتاب

من الواضح أننا لن نقصد من هذا الكتاب الصغير إلى أن يكون رسالة ضخمة عن تربية الأطفال ، وكل الذى نرجوه هو أن يسد هذا الكتاب ثغرة لمساها ، فقد تبين لنا بعد سنوات من الخبرة طويلة فى

التعامل مع الأطفال والإشراف عليهم ، أن كل المؤلفات التي كتبت عن الأطفال ناقصـــة إذ أن كثيراً منها يحض الآباء على أن يلتزموا اتجاهات خاطئة نحو أطفالهم ونحو الواجب الملقى على عاتقهم ، كما أنها جميعا على وجه التقريب تميل إلى الناحية الأكاديمية النظرية . أما كتابنا هذا فإنه يستمد معلوماته من واقع الحياة ، ويؤسس أفكاره وبراهينه على دعامة من الأمثلة الحية وتاريخ الحالات التي مرت بنا . وبهـــذه الطريقـة يأمل المؤلفان أن يبينا مبلغ الفائدة العظمى التي يجنيها الآباء حين يصطنعون الاتجاه الصحيح نحو أبنائهم وهو أن يقوموا على خدمة أطفالهم خدمة تبنى على الفهم الصحيح لسلوكهم .

ولم نجعل همنا أن نسرد كل المشكلات ولا أن نقدم كل الحلول ، وعلم الله أننا لا ندعى العلم بهذا كله ، ولكننا قصدنا إلى أن نعين الآباء على أن يلتزموا الاتجاه السليم نحو أطفالهم . فقد ثبت منذ أمد بعيد أن كثيرا من الطارق العتيقة فى تربية الأطفال طرق فاشلة . ومع هذا نجد أن المجتمع لا يزال مشبعا بمثل هذه الأفكار ، وأن كثيرا من الآباء — بطبيعة الحال — يحاول أن يصوغ معاملته لأطفاله وفقا لهذه الأفكار .

وهكذا يخطىء الآباء فى كثير من الأحيان دون أن يقصدوا إلى هذا الخطأ . فالآباء الذين يهملون تربية أطفالهم أقلية ضئيلة ، أما معظمهم فيخطئون كثيرا لأنهم يحاولون جاهدين أن يطبقوا طرقا فى التربية لم تعد تصلح لذلك . ولعل مما يؤسف له أن الآباء — وليست لهم خبرة إلا بأسرة واحدة — يبذلون مجهودات مضنية لا تؤدى فى كثير من الأحيان إلا إلى أن تزيد الحال سوءا .

لقد كان الناس يعتقدون إلى عهد قريب أن خير ماتطرد به الجنون عن المريض هو أن تلهب ظهره بالسياط . واليوم لايزال أكثر الناس يصطنع فى تربية الأطفال طرقا وأساليب لاتقل فى حماقتها عن الأسلوب السابق فى علاج الجنون . ولو أن الأب تجنب النتائج السيئة للطرق القديمة فانه كثيراً مايضطرب بين الطرق الحديثة والقديمة ، إنه يتبع مايراه حسنا منهما دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن الطريقة الفضلى ذات الأثر الناجع .

لهذا فنحن ننصح لأصدقائنا الآباء . اقرأوا هذا الكتاب بحرص وعناية واحرصوا على ماأوصينا به من اتجاهات صائبة فى التعامل مع الأطفال . وضعوها موضع التجربة والاختبار . إنكم إن اصطنعتم هذا الاتجاه فنحن على يقين من أن كثيرا من مشكلاتكم سيأخذ طريقها إلى الزوال . إن السبب الذى من أجله تقوى الصلات بين الرفاق من الناس وهو الصداقة الوطيدة هو عينه السبب الذى يمكن به أن نجعل أطفالنا سعداء صالحين . إننا نقصد إلى أن نجعل من الآباء والأطفال أصدقاء بعضهم لبعض ، لأنهم كثيرا ماينكر بعضهم بعضا . فان وجدت أن صلتك بأطفالك قد أشرفت على التداعى فاقرأ هذا الكتاب فلعلك واجد فيه من التوجيهات مايرأب صدع هذه الصلة . ونحن نقول هـذا — لابدافع الغرور — ولكن فى تواضع العارف بالحقائق الذى أخذ يتبين الطريقة المثلى لكسب صداقة الأطفال .

إن حياتنا فى المنزل والمدرسة يكدرها فى كل يوم الخلافات الناشبة والألفاظ الجارحة ، والانهاك المضنى والتنافر البغيض وغير ذلك مما

كان ينبغى ألا يحدث . وإننا لنأمل من هذا الكتاب أن يقلل من هذا الشقاء الذى لامبرر له بأن يزيد من فهم الآباء لأبنائهم فهماً يرسى قواعد العلاقات السعيدة بين الصغار والكبار .

إننا نعيش اليوم فى عالم كثير المسئوليات كثير المشكلات ، فدعنا نحظى بأكبر قدر مستطاع من الابتسام والمرح والسعادة والإشباع حيثما تيسر . فإن نجحنا فى هذا فسوف نخلق للبشرية تراثاً من النشاط والشجاعة والسعادة سيكون أقل ما يقدم للبشرية فى الخمسين السنة القادمة أن ينقذ المدنية ويحفظ الحضارة . وقد تبدو مشكلات المنزل ودور الحضانة والمدارس مشكلات محلية وشخصية ، ولكن الحقيقة أن عملية تدريب الأطفال على أن يسلكوا الطريق القويم فى الحياة واجب خطير يلح علينا جميعاً أن نسهم فى النهوض به .

وقد كان ينبغى أن نجعل من هذا الفصل الأول مقدمة الكتاب ، ولكننا جعلناه الفصل الأول لأننا نعلم أن القارىء كثيراً ما يتخطى مقدمة الكتاب الذى يقرؤه فى حين أننا نرى من الضرورى قراءتها . وسيجد القارىء أن هذا الفصل الذى فرغ من قراءته يختلف عن الفصول التالية من الكتاب ، إذ أننا لن نتحدث نحن إلى القارىء فيها ، وإنما سندع الحديث إلى الحقائق التى استخلصناها من خبرتنا .

الفصل الثانى

هيئوا الفرص للأطفال

كثيراً ما نقابل فى رياض الأطفال والمدارس آباء يدهشهم أن يجدوا أشخاصا يختارون لأنفسهم عملا يتصل بالأطفال ، فإن حاولنا أن نبين لهم أننا قد تخيرنا العمل مع الأطفال لأننا نحبهم ونجد فيهم التسلية بل ونستمتع بكثير من المرح فى العمل معهم ، أجابوا « طبعاً » فإن موقف الأطفال معكم يختلف عن موقفهم معنا ، وأنكم لتدركون هذا ، فإنهم «لا يضحكون منكم كما يفعلون معنا» .. أما أنهم «لا يضحكون منا » فما ذلك إلا لأننا نعاملهم معاملة أخرى يستجيبون لها استجابة تختلف عن استجابتهم لآبائهم . ونحن على يقين من أن جميع الآباء يستطيعون أن أرادوا — أن يسوسوا أطفالهم كما يفعل ذلك من نسميهم بالناس « المختصين فى تربية الأطفال » ، وذلك بأن يزودوا أنفسهم ببعض ما لدى هؤلاء المختصين من معرفة ، فليس فى هذه المعرفة ما يستعصى عليهم ، وليس فيها معادلات رياضية وأرقام ينبغى عليهم ، تذكرها ، وكل ما هنالك أنهم سيطالبون بالتزام اتجاه خاص نحو الأطفال . وأول ذلك أننا لا نطمع فى أن يسلس لنا الأطفال قيادهم إلا بعد أن نكسب حبهم وتعاونهم ونصبح موضع ثقتهم . وليس على الآباء أن يجهدوا أنفسهم فى كل ذلك إذ الأطفال من طبيعتهم أن يحبوا آباءهم ويتعاونوا معهم ويثقوا بهم ، فكل ما

على الآباء أن يحرصوا عليه هو أن يظل الأبناء يحبونهم ويتعاونون معهم ويثقون بهم . ولا سبيل إلى ذلك إلا أن جعل الآباء من أنفسهم « أطفالا كأبنائهم » وفهموا وجهة نظر هؤلاء الأبناء ، فينبغي لهم إذن أن يطرحوا وراءهم ظهرياً الأفكار التي كانت تسود منذ قرن مضى عما يجب على الطفل نحو والديه من طاعة يدفع إليها الخوف من العقاب ومن احترام لابد وأن يؤدي للكبار ، وعليهم أن يتطلبوا من أطفالهم — بدلا من ذلك — نوعا آخر من الاحترام يدفع إليه يقينهم بمدى حب آبائهم لهم وحكمتهم واتزانهم فى معاملتهم وقدرتهم على أن يفهموا ما يعانيه أطفالهم من فرح وأسف وإغراء ، وعلى الآباء — بدورهم — أن يحترموا أطفالهم كأفراد لهم شخصيتهم الخاصة النامية وأنهم فى حاجة إلى التوجيه والإرشاد لا إلى الضغط والإكراه .

الأمر الثانى — أننا معشر المتخصصين نحاول أن تتذكر الخبرات التى مرت بنا أثناء طفولتنا من شكوك ومخاوف وكل صغائر الأمور التى كانت تدخل السرور إلى قلوبنا وتجعلنا نغرق فى الضحك . صحيح أن بعض هذه الخبرات ينتقص من قدرنا فى نظر أطفالنا أن نحكيها لهم إلا أنها تستحق أن تقص عليهم إن كان فى ذلك تقوية لروح الصداقة والتفاهم بيننا وبين الأطفال .

إن الآباء يخشون إن هم اعترفوا بأخطائهم أن تضيع مهابتهم فى أعين أطفالهم ، ولكننا نعلم أن الآباء يسمو قدرهم عند أبنائهم إن هم التزموا الأمانة معهم . وأن كثيراً من الآباء ليستطيعون بحذقهم أن يجنبوا أنفسهم كثيراً من الأزمات التى تنشأ عن السلوك السيء ، وعليهم أن

يتذكروا دائماً « أن القائد الحاذق يعرف اللحظة التي يجمل به أن ينسحب فيها » .

وربما كان أهم من ذلك كله أنه ينبغي على الآباء أن يحاولوا التفكير في الأطفال من حيث « سهولة القيادة » أو « صعوبته » لا من حيث « الطيبة » و « الشقاوة » ، ومعنى هذا أن نحاول مساعدة من كان عسر القيادة من الأطفال على أن يتغلبوا على ما يصادفهم من صعوبات ، بدلا من أن نعاقبهم على أخطائهم . ولعل هذا هو أهم ما يفرق بين المتخصص وغيره وبين الأب الرجعي والأب التقدمي . ونحن نعتقد أن من العسير على الطفل المتوسط أن يوائم بين نفسه وبين نمط الحياة السائد في مجتمع متحضر ، بل وإن في ذلك لمخالفة لغرائزه الطبيعية ، وهو حين يعجز عن أن يبلغ المستويات التي يتطلب منه بلوغها ليشعر بالعجز والنقص . وعندئذ يكون في مسيس الحاجة إلى من يشجعه ويؤكد له أنه سيتحسن في المرات القادمة وأنه لمن العبث أن نهر الطفل إن ثار على آداب السلوك التي وضعها له الكبار وخصوصا أننا لا نكاد نعلم مبلغ تفاهة هذه الآداب وسخفها في نظر الطفل وما أشبه الذي ينتهر الطفل في هذه الحال بمن يصب البترول على النار ليطفئها . ولهذا فكثيراً ما تتفاقم الحال إلى حد تبادل الألفاظ الجارحة وإلى حد أن يحس الطفل إحساسا عميقاً بأنه قد فقد كل حب وحماية . فمن الواجب إذن أن نقلل من آداب السلوك هذه التي نأخذ بها الأطفال إلى أكبر حد مستطاع ، وأن نبين له الحكمة فيما نقدم له منها ، وذلك حين يزول عنه غضبه ويعود إليه هدوءه واتزانه ، وأن تبين لنا أن بعض آداب السلوك التي تتطلب منه اتباعها

لامبرر له ولم تثبت صحته كان هذا النوع غير معقول ولا ينبغي الزام الطفل به . ومع هذا فمن الواجب أن نتمسك بالآداب القليلة التي اتخذناها. وإذا اقتضت الضرورة أن نتخلى عن بعض هذه الآداب فمن الواجب أن يعرف الطفل سبب ذلك ، وبهذه الطريقة وحدها ننتظر من الطفل أن ينمي لنفسه قيما خلقية وأن يتبين الفرق بين الصواب والخطأ . ولن يسعد الطفل دون أن يشعر بنوع ما من الضبط ، وعلينا أن نجعل هذا الضبط من نوع ضبط النفس بدلا من ذلك النوع السلبي الخالص الذي يعرض عليه ممن هم أكبر منه « ليكون خيراً » أو « ليكون هادئاً » .

والأطفال — إذا ما هيئت لهم الفرص — معقولون إلى حد كبير ومتعاونون . وكلنا يعلم شدة ولعهم « بالمساهمة » في نشاط الكبار ، وأنه يلذ لهم كذلك أن يتعاونوا مع الكبار في أعمالهم على شرط أن يطلب إليهم ذلك . وهم يرون أن كل ما يزيد من حب الكبار لهم — ولا سيما الآباء — جدير بأن يقوموا به . إذ الطفل يكون شديد التأثر إن أحس أنه فقد حب من حوله . فمن الواجب إذن أن يكون من حق الطفل علينا أن نحبه من يوم أن يولد كحقه في الماء والهواء ، ومن الواجب كذلك إلا نتخذ من فقدان هذا الحب سلاحا نشهره في وجهه .

ينبغي أن نتذكر أن الأطفال كثيراً ما تنقصهم القدرة على أن يعبروا عن مشاعرهم في عبارات واضحة ، ولذلك كان علينا أن نقرأ ما بين السطور حتى نتبين الدوافع المعقولة للسلوك الذي يبدو غير معقول . وعلينا أن نؤكد أنه لا ينبغي للكبار أن يتطلبوا عقولا حصيفة في رؤوس غضة صغيرة . وأنه لا يصح لذلك أن يقيموا للأطفال مستويات

فوق طاقتهم . إن إحساس الطفل بالنجاح يدفعه إلى أن يبذل قدراً أكبر من الجهد ، أما إن كانت المستويات فوق ما يطيقون وأكره الأطفال على بلوغها فغالبا ما ينشأ فى الأطفال شعور بالنقص .

والطفل فى حاجة إلى من يخبره فى بساطة ولعدة مرات نوع السلوك الذى يطلب إليه أن يسلكه ، وأنه لسالك هذا السلوك لأنه يريد أن يدخل السرور إلى قلب من يحبه ، وأنه سيعلم عما قريب كيف أن الحياة تكون أسعد إن تخلى الناس عن أنانيتهم وتحلوا بالعطف والميل إلى المساعدة والمرح وهدوء الطبع . وبهذه الطريقة وحدها نرسى قواعد الشخصية . وربما كانت الألفاظ الخشنة والضرب والعقاب مفيدة فى إبعاد الطفل عما لا نحب أن يعمل ، ولكن عاقبتها وخيمة ، فالرجل الرياضى الذى يريد أن يقوى عضلاته ليستخدمها فى السباق لا يستطيع أن يقويها إلا إن أتيحت له الفرصة فى حرية ليقوم بالتمرينات . وكذلك لا يستطيع الطفل أن يصبح يوما ما رجلا متزنا إلا إذا سمحنا له أن ينمى شخصيته وقدراته فى جو متحرر من الخوف والاستبداد وسوء الفهم .

الفصل الثالث

ويحكم أيها الأشقياء من الأولاد

ذكرنا فى الفصل السابق أن كثيرا من سوء السلوك الذى نلحظه على الأطفال مرده إلى سوء فهم الآباء لهم وامتناعهم عن أن يعاملوا الأطفال كأفراد لهم شخصياتهم الآخذة فى النمو السريع . والآن نقدم للقارىء بعض الأمثلة التى قبسناها من الحياة التى يبدو لنا أنها تشمل مشكلات الحياة اليومية والتى يشقى بها أكثر الآباء . وفى كل هذه الأمثلة كان الطفل يعد « ولدا شقيا » ونحن نرى أنها تسمية جائرة . وأن تصرفات الأطفال كان يمكن أن تبدو معقولة إذا نظرنا إليها بعين الطفل . ونحن لا ندعوا إلى أن يغض الآباء الطرف عما يرتكبه الأطفال من أخطاء ولكننا نعتقد أن هذه الأخطاء ما كان الأطفال ليقعوا فيها لو أن الآباء اظهروا قدرا أكبر من الحكمة والفهم لأطفالهم وأنه لو تم هذا لغدا الجميع أوفر حظا من السعادة وعلى القارىء حين يتتبع هذه الحالات أن يلاحظ أعمار الأطفال وقد وضعناها فى بداية كل قصة مما نأمل معه ألا يتخطاها القارىء بنظره .

المتوحش الصغير الوقح (٤ سنوات)

كانت الحافلة « الأوتوبيس » مكتظة بالركاب الذين كانوا وقوفا وقد التصق بعضهم ببعض ، وكان صاحبنا الصغير يقف على مبعدة من

باب العربة محشورا بين أمه وبين رجل بدين يحمل حقيبة بيده . وقد لفت نظر الطفل أن السيارة لا تطيل الوقوف عند المحطات ليصعد إليها من يصعد ويهبط منها من يهبط ، فأخذ يتصور بخياله ما قد يحدث لو أن أمه سبقته إلى النزول دون أن يتمكن هو من ذلك قبل أن تواصل السيارة سيرها . وتخيل أنه سيكون فيها وحده فبدأ القلق يساوره كلما أخذت تلح عليه فكرة أن أمه ستتركه وحده فى السيارة .

حاول كثيرا أن يجذب انتباه أمه إليه ولكنها كانت مستغرقة فى حديث طويل مع صديقتين كانتا تقفان إلى جوارها فلما بلغت السيارة محطة نزولها استولى عليه الفزع وأخذ يدفع الناس عن طريقه فى اضطراب وهلع، لا هم له إلا أن يسبق هو إلى النزول . فأبدى أحد الراكبين ملاحظته على ذلك قائلا . « ياله من حيوان صغير وقح » وكان ذلك على مسمع من أمه التى كانت من ورائه فنهرته فى غضب وقد ساءها تصرف ولدها الذى لم تعهد فيه سوء الخلق ، وانتزعته فى عنف إلى رصيف المحطة . وتاق صاحبنا إلى أن يفسر الأمر لأمه ولكنه أحس بأن أوان ذلك قد فات . وأخذ يسير من خلفها وفى نفسه ثورة على الكبار عموما .

ثم أرسل هذا الولد الصغير ليقيم مع جده وجدته دون أن يأبه أحد لرغبته فى أن يبقى إلى جوار أمه . لكنه مع هذا قد استمتع بالفترة التى قضاها مغتربا عن أمه ، ثم عاد إلى البيت واندفع مهرولا إلى حجرة أمه مشتاقا إلى أن يعلو على ركبتيها فيمنحها أحر قبلاته ، ولكنه توقف مأخوذا فى منتصف الطريق ، لقد وجد على ركبتيها ــ وهما مجلسه من

قبل — وليدا صغيرا أحمر الوجه . وبدلا من أن يتمكن من أن يطوق رقبة أمه بذراعيه أمرته ألا يقترب منها حتى لايدوس رأس الوليـــد. وأذهل الطفل أن يفصل بينه وبين أمه مثل هذا الوليد الصغيرذي الوجه الأحمر ، وظل يتحين الفرص حتى وجد نفسه منفردا فى الحجرة مع هذا الوليد الذى كان يرقد فى فراشه على الأرض وعندئذ وطىء بقدمه — ومن حسن الحظ أنه كان يلبس نعلا خفيفا — وجه الوليد الصغير ، ولولا أن أمه دخلت الحجرة فى اللحظة الحاسمة لكان قد داس على وجه الوليد بكل ما أوتى من قوة . وعندئذ لم يشعر الطفل إلا وقد رفعته أمه بين يديها وكادت أن ترمى به خارج الحجرة وهكذا استحالت أمه التى لم يكن يجد عندها إلا العطف والحب إلى نمرة مفترسة تدافع عن صغيرها . وقالت بغضب . . . « أنت ولد شقى » وانهالت على ولدها المفزع بأول صفعة قوية تلقاها فى حياته . ومادت الأرض من تحته حين وجد أمه التى كانت حارسه وحاميه زمنا طويلا قد وقفت إلى جوار هذا القادم الجديد تناصبه العداء .

الطفل الضال (٤ سنوات)

خرجت الطفلة مع أمها تبتاعان بعض مايلزمهما من متجر بالمدينـة وكان يعج بالمشترين فخشيت الطفلة أن تضل وكان هـذا الخوف يشغل بالها . فازدادت تعلقا بذراع أمها ، ثم تحولت إلى سترة أمها حـــين اضطرت الأم أن تستخدم يدها فى حمل بعض السلع . ولم يـكن تعلقها بسترة أمها ليشيع فى نفسها الطمأنينة التى كانت تحس بها حين كانت تمسك بيدها التى كانت تستجيب لقبضتها . وعلى الرغم من هذا التعلق الشديد

فقد أخذ جمهور المشترين يباعد بين الطفلة وأمها . ولقد أخذت الطفلة تشق لها طريقا ظنت أنه سيوصلها إلى حيث تجد أمها ، ولكن دون جدوى ، ثم وقعت الكارثة وضلت الطفلة الطريق . ولم يكن من الميسور أن تهتدى الطفلة إلى أمها وسط هذا الحشد من المشترين بسلالهم ومن أطفالهم بعرباتهم . وظلت تندفع فى وحشية خلال هـذا الجمهور الغفير وعيناها لا تكادان ترتفعان إلى مافوق ركبة القوم ، وهى تصرخ فى صوت تخنقه العبرات « ماما ماما . . . . » وأخـذت تتصفح الوجوه علها تجد من بينها ذلك الوجه الذى طالما أحبته . وحين لم تبلغ من ذلك ماتريد انفجرت باكية .

واستوقفتها امرأة رحيمة وسألتها قصتها ، وجهدت أن تفهم منها مالم تستطع أن تبين الطفلة عنه . وفجأة تعلق نظر الطفلة بظهر أمها الذى كان منظره مألوفا لديها ، والتى كانت تبحث عنها فى شىء من القلق فى عكس الاتجاه الصحيح ، فاندفعت الطفلة نحوها وطوقت بذراعيها فخذى أمها ، واحتضنتها فى شعور غامر من الارتياح والحب . أما السيدة فقد نظرت إلى أسفل لتجد وجه طفلتها المبلل بالدموع ، وصاحت فى غضب « انت بنت شقية . . وسأريك عاقبة تركك إياى وأنا مشغولة فى الشراء . . » وانفجرت الطفلة ثانية فى البكاء الذى حال بينها وبين أن تشرح لأمها ماحدث ، فلم يكن من الأم إلا أن جذبتها اليها بعنف وصفعتها على وجهها عدة صفعات « علشان تبطلى عياط » .

منطق الطفل (ثلاث سنوات ونصف سنة)

كان الولد الصغير يجلس إلى مائدة الإفطار مع والديه وثلاثة من الضيوف ، وقد انهمك جميعهم فى الحديث ، ولم يكن الطفل يفهم مايدور

بينهم من نقاش ، ووجد من العسير عليه أن يجتذب انتباه أمه إلى أنه قد فرغ من طعامه . فانفلت نازلا من على كرسيه ، واستخرج بعض الكتب من مكانها ، وراح يلعب بها وينظمها على هيئة قطار . وبعد نحو خمس دقائق أشرف حديث الكبار على نهايته وقد أحست الأم بالغيظ والاستياء لأنها ألزمت الحجة فى الجدال ، ووقع نظرها على الكرسى الشاغر إلى جوارها فقالت لولدها « عد إلى كرسيك واطلب أن يؤذن لك فى النزول » لكن الطفل استمر فى لعبه ، فكررت أمرها إليه فى صوت عال ، وعندئذ سار إليها حتى واجهها وقال : « لكن أنا نزلت خلاص » فصاحت به الأم وقد استشاط غضبها « ما تبقاش وقح . . ارجع للكرسى واستأذن إنك تنزل » . وهنا كانت الأنظار قد تحولت جميعها إليهما . وأصرت الأم على أن تحفظ هيبتها ، على حين كان الولد الصغير يريد أن ينتقم منها جزاء إهمالها له أثناء تناول الطعام وحين كان يريد الاشتراك فى الحديث الذى يدور بين الكبار . وحاولت أن ترفعـــه لتجلسه على الكرسى ولكنه إنفلت منها إلى الأرض ، فأمسكت به ولكنه اندفع هارباً ، ولحقت به وتشبثت بكتفه وأدارته إليهـا حتى أصبح منها وجهاً لوجه ، وقالت « إنت ولد شق خالص علشان عملت كده . حتعمل زى ماما ما بتقول لك وتستأذن تنزل ؟ » فأجاب الطفل فى إصرار « لأ . . أنا خلاص نزلت » وكان هذا فوق ما تطيق الأم ، فرفعته بين يديها وخرجت به من الغرفة وهو بين يديها يصرخ ويرفس والجميع فى حيرة وارتباك .

سامى يفسد الحفل (ثلاث سنوات ونصف سنة)

كان « سامى » يستمتع بعمل حفرة فى ركنه المفضل لديه من الحديقة مع ما فى ذلك من قذارة ، وكان يرتدى ثيابه القديمة ولذلك لم تحفل أمه ،

وكان قد صنع بركة جميلة من ماء وجده فى صفيحة علاها الصدأ وقد وجد فى ذلك متعة فائقة والذى زاد فى متعته أنه استخرج دودة كبيرة من الأرض وجعل يعلمها السباحة فى ماء البركة . وبدت الحياة فى هذه اللحظة جميلة فى نظره .

وعلى حين غرة انقضت عليه أمه دون انذار سابق ، وطلبت إليه أن يدخل إلى المنزل فى الحال ويستعد للذهاب إلى منزل عمه ليتناول عنده الشاى ، فكان لذلك وقع الصدمة المباغتة على نفس « سامى » — إذ لم يكن يتصور أن تفسد عليه أمه هذه « العصرية » الجميلة وراح يجأر بالاحتجاج الصارخ ، لكنها حملته وهو يرفس ويصرخ إلى داخل المنزل وبعد نصف ساعة ألقت به أمه العابسة وهو نظيف الثياب — لما يزايله حنقه — فى عربة أطفال كان يمقتها حتى وهو فى أسعد أوقاته ، إذ لم تكن تتناسب وما يداخل نفسه من إحساس بأنه كبر . ولحق بهما الأب عند باب المنزل وبرحوا جميعا المنزل . وانهمك الأبوان وحدهما فى الحديث طوال الطريق لا يقطعانه بين الحين والحين إلا لينهيا الطفل عما يتصادف أن يكون بصدد القيام به . طلبا إليه أولا أن يجلس مستقيما ، ثم أمراه ثانيا ألا يخلع قفازه ثم ألا يعبث بمعطفه ثالثا . وعندئذ أسند ظهره إلى الكرسى وجعل يمص ابهام قفازه وقد استشعر التعاسة وتأكد لديه أنه لم يعد يحبه أحد .

ومع ذلك فانه حين اقترب من منزل عمه زاد ابتهاجه بعض الشىء ، لأنه تذكر ما كان يحس به من مرح فى المرات السابقة ولأنه تذكر ما كانت زوج عمه تمتعه به من ألعاب . وانفتح الباب وقبل ان يتمكن

« سامى » من أن يحي أخذت أمه تحدث عمه بما ارتكب « سامى » من شقاوة وبما كابدته من تعب حتى استطاعت أن تستقدمه معها ، وتأذى سامى من ذلك ورفض أن يؤدى التحية على الاطلاق ، عما أطلق السنة القوم بالتعليقات الجارحة مثل « أولاد وحشين » فزاد ذلك من شعوره بالضيق .

ودخل الجميع الحجرة حيث كانت زوج عمه فى استقبال القادمين ، وانهمك الجميع فى حديث صاخب ، على حين كان « سامى » يتمتم (ولد وقح جداً) . وتذكرت زوج عمه بعد قليل أن تقبله ، ولكنه انفلت منها دون أن يمكنها من ذلك . واعتذرت الأم عن وقاحته وبدأت تروى لها كيف أنه أصبح ولداً صعب القياد ، ووقف « سامى » حتى مل الوقوف ، فاعتزم أن يرى ما يشغل الكبار به أنفسهم فوجدهم قد انهمكوا فى دراسة حديثهم وصحفهم وطلبوا إليه أن يمضى ليرى الوليد الذى أنجبه عمه ، فمضى ليجد الوليد فى مهده على الأرض ، ويرى أمه تشرح لخالته طريقة من طرق « التريكو » وبدا له أن أحداً لم يكن يلق إليه بالا . ولهذا اعتزم أن يتجول بنفسه فى أرجاء المنزل وتسلق على ظهر أريكة وترك نفسه يسقط عليها ليحدث بسقوطه صوت ارتطام . ولم ينهه أحد عن ذلك ولذلك استمر فى عبثه هذا ، وارتفع صوت الارتطام وازداد الصخب واستبدت به النشوة فأخذ يصيح فرحا . وكان هذا فوق ما يطيق الكبار الذين طلبوا إليه أن يتخذ لعبة هادئة .

وقد وجد « منفضة سجائر » ملأى بالرماد على منضدة صغيرة . ونفخ فى الرماد فى رفق أول الأمر فتساقط الرماد الناعم على أرض

الحجرة المصقولة ، ثم اعتزم أن يجعله يوما عاصفا ، فنفخ الرماد بشدة فتساقط الرماد وأعقاب اللفائف على أرض الحجرة إلى جوار الوليد. وقامت لذلك زوبعة عنيفة من الكبار ، وانهال اللوم والتقريع على « سامى » الذى قبع على الأرض محزونا يمص ابهامه ، منتظراً أن تغفل عنه عين الكبار .

ولم يطل به الانتظار ، فسرعان ما ارتفع طنين الحديث بين الكبار ثانية ، وقام من مكانه وأخذ يتجول فى هدوء فى أنحاء الغرفة ، وانتزع بعض الكتب من مكانها على الرف ، ولكن أباه طلب إليه فى غضب أن يعيدها إلى مكانها ، لأنها ملك عمه مخافة أن يتلفها ، ثم وقع بعد ذلك على قشرة من أرض الحجرة عليها أثر الطلاء ، وازداد سروره بها ، وظل يستمتع باللعب بها عدة دقائق تخيل نفسه فيها أحد المحاربين المغاوير ، واتخذ من ذراعيه مدافع يصلى بها طائرات العدو ناراً ، وأخذ ضجيجه يعلو رويدا رويدا ، وتصايح به الجميع من كل جانب ، لا لشىء إلا لأن الكبار لم يعودوا يسمعون أنفسهم .

ثم راح يتجول حتى انتهى إلى نافذة مفتوحة تطل على الحديقة ، ولم يكن بها مايستوقف النظر ، لكنه توقف ليفحص هذه العجينة التى تستخدم فى تثبيت ألواح الزجاج ، فقد كان بالنافذة بعض الألواح الزجاجية التى تم تركيبها بالأمس وكانت العجينة لا تزال طرية ، فأخذ سامى ينبشها بأصابعه فتجمع له من هذا كرة كبيرة حسبها من الصلصال ومد يده لينتزع آخر قطعة من العجينة فاذا بلوح الزجاج يهوى إلى الأرض ويتحطم وتتناثر شظاياه ، وتملكه الفزع وهم بالبكاء . واندفع

الكبار نحوه وأخذ الجميع يتحدثون عما وقع ، وطلبت إليه أمه أن يعتذر إلى زوج عمه ، لكنه لم يكن يدرى لكل هذا معنى ، ولذلك فقد اختلط عليه الأمر وأخذ يتراجع إلى الوراء وفسر الجميع سلوكه هذا بأنه نوع من الغباء فى طبيعته ، وإصرار على عدم الاعتذار . وحين استلقى على الأرض خلف الأريكة يمص أبهامه كانت تتناهى إلى سمعه أصوات الكبار وهم يتحدثون عن سوء سلوكه ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يفهم أكثر مايقولون ، إلا أنه أدرك من نغمة الحديث أنه غير محبوب لديهم.

وعلى الرغم من أنه كان يحس الجوع إلا أنه انشغل عن تناول الشاى حين حانت ساعة تقديمه . وهو يأمل أن تثير أمه لذلك نوعا من الصخب ، وأن تترضاه ليأكل ، كما اعتادت أن تفعل حينما كان متوعكا فى الأسبوع الفائت ، ولكنها أخلفت ظنه هذه المرة وأصرت على أن تتجاهله لتؤكد له أنها ستوقع عليه العقاب لأنه أفسد على الكبار أمسيتهم .

وأحس « سامى » نحو الجميع بشىء من الكراهية ولم يقبل أن يقول لعمه وزوجته عند مبارحة منزلها « وداعاً » كما أنه لم يشكرهما على استضافتهما له ، ولم يكن ذلك بالشىء المستغرب منه ، ولكن أمه أحست بوخزة الخجل وهى تنتزعه لهبط الدرج .

وكان آخر ماودعت به العم وزوجته « إحنا متأسفين جداً على شقاوة الولد ده ، أنا مش قادره أفهم هو ليه بقت أخلاقه وحشة »، ولم تكن فعلا تفهم سر سوء سلوكه . لم تكن لتتصور أن طفلا لاتزيد سنه على الثالثة والنصف يمكن أن يستشعر الضيق وأن له إحساساً يمكن أن

بجرح ، وأنها بانهماكها فى الحديث مع الكبار قد جعلته يشعر بأنه غير مرغوب فيه ولايحبه أحد صحيح أنها من أرق الناس قلباً ، ولكنها للأسف كان يعوزها بوصفها أما القدرة على تصور نفس طفلها وفهمها .

مص الاصابع

ربما كان من المناسب قبل أن نختتم هذا الفصل أن نذكر شيئاً عن « مص الأصابع » بعد أن ذكرنا أن « سامى » قام عدة مرات بمص ابهامه أثناء هذه الأمسية التى لم يستشعر السعادة فيها .

منذ عشرين سنة مضت أخذ الأطباء التقدميون يدعون إلى نبذ « المصاصة » ويصفونها بأنها من أهم الأسباب المؤدية إلى إصابة الطفل بالزوائد الأنفية واللوز وتشويه الفك والتهاب اللسان وما إلى ذلك من الأمراض التى تنشأ عن الجراثيم والأوساخ التى تدخل جهاز الطفل الهضمى . وقالوا كذلك بضرورة الاقلاع عنها لأنها عبارة عن مجرد مسكن يمكن الأمهات من أن يوقفن بكاء أطفالهن دون أن يعملن على إزالة السبب الأصلى للضيق الذى يدفع إلى البكاء .

وكان هذا جميلا من الناحية النظرية ، وامتنعت صغار الأمهات اللاتى يردن تنشئة أطفالهن على الطريقة العلمية عن شراء هذه « المصاصات » ولكن المشكلة تفاقمت إلى درجة لم تكن تتوقع — وأجاب الأطفال أنفسهم عن هذه المشكلة ، حين اتخذوا من أصابعهم عن المصاصة عوضا . فنحن الآباء أمام مشكلة فعلا ، وما أكثر الحلول المقترحة لحلها ، فمن قائل نلبس الطفل قفازاً لنحميه بذلك من الضرر الجسمانى ، ومن قائل نسمح له ان يمص إصبعه حين يريد حتى يحفظه من الضرر النفسانى .

فالمشكلة صعبة كما ترى ، ما دام الجميع يريد أن ينشأ الطفل دون أن يضار فى جسمه أو نفسه .

علينا إذن لكى نحل المشكلة أن نتعمق وراء جذورها وأن نفهم الأسباب التى تحمل الطفل على أن يمص أصابعه ، حتى نعينه على التخلص من الرغبة فى تلك العادة وما أشبه عادة مص الأصابع بعادة التدخين لدى الكبار . فكر قليلا فيما يجلبه التدخين من راحة المدخن حين يستشعر الضيق . ونحن حين نحس الضيق ونعانى الهم ونكابد الاكتئاب . ماذا ترانا نعمل ؟ ألسنا نهرع إلى إشعال سيجارة لتعيننا على مواجهة هذا الموقف الكريه . وكذلك الطفل الصغير ، هو يحس دائماً أمثال هذه الإحساسات وهو يجاهد ليكيف نفسه ومقتضيات هذه الحياة المعقدة الأنماط . وهو إن أحس الطمأنينة حين يعلم أن من حوله من الكبار يحبونه ويفهمونه ويقومون بمساعدته فقد استطاع التغلب على الصعاب والإفادة منها . أما إذا استشعر القلق وكراهية من حوله له راح يلتمس وسائل الارتياح فى مص الاصابع ، لأن مص الأصابع كان قد ارتبط فى ذهنه أثناء طفولته بالسعادة والارتياح ، ومن طبيعة الإنسان حين يحس الشقاء أن ينتكس إلى الوراء ويرتد إلى المراحل الأولى التى مر بها .

ولهذا فإن الآباء الذين يقض مضاجعهم مص أولادهم لأصابعهم يحسنون صنعاً لو وجهوا إلى أنفسهم الأسئلة الآتية :

هل هناك من الأسباب التالية ما يدعو الطفل إلى أن يستشعر أنه غير مرغوب فيه لا يحبه أحد :

ـ لأن وليداً جديداً يحظى بكل إنتباه من حوله ؟

ـ لأننا كثيراً ما نقومه ونلومه ؟

٣ ـ لأن هناك من يضربه أو يصفعه كلما خرج فى سلوكه عن الآداب التى رسمها الكبار ؟

٤ ـ لأن من حوله لا يفهمون الدوافع التى تدفعه إلى العمل ؟

٥ ـ لأنه يشعر بالنقص لأنه يقصر عن أن يبلغ مستويات الكبار ولا يجد تشجيعاً كافياً ممن حوله ؟

٦ ـ لأنه يشعر بالإهمال حين يحتكر الكبار الحديث فيما بينهم ؟

٧ ـ لأنه يحس الضيق حين لا يجد شيئاً مناسباً يشغل به عقله وجسمه الآخذين فى النمو السريع ؟

٨ ـ لأننا نخيفه من أشياء حقيقية أو وهمية ؟

٩ ـ لأنه يسمع والديه يتشاجران ؟ .

ويمكننا أن نسترسل فى ذكر أمثلة أخرى ، ولكننا نأمل من وراء ذكر هذه الأمثلة القليلة أن نبين أن الطفل إنما يمص أصابعه ليستشعر الراحة . فإن بذلنا ما فى وسعنا لإزالة أسباب الضيق التى لا مبرر لها فإننا نكون قد قطعنا شوطاً بعيداً فى منع هذه العادة . وإن رأينا أن الطفل قد عاودها الآن وكررها حينما يكون مفكراً أو على وشك أن ينام فلسنا بحاجة إلى أن نقلق على ذلك أكثر مما ينبغى . وإما أن وجدنا أن الطفل قد أصبح أكثر إهتماما بها أكثر من أى نوع آخر من النشاط العادى الطريف كان من الحكمة أن ننشد معونة عالم نفسى فلربما كان السبب أوغل

فى الخفاء بحيث لا يستطيع أن يتبينه من هو أقل فى الخبرة من الأخصائى النفسى .

كان ينبغى أن نختتم هذا الفصل ببيان ما يجب على الآباء أن يفعلوه ولكننا سنرجىء ذلك إلى ما بعد . فإن غايتنا من إيراد هذه الحالات السابقة أن نبين كيف ينساق الآباء بسهولة إلى لوم أبنائهم وتعنيفهم بسبب أعمال لا يستحقون اللوم عليها .

الفصل الرابع

ما أضيق حيلة الآباء

ذكرنا فى الفصل السابق بعض الأمثلة البسيطة التى تبين كيف يسرع الآباء إلى وصف أبنائهم « بالشقاوة » ويوقعون عليهم العقاب دون أن يدركوا أن سوء سلوك أطفالهم مرده إلى أنهم لايحسنون فهم هؤلاء الأطفال ، وسنقوم الآن بسرد قصتين فى شىء أكثر من التفصيل تبينان بعض الأسباب الشائعة التى تخلق المتاعب فى أكثر المنازل العادية .

أما فيما يختص بالمشكلة الأولى فقد جابهتها اثنتان من الأمهات كل منهما بطريقة تختلف عن الأخرى تمام الاختلاف . وأما فى المشكلتين الأخريين فقد اقترحنا نحن حلولا نعلم من خبرتنا أنها حلول عملية لها فائدتها .

الواقعة الاولى (سنتان ونصف)

استسلمت الطفلة « سلوى » إلى الراحة بعد أن تناولت الغداء واستغرقت فى نومها ساعة ، فلما استيقظت أخذت تبحث حولها عن شىء تفعله . وكان أول مافعلت أن فكت عروة كانت على حافة الملاءة ، ثم قبضت قبضة من الزغب الذى كان بالحشية وأخذت تدعه يتساقط من بين قضبان سريرها وأخيراً انتصبت قائمة وأمسكت بقوة نهاية السرير

وهزته هزا كان له صوت شديد جعل أمها تصعد لتنظر ماذا يجرى فى غرفتها. قالت «سلوى»، «قصرية»، وأذعنت الأم لطلبها وأسرها أن تصل إبنتها بسرعة إلى درجة الكمال التى تنشدها لها، فأخذت تمدحها وتكثر من تقبيلها ثم أعادتها إلى سريرها وعادت ادراجها.

ولكن هذا جاء مخيبا لرجاء الطفلة، ومع هذا فقد راحت تحاول أن تتعزى عن ذهاب أمها، وخلت إلى نفسها فى استمتاع زهاء عشر دقائق، ثم تذكرت ما أصابت من نجاح لتوها، فأخذت تصيح فى صوت عال «ماما، ماما (قصرية)». واندفعت أمها تصعد الدرج واجلستها لتقضى حاجتها ولكنها طبعا لم يكن قد مضى عليها من الوقت ما يسمح لها بأن تستجيب، ولهذا فقد أعادتها الأم إلى سريرها فى عنف وعادت ادراجها لتستأنف عملها وانقضى ربع ساعة وعادت «سلوى» تحتال على أمها ثانية وزاد سرورها حين سمعت أمها تهرول صاعدة الدرج.

واستحالت المسألة لعبة جميلة. لكن أمها نهرتها فى تلك المرة لأنها طلبت (القصرية) وهى فى غير حاجة اليها. وأغلق الباب، وعمدت «سلوى» — وقد أصابها من الضيق أكثر مما بها — إلى الجلوس فى ركن من السرير تمص إبهامها. «هل قدر لأمى ألا تعود أبداً؟» وأخذت تناديها عدة مرات وتقول «سلوى فوق يا ماما» و«سلوى حلوة يا ماما» فى صوت تستميل به قلب أمها «ولكن أمها لم تستجب، ثم أخذت تهز السرير مرة ثانية وتنتظر، ولم يبد فى الأفق تباشير قدوم الأم، وانقضى ربع ساعة آخر بدأت «سلوى» تدرك بعده أنها فى حاجة إلى من يعنى بها.

وأحست الأم فى صوت الطفلة شدة الالحاف فى الطلب، فاندفعت نحو الدرج تصعده ، مهرولة . وكان الغضب قد بدأ يتسرب اليها ولكنها لم تستجب لغضبها خشية أن تكون ابنتها فى حاجة اليها بحق . ورفعت طفلتها فى خشونة من السرير وألقت بها على الأرض مرة أخرى . أما «سلوى» وقد رأت غضب أمها يتزايد — فقد داخلها الفزع — وتاقت إلى أن تدخل السرور إلى قلبها ، لكنها لم تفلح ، إذ حال الفزع بينها وبين أن تستجيب . فوقفت ونظرت إلى «القصرية» الفارغة تنتظر ماعساه يحدث ولم يطل بها الانتظار — فقد هوت يد الأم فى حدة على ظهر ابنتها وقالت «أنا حاعرف إزاى أخليكى تبقى تضحكى على . . » وهى تلقى بالطفلة الباكية فى سريرها بخشونة وغلظة تنفس بذلك عن غيظها ، ومضت وأغلقت من ورائها الباب .

واستحال بكاء «سلوى» إلى تنهدات ترسلها بين الحين والحين وأحست أنها تعسة لايحبها أحد . وعلى حين فجأة أحست الطفلة بحاجتها الملحة إلى التبول وكانت حاجة لاتحتمل التأجيل فصرخت فى ألم منادية أمها ، ولكن أمها كانت قد اعتزمت أن تعاقبها بأن تبقيها فى سريرها مدة طويلة ، ولم تكن تريد أن تتيح لها الفرصة لتسخر منها . وانتظرت «سلوى» حتى لم تعد تطيق الانتظار . ووقع المكروه «وبللت الفراش» وأيقنت أنها ستلقى كثيراً من التأنيب بل ومن الصفع ، وأخذت تبكى كلما فكرت فى ما سيحدث لها ، وبعد ساعة قدمت الأم لتصحبها إلى تناول الشاى ولكنها صاحت فى تأنيب «انت يا «سلوى» إزاى توسخى نفسك بالشكل ده ؟ ليه ما تندهيش ماما ؟ «فلما لم تحر الطفلة جوابا

وظللت مطأطئة الرأس أردفت الأم « كان لازم تندهي لى يا «سلوى» ماما ما بتحبش البنات الوسخين» لك الله يا «سلوى» . أنى لها أن تعرف ما كانت أمها تريد منها أن تفعل وليس من العجيب على من كان فى مثل سنها أن لا يعرف .

الواقعة الثانية (سنتان وثلاثة شهور)

كانت « عزة » مستلقية فى فراشها ، على حين كانت أمها ممددة فى سريرها فى الجانب الآخر من الغرفة بعد فترة طويلة من العمل المضنى فى الصباح ، ولم تكد تستسلم للنعاس حتى استيقظت طفلتها « عزة » وقالت « القصرية يا ماما » فاستجابت الأم لطلبها ، وقضت « عزة » حاجتها ، فأعادتها أمها إلى سريرها وهى تحدث نفسها « أنت بنت لطيفة » ثم عادت الأم إلى سريرها وقد سرها أن أدركت « عزة » فى الوقت المناسب .

ولم تكن « عزة » راغبة فى النوم أكثر من ذلك ، ولم تكن تريد لأمها أن تنام أيضاً فأخذت تقول فى صوت يرتفع حيناً ويخفت أحياناً « اصحى يا ماما » لكن أمها لم تأبه لذلك ، فأخذت « عزة » تناديها بنداءات مختلفة عساها تجذب انتباهها ، ولكن دون جدوى . وفجأة خطرت بذهنها فكرة ، فقالت « القصرية يا ماما » وسمعتها أمها ولكنها أدركت أن الأمر لا يعدو أن يكون حيلة واعتزمت أن تتجاهلها ، وأخذت « عزة » تكرر المحاولة على فترات متقاربة . فقالت لها أمها فى لهجة صارمة « أنت لسه مستعملة القصرية حالا ، وأنا لسه ماصحيتش . أنا تعبانه « يا عزة » .

وعثرت « عزة » على كتاب تحت وسادتها ، فتلهت به فترة وجيزة . ولكنها سرعان ما أحست الضيق وعاودت طلب « القصرية » بين الحين والآخر ، ولكن فى غير طائل ، ولم تكن الأم قد أستسلمت للنعاس بعد ، وإنما كانت مستلقية على السرير تسائل نفسها ، هل كانت ابنتها صادقة فيما تقول حقا ولم تكن تستطيع أن تتبين ذلك بطبيعة الحال ، فقد ضحكت منها « عزة » قبل ذلك عدة مرات ، ولهذا اعتزمت أن تجازف فلا تستجيب لطفلتها وإن أدى الأمر إلى أن يبتل السرير ، وكان هذا أفضل لديها من أن تشعر « عزة » أنها قد اتخذت من ذلك سلاحا فعالا تستخدمه ضدها فى المستقبل . وقررت ألا تجلس طفلتها على «القصرية» إلا فى الميعاد المعتاد وليكن بعد ذلك ما يكون . وأخـــذت الأم فى الانتظار — وكانت الطفلة صادقة فى احدى المرات التى طلبت فيها « القصرية » ولكن أنى للأم أن تتبين أى المرات كانت الطفلة فيها صادقة . وعلى كل حال لقد كانت المسألة أشبه بلعبة . والذى لا شك فيه أن « عزة » ستعتاد الصدق حين تطلب « قصريتها » ، واقتربت الأم من السرير وأشارت فى شىء من قلة الاكتراث إلى ما يجره التبول فى السرير من تعب ، ووافقتها ابنتها على ذلك والمرح باد عليها ، واعتبرت المسألة بذلك منتهية .

لسنا نعرف أى الطفلتين استطاعت أن تنظم عملية التبول قبل زميلتها ، ولكن الذى نعلمه أن « سلوى » وأمها كانت تتعب كل منهما الأخرى ، وكانتا تعدان عملية استعمال القصرية كابوسا يقض مضاجعهما على حين أن أخطاء « عزة » كان ينظر إليها على أنها جزء من عملية

النمو فلم تكن لتجعل سبباً فى أحداث أزمات انفعالية فى حياتها وحياة أمهـــا .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا أنه ليس من الحكمة أن نلزم الأطفال بمستوى من النظافة فوق ما يطيقون ، أو أن نضع قواعد جامدة تهدف من ورائها أن يتمكن الأطفال من ضبط عمليتى التبول والتبرز عند سن معينة ، إذ أن لكل طفل قاعدة خاصة به فهو يستجيب لهاتين العمليتين بطريقته الخاصة ، وليس للقلق الذى يبديه الكبار من فائدة سوى أنه يبعث الكآبة فى نفس الطفل ويجعله شديد التأثر وأقل قدرة على عملية الضبط وقد قامت المؤلفة بدراسة واسعة لهذه المشكلة ولم تترك أما إلا سألتها عن الطرق التى تتبعها وعن النتائج التى انتهت إليها . وقد تبين بصفة عامة أن الاطفال الذين كان آباؤهم أقل حرصاً على تدريبهم على ضبط هاتين العمليتين هم الذين وصلوا إلى أحسن النتائج . وليس معنى هذا أنهم لم يتلقوا أى تدريب ، وإنما معناه أن الآباء لم يكونوا يظهرون من الاهتمام بهاتين العمليتين أكثر من اهتمامهم بالتدريب على الحبو والمشى . إن الآباء لايصطنعون التهديد ولا الإغراء ولا الإكراه ليجعلوا الأطفال يحبون قبل أن يكونوا قد استعدوا لذلك . وهم كذلك لايتطلبون من الطفل أن يتعلم استعمال عضلاته استعمالا صحيحا إلا بعـــد أن يتيحوا له الفرصة الكافية بأن يضعوه على الأرض على مقعدته فى أوقات مناسبة أثناء النهار . وليس هناك من يصل به الغباء إلى حد أن يعتقد أنه إن وضع الطفل على الأرض طول النهار فقد مكن الطفل من أن يسرع فى تعليم الحبو ، ولو أن محاولة من هـذا النوع

وقعت لكانت نتيجتها أن يتعب الطفل وتنتابه حدة الطبع بعد مدة تتراوح بين عشر دقائق أو خمس .

ومع هذا فنحن نسرف على أنفسنا فى تدريب الطفل على استعمال القصرية إلى درجة تضطرب معها كل شئوننا المنزلية ، فيتأخر موعد تناول الطعام وخروجنا للنزهة ، ونفقد هدوءنا ، وما ذلك إلا لأن طفلا تعسا قد انقضت ثلاثة أرباع الساعة وهو جالس على « القصرية » غير مستطيع أن يفهم الكبار أن أوان ذلك لم يحن بعد . والظاهر أن الطفل يطرأ عليه الحاجة إلى استعمال القصرية بصورة مفاجئة لاتحتمل التأجيل . ولذلك فان جلوس الطفل على هذه الأداة البغيضة مدة طويلة قد يحقق الحاجة المؤقتة ولكنه لايعين الطفل على أن يتعود ضبط هذه العملية بل يجعله بدلا من ذلك يستشعر البؤس والضيق ، ناقماً على العملية بأكملها (١) .

أليس الاطفال أذكياء ؟ (أربع سنوات ونصف وخمس سنوات)

تصور القصة التالية حاجة الآباء إلى أن يفهموا مراحل النمو الطبيعية التى يمر بها الأطفال حتى لايقيسوا تصرفات الأطفال الصبيانية بمقاييس الكبار . كان الآباء فى هذه القصة بالذات ينظرون إلى المسائل الجنسية نظرة الكبار ، ولايدركون أن الأطفال ميالون إلى التعرف على الطريقة التى تعمل بها أجسامهم ، وأنهم يخضعون لناموس الطبيعة وشأنهم فى

(١) سنزيد هذه المشكلة توضيحا فى نهاية هذا الفصل

ذلك شأنهم حين يريدون أن يتعرفوا على الطريقة التى تعمل بها العربة والآلة البخارية . إن كل ما يأتيه الأطفال من أعمال برىء حتى يدلهم الكبار على موضع الخطأ فيها . إننا ندفعهم إلى أن يكابدوا « الاحساس بالخطيئة » الذى يزيد من اهتمامهم بأحسامهم إهتماما أكثر مما تدفعهم إليه غرائزهم الفطرية ، فنحن بذلك نجعل من الحبة قبة .

* * *

أرسل بولد وبنت صغيرين ليلعبا معاً فى الشارع لكى يستمتع الكبار بحديث هادىء قصير . وظلا يلعبان بالكرة حتى ضاعت ، فأخذا يجريان كالجياد حتى نال منهما التعب ونضح منهما العرق . وأخيراً اعتزما أن يرتادا الممر الضيق الذى تكسو بعض أجزائه النباتات البرية الباسقة . وأخذا يتجولان وهما يتحدثان فى شوق عن « الأسود والنمور والأدغال » وقد داخلهما شعور فياض بالجرأة والمجازفة ، وعلى حين فجأة توقف الولد الصغير — وكان الرائد لزميلته — ودون أن يستشعر الحرج شرع يتبول . أما الطفلة — التى لم تكن تخرج من بيتها إلا لماما — فقد أصابها الدهش والسرور لمثل هذا المنظر ، واشتهت أن تقضى حاجتها على هذا النحو الذى يستوقف النظر . وداخل الطفل شعور بالزهو والغرور إذ وجد نفسه موضع الإعجاب والغبطة . ولم يكن فى حاجة إلا إلى قليل من التشجيع ليعرض تلك المنحة الرائعة التى حبته بها الطبيعة كلما اشتركا فى لعب .

وكانت الأسرتان تقيمان فى مسكن واحد مما أتاح للطفلين كثيراً من

الفرص . ولم تكن الطفلة تكف عن طلب هذا العرض كما لو كانت تسأل ساحراً أن يعيد عليها عرض أحسن ألعابه . وقد بلغ من سرورها بهذا الإكتشاف الجديد الذى اهتدت إليه أن أسرعت إلى أمها فى لهفة بالغة تسألها أن تجىء معها الى الحديقة لترى ما يستطيع الأولاد أن يفعلوا وما أن تبينت الأم ما أرادت طفلتها أن تطلعها عليه حتى ركبها الفزع وانتابها شعور غامر من التقزز والنفور أن تكون لها ابنة ذات عقل مأفون . كيف يكون حالها حينما تكبر إن كانت تأتى مثل هذا السلوك المعيب وهى لما تزل طفلة ؟ وعصفت برأسها هــذه الأخطار فانهالت على الطفلين الضالين وجعلت تعنفهما عقابا لهما على مالم يرتكبا بل ولم يفهما . ودفعتهما بيدها فى خشونة وغلظة أمامها الى المنزل ، وأسرت بهذه القصة إلى زوجها وإلى والد الطفل ، ووقف الطفلان بلا حراك يتنقلان بنظرهما من وجه لوجه فى ذعر ودهشة ولم يكونا يستطيعان أن يفهما عن الكبار كل ما يقولون بيد أنهما استطاعا أن يدركا أن ما كانا يفعلان عمل أثيم ، وأنه سوف لا يحبهما أحد وأنه سيرسل بهما كل إلى فراشه عقاباً على ما فعلا .

وأجهشت الطفلة بالبكاء . أما الولد فقد رفس بقدمه ساق أبيه بعد أن رأى ضرورة الدفاع عن نفسه — وتحت وابل من الزجر والتعنيف دفعت السيدتان الحانقتان طفليهما إلى فراشيهما . وودعهما والد الطفل — وكان لا يزال يشكو ألم ساقه المرضوضة — بقوله «إياك نشوفكم تانى بتعملوا الحكاية دى» ولكن هون عليك أيها الأب — إنهما سيكونان فيما بعد أكثر حرصاً على أن يختفيا عن أنظار الكبار . لقد صار لهما

الآن سر أنهم سيصران على الإستمتاع به دون أن يقطع أحد عليهما لذة ذلك الإستمتاع .

ونحن نعلم أن كل الآباء لم يكونوا ليعاملوا أبناءهم بمثل هذه المعاملة الخرقاء ، ولكننا نعلم كذلك من خبرتنا أن كثيراً من الآباء لا يقدرون المسائل الجنسية حق قدرها . ومن المهم أن يقوم الآباء أفكارهم عن هذا الموضوع ، وأن يتفقوا فيما بينهم على سياسة رشيدة قبل أن يتعلم أبناؤهم الكلام بمدة كافية ، ويستطيع القارىء أن يجد فى التحليل التالى حلا معقولا لمثل هذه المشكلات .

لم يكن يدور بخلد الطفلة أنهما يأتيان منكراً من الفعل ، حينما أبدت إهتمامها بالطفل حين يكشف عن عورته ، وإلا لما كانت قد طلبت إلى أمها أن تصحبها لتراه على هذه الحال . ولهذا فقد كان فى استطاعة الأم أن تكون طبيعية عملية لو أنها أدركت أن كل الأطفال يمرون فى مرحلة يشتد فيها ميلهم لاستطلاع كل ما يتصل بأعضاء جسمهم والوظائف التى تقوم بها . وكم كان يجدر بها أن تقول شيئاً من هذا «أيوه ، آه ، الأولاد الصغيرين ربنا خلقهم غير البنات الصغيرين . أمال ماما كانت تعرف الولد والبنت مثلا إزاى إذا كانو يتولدوا كلهم زى بعض ؟ » كذلك كانت تستطيع بعد أن تصطنع هذا الاتجاه الواقعى أن تردف أنه من الافضل لهما أن يستخدما المراحيض فى المستقبل بدلا من استعمال الحديقة إن لم يكن فى ذلك ما يشق عليهما ، كذلك تبين لهما أن الحيوانات تستخدم الحديقة على حين أن الناس يستخفون ، وبذلك كان يمكن أن ينتهى الموضوع وينصرف تفكير الاطفال إلى موضوع آخر.

ونحن نرى أن معالجة الموضوع على هذا النحو أمر ليس بالعسير على كل أم اعتادت أن تنزل إلى مستوى الأطفـــال فى تفـكيرها ، وإذ ذاك يصبح الأطفال أكثر ميلا إلى موافقة الآباء فى آرائهم وأكثر قبولا لإرشاداتهم ، لأنهم قد كبروا وهم يعتقدون أن آباءهم أصدقاء لهم وقوم معقولون فى تصرفاتهم نحوهم . ولهذا فإن الطفلة التى روينا قصتها سيدوم اهتمامها بجسم الطفل بعد أن استثير على النحو السابق ، على حين أنه لو أن أحداً لم يخبرها بأن تطلعها هذا عمل أثيم لكان قد فتر اهتمامها به كما يفتر اهتمام الأطفال بكل شىء جديد مثير بعـد ما يصبح مألوفاً وبالتالى مملا .

الهندى الاحمر (ست سنوات)

كان « صلاح » منهمكا فى لعب صاخب مقلداً الهنود الحمر مع ولدين يكبرانه سناً من أولاد الجيران . وبينما كان يتسلل خـلال الأعشاب المتشابكة وهو يصفر وينفخ تناهى إليه صوت أمه تناديه لتناول الغداء . وكان يحس الجوع وتهفو نفسه إلى طبق المربى الذى رأى أمه تصنعه قبل أن يخرج إلى اللعب . ومع هذا فقد كان عليه أن يتم عملية التسلل قبل أن يمضى للغداء لأن الأطفال كانوا قد سخروا منه واتهموه بالعجز . وظل يجاهد ليتم عملية التسلل فى الوقت الذى كانت أمه تـكثر من ندائه فى صوت ينم عن القلق .

ولم يكن قد اجتاز الممر بعد ــ وكان عليه أن يسرع ، لأنه كان يعلم أن ثيابه ستتسخ وأنه لن يتمكن من تناول الغداء إلا وهو نظيف

الثياب . وقدر فى نفسه أن كل الهنود قذرون ، وأن من الخير له أن يعود ولداً قبل أن تراه أمه وهى لا ترضى أن تراه كل هندياً قذراً .

واعتزم « صلاح » أن يزيل عن وجهه « طلاء الحرب » من دلو كان قد ترك خارج باب المطبخ ، لأنه لم يرد أن يتسبب فى اتساخ الحمام الأمر الذى يغضب أمه . وفى نية حسنة غمس ممسحة البلاط فى الدلو وجعل ينظف وجهه بها ، وكانت من الكبر بحيث تساقط المـــاء على صدره وبلل ثيابه حتى قدميه . واستبد الضيق بالأم بسبب تأخره ، فخرجت إلى الحديقة تبحث عن ولدها ، وانقضت عليه وأخذت تعنفه فى قسوة لأنه تأخر عن الحضور حين نادته أولا ، ولأنه تسـبب فى اتساخ ثيابه ثانياً . وحاول أن يبين لأمه إنه إنما نظف وجهه من الدلو لأنه كان يمثل دور الهندى فى لعبه مع الأطفال ولكن الغضب حال بين أمه وبين أن تستمع إليه . وأخذ الطعـــام يبرد ولم يكن الوقت وقت اللعب . وأمسكت بذراعه لتسرع به إلى الحمام . وجعل «صلاح» يجاهد ليخلص ذراعه من قبضتها ، فقد كان على استعداد تام أن يصعد بنفسه ــ ولكنها لم تترك ذراعه وظل يحاول التخلص ويثور قائلا « سيبينى أطلع لوحـدى » ولكنها رأت ألا تدعه يغلبها على أمرها ، فاشتد ضغط يدها عليه ، وأخذت تدفع به ليصعد وهو يصرخ ويرفس . حتى إذا ما وصلا الحمام لم تكن حالته المزاجيـــة لتسمح له طبعاً بالاستحمام ، واعتزم فى نفسه ألا يمكنها من أن تنظفه فى سهولة . فما دامت تعامله على أنه طفل فليسلك إذن مسلك الأطفال .

واستلق على أرض الحمام وهى تنظف له وجهه وأرغمته على الوقوف

على قدميه وحاولت أن تنظف يديه بالصابون ولكنه قبض على راحتيه حتى اضطرت أن تفتح أصابعه بالقوة . ثم جذبته من ذراعه تهبط به الدرج ولكنه قاومها بأن تشبث بيده الأخرى (بالدرابزين) وهو فى أثناء ذلك كله لا يكف عن الاحتجاج الصارخ ، وأصرت أمه — وهى تصك أسنانها من شدة الغيظ — ألا يغلبها على أمرها ، ولذلك فقد حملته بين ذراعيها ومضت به إلى كرسيه .

وكان هذا آخر ما احتمل « صلاح » . تصور أنها تحمل بين يديها ولداً فى السادسة من عمره . لقد جرحت كبرياءه جرحا لا يلتئم . فارتمى على أمه وأخذ يضربها بكلتا قبضتيه فى سورة من الغضب ، مما جعلها تحمله ثانية بين ذراعيها وألقت به فى حجرة وأوصدت من دونه الباب وجعل « صلاح » يصرخ ويضرب الباب فترة قصيرة ، ولما سكت عنه الغضب جلس على الأرض وساورته الافكار السوداء حول أمه ، واستمر يحدث نفسه عن السبب فى رفعها إياه عن الأرض وغمره شعور عميق من الاستياء . إنه لم يكن يبغى إلا رضاها حين اغتسل من الدلو ، فأين هو الآن ؟ — ألقى به فى هذه الغرفة بلا طعام . ولم يكن هذا فى نظره من الانصاف فى شىء . وسأل نفسه « هل تشعر أمه بالأسف لانها قد قست عليه ، ألا يحتمل أن ينفرج الباب عن أمه وقد أقبلت لتقول « أنا آسفة ياصلاح فلم أعرف انك هندى تغسل وجهك من الدلو » وقدر فى نفسه أنه سيطوق عندئذ جيدها بذراعيه ويغفر لها وتعود الصداقة بينهما ، ويستمتع بغدائه .

لكن أمه التى كانت لسوء الحظ لاتزال تخشى الهزيمة أمام ولدها

لم تفعل شيئاً من هذا . وإنما فتحت الباب وقالت في برود « إذا قلت لماما « أنا آسف على شقاوتي حخليك تخرج وتتغدى » وبدا هذا سخيفاً في نظر « صلاح » . أنه لم يشعر بأنه كان « شقياً » — وغاية ما هناك أن أمه لم تفهمه — ولهذا فقد رفض أن يعتذر ، وظل حيث كان ، وحرم الغداء ، ودام الجفاء بينهما بقية اليوم ، ولم يكن أحد منهما سعيداً .

وحان موعد النوم فلم يعد يحتمل أكثر من ذلك ، ولهذا فقد اعتذر لأمه ، لا لأنه كان يعتقد أنه أتى ما يوجب الإعتذار ، وإنما ليترضى أمه فحسب . وسرت أمه بذلك كثيراً ، فعانقته بحرارة وقبلته عدة مرات . وقد خيل إليها أنها قد أحرزت نصراً مبيناً في معركة خلقية ضد ولدها . والحق أنها إنما بذرت بذور الكراهية في قلب الولد الصغير ، وأوقعته في اضطراب شديد ولم يعد يميز بين الصواب والخطأ .

ونحن نأمل من إيراد قصة « صلاح » أن نبين ما نقصـــد بقولنا « الأطفال على حق » . إننا لا نقول إنه كان على حق حين جعل يصرخ ويرفس ويضرب أمه ، ولكننا نقول إن نواياه الأولى كانت طيبة ، وأنه لما عجزت أمه عن أن تدرك أن له وجهة نظر قد تكون معقولة جداً ترتب على ذلك ما ترتب من الخصام ، ولو أنها اعتادت أن تنزل إلى مستواه وأن تفهم عالمه الذى يعيش فيه لكانت عالجته على غير هذا النحو ولكانت القصة قد كتبت على النحو التالى .

كان « صلاح » منهمكا فى لعب صاخب يقلد فيه الهنود مع ولدين من أبناء الجيران ، وكان مصراً على أن يتسلل حتى آخر الممر الذى صنعه فى الأعشاب المتشابكة لمجرد أن يثبت أن فى استطاعته أن يفعل ذلك . وسمع صوت

أمه تناديه للغداء ، فضاعف من جهوده لأنه كان جائعا و لأنه لا يقبل لأمه ان تجلس وحدها إلى الطعام . ونادته ثانيـة وذكرته بطبق المربى الذى شاهدها وهى تصنعه . واستوى قائما وجرى نحو باب المطبخ حيث وجد دلوا قد تركه شخص وبه ماء قذر . واعتزم أن ينظف نفسه من مائه ، لأنه رأى أن ذلك هو ما يفعله الهنود الحمر من ناحية ، ولأنه تذكر أن امه ستغضب لمرأى الوحل فى المطبخ . وأقبلت أمه وهو يحاول أن ينظف وجهه بمسحة البلاط . وأجابها حين استوضحته الأمر بأنه يمثل أحد الهنود الحمر ، وأنه كان يخشى أن تبتل ملابسه . وقالت له أمـه طيب معلهش دى الوقت ينشفوا كويس أنك عاوز ماتخشش بالوساخة زى بابا ما بيعمل بعد ما يخلص شغل فى الجنينة » ولما لم يبد الولد نشاطا إلى الطعام أمسكت أمه بذراعه تدفعه إلى صعود الدرج ولـكنه تخلص منها قائلا « أنا هندى أنا أقدر أطلع بنفسى » فأجابت الأم فى ابتهاج « طيب كويس ، أنا حروح بقى وأقعد آكل » وأخذت ترقب ولدها وقد ملأه شـــعور بالزهو والاستقلال وهو يصعد الدرج .

وبعد بضع دقائق صاح « صلاح » فى صخب فى حجرة الطعام قائلا « موش أنـا نضيف ياماما ؟ » وهو يبسط لها راحتى يديه الحمراوتين فى لهفة . وامتنعت أمه فى حكمة عن أن تبين له أن وجهه مازال متسخا وأن شـعره لم يصفف وأن ركبتيه لا يزال الطين عالقا بهما ، لأنه من الواضح انه يظن فى نفسه أنه أتى عملا مجيدا وهى لا تحب أن تطامن من هذا الاحساس فيه . وقالت « أيوه أنت طبعا دى الوقت انظف لـكن لسه برضه عامل زى الهندى » . وهش «صلاح» فى وجهها وهو يتسلق إلى كرسيه وقال « أنا هندى » ومضى يتناول طعامه . ولم يكد يلقى بالا إلى أن الطعام قدصار باردا .

ولا بدلنا من أن نؤكد مرة ثانية أنه ينبغي أن نحكم على سلوك الأطفال بحسب ما يكمن وراءها من دوافع ، وأن نتيح لهم الفرصة ليشرحوا لنا وجهة نظرهم قبل أن نصدر الحكم عليها . أننا معشر الكبار يسرنا أن نستمع لوجهة نظر الطرف الآخر ونعد ذلك من مقتضيات العدالة ، وإنه لمن الأهمية بمكان أن نتوخى تلك العدالة مع الطفل ، لا لينشأ وقد استشعر الثقة بالكبار فحسب ، بل ولينشأ وتنمو فيه الحساسية بالعدالة سليمة كذلك .

هناك آراء كثيرة في موضوع تعويد الاطفال ضبط عمليتي التبول والتبرز ولكننا لم نصل بعد الى نتائج نهائية ، وعلى كل حال فان النقط التالية جديرة بأن نذكرها :

١ ـ اكساب الطفل عادة ما ليس مسألة جسمية بسيطة ، ولكنها مرتبطة بحياة الطفل الانفعالية ارتباطا شديد التعقيد . وينبغي للكبار أن ينشدوا تعاون الطفل معهم في هذه العملية كغيرها من العمليات الاخرى .

٢ ـ ينبغي ان نقدم للطفل المساعدة والارشاد وأن تتاح له الفرصة ليستخدم « القصرية » حين يحس الحاجة اليها ، وينبغي أن ينصرف الكبار عن الاهتمام بهذا الموضوع ان بدا على الطفل أنه يرغب في أن يقوم بذلك بنفسه وانه على ذلك القدير .

٣ ـ ينبغي ألا يكون النجاح والاخفاق في هذه المسألة سببا في سورات انفعالية من الكبار ، والا تكون سببا في اثابة الاطفال أو عقابهم عليها . ومع هذا فان الاعتدال في اظهار الرضا من ناحية ، والرثاء للطفل والرحمة به من ناحية أخرى ، كل ذلك يساعد الطفل على أن يشعر بالامن ، وبأن الكبار قد أصبحوا يفهمونه .

٤ ـ لايستطيع الاطفال أن يجلسوا على « القصرية » دون معونة الا حين يبلغون سنا تتراوح بين تسعة شهور أو اثنى

عشر شهرا وحتى ذلك الحين ينبغي الا نطمع فى أكثر من أن نعود الطفل أن يقبل الجلوس على « القصرية » فلا نطمع فى ان يحافظ على نظافة ملبسه ٠وكثيرا مايحدث ان تجلس الامطفلها الذى لايزيد عمره عن ستة شهور على القصرية ساعة كاملة على أمل أن يستجيب ، ويظلان كذلك حتى ينال منهمـــا التعب والضيق ٠ واننا لانعـــدو الحقيقة ان قلنـــا ان الطفل اذا لم يستجب بعد انقضاء ربع ساعة لم يكن لجلوسه على القصرية بعد ذلك أى جدوى ٠ ومن الخير عندئذ للطفل ألا يحرم النــوم أكثر من ذلك ، وللام ألا تضيع من وقتها أكثر مما ضاع فان هذه الجلسات الطويلة ينفذ لها صبر الام ويستبد بها الضيق الذى يسرى الى الطفل ويخيب رجاء الام ٠

٥ ــ من الخير أن نجعل الطفـــل يعتاد على الجلوس عــلى القصرية فى أوقات منتظمـــة وليكن ذلك مثلا قبل تنـــاول الوجبات ، وبعد تناولها ، وقبل الخروج للنزهة ، وبعده، لأن ذلك لايخلو من بعض الفائدة والراحة ولكن علينـــا الا ننسى أبدا أن هذه الاوقات هى من ترتيب الكبار أنفسهم ، ولســـنا كذلك بحاجة الى أن نكرر ماسبق أن قلناه من ان مســتويات الكبار تشق فى كثير من الاحيان على الاطفال ، وانه لاينبغى أن نتوقع الكثير من الطفل فى بداية الامر ٠

٦ ــ ويستطيع الكبار أن يهدئوا من روعهم ان تذكروا أن الطفل لا يتأخر كثيرا فى تعلم الضبط الا أن كان به شـــذوذ جسمى أو عقلى ، وانه لمن غير المألوف أن نرى طفلا بلغ سن الالتحاق بالمدرسة وهو لايســتطيع بعـــدأن يدرك ضرورة النظافة ٠ وان مثل هـــذا الطفل لفى حاجـة الى مســـاعدة السيكولوجى ٠ ولو أن الكبار كانوا على شىء من بعد النظر ، وساءلوا أنفسهم هل يهم حقا أن يكون الطفل بحاجة الى بضعة شهور أكثر من غيره حتى يتعلم عملية الضبط لتلك العمليـة التى هى جزء عادى من عملية النمو لقدروا هذه المسألة حــق قدرها ٠ وعندئذ سيصبحون على وفاق وعــلاقات ودية بينهم وبين الاطفال طوال العملية بأكملها ٠ ولربما توصلوا الى الغاية المنشودة أسرع من هؤلاء الذين يعرضون أطفالهم الى التدريب الصارم العنيف ٠

الفصل الخامس

الخـــداع لا يفيد

من عادة الكبار أنهم يرتضون من بعضهم البعض مقداراً من الأمانة يعترف فيه بالفرق بين أنواع الكذب التي يهتم لها ، ويؤبه بها وبين تلك الأنواع من الكذب التي تعرف « بالأكاذيب الصغيرة البيضاء» والتي لايحفل بها . وهم يحكمون على أحدهم بأنه قد جافى الحقيقة أو التزمها بحسب الدوافع الكامنة وراء هذه المجافاة ، كما يسمون الشخص الذي يجافى الأمانة إلى درجة يمكن التسامح فيها بأنه يهزل أو يستغفل غيره أو يستخدم اللباقة أو يميل إلى الفكاهة والتندر فى الحديث . فليس من عادة الكبار إذن أن ينكروا على رفاقهم عدم التزام الأمانة إن كان ذلك إلى حد يتسامح فيه ، بل إنهم ليستمتعون بذلك ، وإن لهم لقدرة تامة على أن يدرأوا عن أنفسهم شر مثل هذا الكذب حين تدعو الحاجة إلى ذلك .

لكن الطفل الذي يبلغ الثانية من عمره يرى الأشياء من زاوية مختلفة أشد الاختلاف ، فهو — لذكائه البادىء فى النماء — لا ينظر إلى الأشياء إلا على أنها « حسنة أو رديئة » ، « كبيرة أو صغيرة » ، « صلبة » أو « طرية » ، « مظلمة » أو « مضيئة» وهو لا يستطيع إلا بعد أن ينمو ذكاؤه

أن يدرك مافى الحياة من تعقد وما بين الحسن والرداءة ، والكبر والصغر ، والصلابة والطراوة ، والظلمة والإضاءة من درجات تربك عقله الصغير .
ومن المفروض أن الطفل حين يبلغ الرابعة يستطيع أن يدرك أن الصدق عمل « حسن » وأن الكذب عمل « ردىء » ، ولكنه يجد فى ذلك صعوبة لأنه لايزال بحكم سنه متعلقا بالأوهام من ناحية ، ولأنه يجد بين الكبار الذين يعاشرهم مستويات مختلفة من الصدق . فكثير من الكبار يظنون وحسن النية متوفر لديهم أن الصدق قد يضر بالطفل ، وأنه لذلك ينبغى عليهم أن يقوه كل مكروه بشىء من « الأكاذيب البيضاء » . ومثل هؤلاء الكبار ينبغى لهم أن يهونوا على أنفسهم فان الطفل إذا ماوضع ثقته فى الكبار وتأكد فى نفسه أنهم يعاملونه معاملة قائمة على الأمانة كان على استعداد لأن يتعاون معهم حتى وإن جر ذلك التعاون عليه أن يعلم أو يفعل شيئا لايسره .

إن الطفل الصغير غر بفطرته حتى أنه ليظن أن الكبار مطالبون بأن يكاشفوه بالحقيقة ؛ فليس ينتقص من استمتاعه « بالكريسماس » أن يعلم كل شىء عن قصة سانتا كلوز القديمة . وأن يدرك أن أباه يلبس مسوح القديسين ليؤدى دور هذا الشيخ الرحيم . كذلك لن ينقص ولعه بأقاصيص الجن إن علم أنها مجرد أوهام ، فإن عالمه الذى يعيش فيه زاخر بالشخصيات الخيالية التى يصنعها هو بنفسه ، وأنه ليرحب بما يقدمه له الكبار من أقاصيص يسبح فيها الخيال دون أن يحس الحاجة إلى الاقتناع بأنها صحيحة .

وأننا لنأمل أن تصور القصص التالية مبلغ حاجة الطفل الماسة

إلى أن يستشعر الثقة فى عالم الكبار ، وكيف أنه يصدم حين تتداعى هذه الثقة .

الحقنة تؤلم فعلا (١) (أربع سنوات ونصف)

كان لا بد «لأحمد» من أن يتعاطى حقنة دواء . لذلك فقد أخذ يسأل أمه فى لهفة طوال الطريق إلى الطبيب عما سيفعل به ، وعما إذا كان ذلك يؤلم ؟ وأكدت له الأم أن المسألة لاتعدو أكثر من أن الطبيب «يريد أن يراه» ، ولكنه وجد صعوبة فى أن يصدقها فى هذه المرة بعد أن خدعته فى مناسبات سابقة ، ولهذا إعتزم أن يضع فى طريقهما إلى الطبيب من العراقيل كل ما يستطيع حتى يؤخر وصولها إلى عيادة الطبيب الأمر الذى أحنق أمه . فما أن وصلا إلى غرفة الفحص حتى كانا على أبواب معركة جعلت تشتد شيئاً فشيئاً ، واحتاجت الأم إلى أن تستجمع قواها لتحمله على السكينة والهدوء ، وواصلت تأكيدها له «دى حاجه مش حاتوجعك» كل هذا والطبيب يغرز إبرة الحقنة فى جسده المتفزز . ولم يشعر «أحمد» للإبرة بوخز يوازى ما شعر به من وخز حين تبين أن أمه قد غررت به ، وانقض على أمه — وقد أخرسه الغيظ — ولكمها فى بطنها بشدة « إنت قولتى لى دى مابتوجعش» وكانت هذه الجملة هى كل ما استطاع أن يتفوه به بين غيظه وبكائه ، وتنفس الطبيب الصعداء بعد أن أغلق الباب وراءهما . وأخذ يسائل نفسه لماذا يظن كثير من الأمهات أن من الأرحم بالأولاد أن يزعم أنه لا ألم هناك بدلا من أن يساعدن أطفالهن على مواجهة هذا الألم .

ما أكثر الاطباء الذين يستطيعون أن يرووا مثل هذه القصة . إننا لنشعر بأن هذه القصة تغمط الامهات قدرهن ، ولذلك فإننا سنردف هذه القصة السابقة بقصة هى على طرف النقيض منها وتتصل بالامهات اللائى لا يسوء سلوك أطفالهن فى عيادات الاطباء .

الحقنة تؤلم فعلا (٢) (أربع سنوات وتسعة أشهر)

كان لابد « لإبراهيم » من أن يتعاطى حقنة دواء وقد بذلت أمه قصارى جهدها فى أن تشرح له كل شىء عن ذلك حين قام من سريره فى الصباح . ولم يكن من السهل عليها أن تحدثه عن الجراثيم فانها لا ترى ومع هذا فقد بذلت كل ما فى وسعها . ولما كان « إبراهيم » يؤمن إيمانا قويا برجاحة عقل والدته فقد تقبل أكثر ماقالت بقبول حسن . أخبرته — بطريقة واقعية عملية — أن الطبيب سيضع بعض الجراثيم المفيدة فى ذراعه وأنها ستسرى فى كل جسده . وأن هذه الجراثيم يعتمد عليها فى الفتك بالجراثيم الضارة التى تسكون فى الهواء والتى تود دائما أن تقيم فى حلقة .

وبدت الفكرة خلابة فى نظر « إبراهيم » وسبح بخياله حتى وجد نفسه فى حالة يخلط فيها بين الجراثيم (والجرانيل) وأوضحت له أمه الأمر بأن أخبرته أنها آسفة حين تقول له أن الأمر يتطلب وخزة من ابرة حتى تنطلق الجراثيم فى ذراعه وأنها مع ذلك متأكدة من أن ولدها قد بلغ من الحكمة والتعقل ما يجعله يفضل وخزة طفيفة على أن يشق بالتهاب فى زوره عدة أيام . ولم يفتها أن تذكر له أن أباه كثيرا

ما تعاطى حتمنا فى ذراعه عندما التحق بالجيش ، وكذلك فعل كل الجنود . فكان لذلك أثره البالغ فى نفس « إبراهيم » .

وأحس « ابراهيم » . وهو فى طريقه إلى عيادة الطبيب أنه يتحول إلى جندى رويدا رويدا ، وصمم فى نفسه ألا يصرخ . ودخلا غرفة الفحص وكادت شجاعته تخونه وتراجع إلى الوراء . ولكن أمه أحكمت القبض على يده لتشجعه ، وتحامل على نفسه حين وخزته الابرة ، ولما انقضى الأمر واجه صاحبنا الطبيب وفى عينيه إشراقه الجرأة والتحدى . وكان آخرى ما قال : « مش أنا ولد شجاع صحيح ! » ثم أخفى وجهه المحمر من شدة الالم فى صدر أمه .

الأم التى اختفت (أربع سنوات)

« ماما حترجع امتى ؟ » كانت هذه هى المرة السادسة التى يوجه فيها « صبرى » هذا السؤال إلى جدته . وأجابت الجدة — وهى تمسح دمعة تحدرت على خدها بظهر يدها — « هى حترجع حالا يا حبيبى » ونظر اليها « صبرى » فى ارتياب وجعل يسألها مضيقا عليها الخناق : حالا يعنى أيه ؟ ، يعنى بعد دقيقة ، ولا بكرة ، ولا الجمعة الجاية ، ولكنه — مع ذلك — لم يتلق جوابا شافيا .

وبدأ « صبرى » يضيق ذرعا بكلمة « حالا » وأخذ الشك يتزايد فى رأسه من أنه سيقدر له أن يرى أمه ثانية ، وكان تصرف الكبار من الغرابة بحيث جعله يستشعر أن مكروها قد وقع وأن كان لا يستطيع أن يتبينه

كان يعلم أن أمه ظلت تعانى مرضا ألزمها الفراش ، وأن الألم المبرح كان يمنعها من أن تتحدث اليه ، الامر الذى أدخل الفزع إلى قلبه كذلك كان يعلم أنها حملت إلى المستشفى « علشان يطيبوها تانى » كما كانوا قد أخبروه أنه سيزورها كثيرا مع جدته وخالته ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وجعل « صبرى » — وكان على شيء من الخيال الخصب — ينسج قصة عن منافس له ، فأكثر من التفكير فيها حتى أيقن رويدا رويدا أن أمه قد وجدت طفلا آخر أحسن سلوكا ، وأنها مضت لتعيش معه . وبث يوما مخاوفه هذه إلى جدته ، ولكنها لم تزد على أن طلبت إليه أن يقلع عن هذه الحماقات . ولهذا فقد إعتزم أن يحتفظ بأفكاره لنفسه ، يجترها وحده من دون الناس .

وغدا « صبرى » شاحب الوجه غير مكترث بشيء ، يعاف الطعام ويثور كلما قطع عليه الكبار ما إنهمك فيه من أحلام اليقظة ليسألوه أن يقضى حاجة أو يؤدى عملا ، وداوم السؤال عن أمه ، لكن الإجابات التى كان يتلقاها كانت تختلف باختلاف من يسألهم من الكبار ، بل أنها كانت تتناقض فى بعض الاحيان .

ومرت الايام وصبرى يزداد حيرة وشعورا بفقد أمه على الرغم من أن الكبار حاولوا أن يغمروه بفيض من الحب ، وكان هذا سببا فى أن استشعر العداء وأخذ يضرب ويرفس أقاربه ممن لا جريرة لهم وممن كانوا على يقين من أنه لم يبلغ بعد السن التى تؤهله لأن يعلم حقيقة ما حدث لأمه وأصروا على أن يخدعوا الطفل دون أن يتدبروا ما قد يجره ذلك على الطفل .

وفى نهاية أشهر ثلاثة استحال ذلك الطفل السعيد حسن السلوك إلى طفل عصى المزاج عصى القياد حاد الطبع ، ونظر إليه الكبار وهزوا رؤوسهم آسفين . وساءل بعضهم بعضاً عن مدى ماسيصيبه من ضرر إن علم أن أمه قد ماتت ، وبينما كانوا لايزالون يفكرون فى طرق « وقاية » . الطفل من معرفة الحقيقة إذ أتاهم خطاب من والد الطفل وكان يعمل فى الهند ينبئهم بقرب مجيئه ، كما أعلن عن ارتياحه لأن « صبرى » سيكون لديه الوقت الكافى قبل مجىء والده لأن يكيف نفسه مع حادث وفاة امه . قبل أن يواجه مشكلة جديدة هى لقاء رجل غريب يريد أن يشاركه حياته .

وكان ما جاء بالخطاب سبباً فى توريط جدة الطفل وخالته ، واعتزما أن يجازفا بإخباره بالحقيقة « وليمت بعد ذلك من الصدمة » أو « فليجن جنونه » فإن ذلك أفضل من أن يستهدفا للوم والده . والتمست الخالة النصح لدى صديقة لها عن خير وسيلة لانهاء الخبر إلى الطفل ، وتخيرت ساعة كان « صبرى » فيها هادىء الطبع وذكرت له أن الألم قد استبد بأمه حتى لم تعد تطيقه على الرغم من كل الجهود المضنية التى بذلها الاطباء فى جلب الشفاء إليها ، ولذلك فقد ماتت ، ولكن أباه فى طريقه إلى البيت لينوب عن أمه فى رعايته ، وأوضحت له كذلك أنهما لم يحدثاه بشىء من ذلك من قبل لانهما اعتقدا أنه قد بلغ من الكبر مايسمح له بمعرفة ذلك ، ولكنهما الآن على يقين من أنه قد أصبح أهلا لأن يعلم الحقيقه وكذلك يعتقد أبوه .

وألقى « صبرى » إليها السمع دون أن ينبس بكلمة واستطاعت

خالته أن تقرأ فى وجهه أنه قد استوعب كل ما قالت. وأمسكت أنفاسها وهى تقدر أن أقل ما سيفعل أن ينفجر بالبكاء . وأطل « صبرى » من النافذة لحظة ، وسألها — على غير ما كان منتظراً — « هى الباخرة اللى بابا حايبجى فيها المداخن بتاعتها حمرة ، والا حاييجى فى باخرة حربية » وانساق هو وخالته فى حديث عن البواخر عامة » وهكذا اجتازا الأزمه فى سلام . ولم يعد للكبار مايخفونه عن الطفل ، وتمكنا ثانية من أن يعاملا الطفل معاملة طبيعية ، وحمل بنفسى رويداً رويداً كل شىء عن أمسه ، بعد أن علم أن أخوف ما كان يخاف لم يكن له نصيب من الصحة ، فأمه لم تهجره لتعيش مع طفل آخر أفضل منه ، وكل ما هناك أنها قد ماتت . وبدا هذا بالتأكيد أهون الشرين على نفس طفل لايزال يدرج فى الرابعة من عمره .

هل نمتنع عن الكلام فى المسائل الجنسية ؟ (أربع سنوات وأربع سنوات ونصف)

من طبيعة الانسان أن يهتم بالمسائل الجنسية فى كل مرحلة من مراحل العمر . لكن الكبار ، على الرغم من كثرة الكتب الممتازة الواضحة التى تبين خير الوسائل للاجابة على استفسارات الأطفال حول هذه المسائل — يشعرون بالحرج حين يسألهم الصغار عنها وتبين القصة التالية كيف ينزلق الكبار بسهولة فى الأخطاء وحسن النية متوفر لديهم .

كانت « صفية » وابنة خالتها « كريمان » تقضيان يومهما عند جدتهما ، وكانت الجدة قد ذهبت بهما فى زيارة لإحدى الجارات التى

كانت فى دور النقاهة بعد أن أنجبت طفلها الأول . وسرت الطفلتان لمرأى هذا الوليد الصغير ، وطفقتا تتحدثان عنه فى طريق عودتهما لتناول الشاى ، وسألت « كريمان » جدتها « منين جابت الست مديحة الولد ده ؟ » وبدا الاضطراب على وجه الجدة ، وأشارت عليها أن توجه إلى أمها هـذا السؤال ، وغيرت موضوع الحديث بأسرع ما استطاعت .

وبعد أن فرغ الجميع من تناول الشاى قدمت أم « كريمان » لتأخذ الطفلتين ، ومضى الجميع إلى محط (الأوتوبيس) حيث كانت والدة «صفية» وطفقن يتحدثن عما وقع لهن فى ذلك اليوم ، وعن زيارتهن للسيدة «مديحة» وتذكرت «كاريمان» ذلك السؤال الذى لم تتلق عنه أجابة ، ووجهته إلى أمها ثانية ، فترددت الأم . كانت قد اعتزمت فعلا أن تحدث «كريمان» فى صراحة ، إن هى سألتها هذا السؤال الذى لامفر منه ، ولكنها قدرت فى نفسها أن أختها قد لا تقرها على ذلك ، وربما ساءها أن تجد طفلتها « صفية » وقد وعت كل ما قالته خالتها بعد عودتها إلى البيت . أجابت والدة « كريمان » وهى تضحك فى ارتباك — دون أن تفكر فيما قد يترتب على ذلك من نتائج « أبوه الدكتور بيجيبهم زى ما أنت عارفه فى شنطته السوده الصغيرة» وطلبت الطفلتان فى الحال مزيدا من التفاصيل . ووجدت الأم نفسها على الرغم منها تنسج قصة حول هـذا الموضوع . ومع ذلك فقد تقبلت الطفلتان القصة ، وانتهى الحديث فى الموضوع .

ولم تستشعر أم « كريمان » الرضـا على الإطلاق عن الكذبة التى

روتها لطفلتها ، وعقدت العزم على أن تشرح لإبنتها حقيقة الأمر إن هى عادت للسؤال عن هذا الموضوع . ولكن « كريمان » — وقد تلقت على سؤالها اجابة تشبع حاجتها الراهنة — لم تجد ما يدعوها إلى أن تواصل الحديث فى هذا الموضوع . ولذلك لم تسنح الفرصة لأمها لكى توضح لها حقيقة الأمر . ومضت الشهور تلو الشهور ولم تأسف أم « كريمان » إذ لم تجد نفسها مضطرة إلى أن تصبر طويلا حتى تفسر لابنتها حقيقة الموضوع ، فما زال أمامها متسع من الوقت لتعيد الأمور إلى نصابها حين تسلخ من عمرها عاما آخر أو عامين .

وسيجد القارىء خاتمة القصة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

مزاح الأب (عمره أربع سنوات)

يتضارب كثير من الآراء حول اسطورة « بابا نويل » . ولايزال كثير من الآباء يعتقدون أن أبناءهم لايستطيعون أن يستمتعوا استمتاعا كاملا بـ « الكريسماس » إلا إن كانوا يعتقدون أنه رجل حقيقى . وهم ينساقون إلى سلسلة من الأكاذيب التى تبدأ أكاذيب صغيرة بيضاء ثم تستحيل إلى أكاذيب كبيرة سوداء كلما اقترب « الكريسماس » وأن أخوف مايخافون أن يقوم شخص من خارج الأسرة بأخبارهم بالحقيقة فلا تنطلى حيلتهم على الأولاد . إذا حدث مثل هذا فسيجدون أنفسهم مضطرين إلى أن يقسموا بأغلظ الإيمان حتى تبقى لهم مكانتهم ومهابتهم فى الأسرة . وهم لا يكادون يدركون أن الكذب على الطفل الصغير فى هذه المسألة ليس أهون عليه من الكذب عليه فى المسائل الأخرى .

وقد حدثنا كثير من الكبار عما شعروا به حين كانوا صغاراً عندما ظهرت لهم حقيقة « بابانويل » . ولم يكن ماساءهم أنه ليس هناك شخص حقيقى يسمى « بابا نويل » — فإن فى ميسورهم أن يستمتعوا باللعب الإيهامى فى كل فرصة من الفرص — ولكن الذى ساءهم أن يغرر بهم ويتغفلهم من وثقوا بهم واعتمدوا عليهم فى قول الصدق .

ونحن نرى أنه من الخطأ أن تنمى فى نفوس الأطفال معتقدات باطلة عن وجود « بابا نويل » كما أننا نؤمن أن الآباء الذين يفعلون ذلك قد يستهدفون لضياع ثقة أبنائهم بهم .

سأل الولد الصغير أباه فى قلق « هو بابا نويل موجود صحيح ؟ » وأجاب الأب على الفور «أيوه طبعاً هو موجود ، أناشفته بنفسى كثير» وقد وجد الأب من المؤلم أن يزلزل معتقدات طفله فى « بابا نويل » هذا العام ، لأنه كان قد استعار ملابس تنكرية محكمة التصوير ليمثل فيها دور « بابا نويل » فى الحفلة التى سيقيمها لولده . ومضى « موريس » يسأل — وقد استبدت به الحيرة — « هو أد إيه ؟ » فأجاب الأب « كبير أدى » وقد قدر فى نفسه أنه يستطيع ألا يبعد كثيراً عن الحقيقة دون أن تنكشف الحيلة . ومضى الابن يتساءل « هو صحيح بينزل من قلب المدخنة يا بابا ؟ » « أيوه امال ؟ أنا شفته بنفسى مرة لما كنت صغير قدك » وأراد الأب أن يزيد من شغف ابنه بالموضوع ، فمضى يقص عليه كيف أنه هو وأخوه الصغير قد سهرا ليلة من ليالى

العيد حتى شهدا شخصاً ذا لحية بيضاء ينزل على المدخنة وعلى ظهره غرارة قد ملأها باللعب . وبدا ذلك مقنعاً إلى حد كبير فى نظر «موريس» ولكن كيف يصنع بعقله المنطق وبرفاقه الذين أخبروه أن المسألة لا تعدو أن تكون خيالا . وصمم على أن يصل إلى حقيقة الأمر ، فسأل أباه «لكن ازاى يقدر ينزل على المدخنة إذا كان كبير أدك يا بابا؟» فأجاب الأب «ما هى كانت مدخنة كبيرة خالص» وهو يعلم أن ابنه لا يستطيع أن يتبين زيف هذه الإجابة . وعلق «موريس» بقوله «لكن مدخنتنا ما هيش كده يا بابا؟» فأجاب الأب «لأ ما هى رايحه تكبر قوى فى ليلة العيد وبكره تشوف» .

وبدأ الأب يسبح بخياله مع ابنه ، ولكن كان من حسن حظه أن حدث فى هذه اللحظة ما قطع الحديث بينهما إلى حين .

وعاود «موريس» السؤال فى هذا الموضوع عدة مرات قبل أن يحل المساء فيعلق جوربه ليستوثق من الأمر بنفسه . وكان طبيعيا أن يستيقظ فى صبيحة «الكريسماس» ليجد جوربه وقد امتلأ باللعب والهدايا كما امتلأت جوارب سائر الأطفال . وقد بلغ من سروره بها أنه لم يعد يحفل بالطريقة التى هبط بها «بابا نويل» بالمدخنة . ومهما يكن من شىء فقد اعتزم أن يسأل «بابا نويل» بنفسه ، إذ أن والده كان قد أخبره أن «بابا نويل» سيحضر إلى حفلته ، وأنه يستطيع أن يعينه فى قطف اللعب من شجرة عيد الميلاد .

* * *

وبعد أيام كان نيف وعشرون طفلا جلوساً على الارض وقد التفوا حول شجرة كبيرة من أشجار عيد الميلاد . وأشرقت عينا «موريس» ببريق الامل ، وقد انعكست عليهما أضواء الشموع . وأخبرته طفلة كانت تجلس إلى جواره أن الأمر لا يعدو أن رجلا سيرتدى لباس «بابا نويل» ويمثل شخصيته . قالت له هذا ليقتنع نفسها أكثر مما تقنعه هو ، فقد كان يداخلها شيء من الخوف واستدار اليها «موريس» فى عنف وغضب وخالفها مخالفة صريحة قائلا «بابا بيقول أنه هو راجل بصحيح ، علشان هو شافه وفكر «موريس» أن البنات الصغار لا يعلمن شيئاً ، ولهذا فقد صاح فى عنف «بابا بيعرف كل حاجة» .

ولم تشأ الطفلة أن تسترسل فى الحديث أكثر من ذلك ولكن كلماتها كانت قد بذرت بذور الشك فى رأس «موريس» وأخذت هذه البذور تنمو هو جالس فى الإنتظار ولم تكن هناك فرصة ليسأل «موريس» أشخاصاً آخرين رأيهم فى هذا الموضوع ، فقد انفتح الباب ودخل «بابا نويل» .

وتلفت «موريس» حوله يتفقد أباه ، ولينظر أيقوم أبوه بتحية «بابا نويل» صديقه القديم ، ولكن أباه كان متغيباً فى اللحظة الحاسمة ولما خفتت صيحات الترحيب التى اطلقها الاطفال ، إقترب «بابا نويل» من «موريس» وطلب اليه فى صوت سماوى مستعار أن يرافقه ويساعده . وأمسك «بابا نويل» بذراعه يدعوه إلى النهوض . وكاد الطفل أن يستوى قائما لولا أن وقعت عينه على خاتم مألوف لديه فى أصبع «بابا نويل» ولم يعد يساور «موريس» أدنى شك . إذن فقد مثل دور الأحمق .

وانتفض أبوه من قدره ، وانتفخت أوداجه من الغضب ، وامتلأت عيناه بالدموع ، وأخذت شفتاه ترتجفان . وأخذ هو وبابا نويل ينظر كل منهما إلى الآخر وقد فغر كل فاه ، وانفجر « موريس » فى البكاء . وظن الجميع أن موريس قد ركبه الخجل أو الفزع فأخذوا يهدئون من روعه . وتقدم طفل آخر أكثر شجاعة ليحل محله ، واستمرت الحفلة واستمتع الجميع بها ما عدا « موريس » فقد اعتزلها ، وانزوى خلف الستائر الضافية . ولم يسمح لأمه أن تترضاه إلا بعد أن تأكد أن « بابا نويل » قد انصرف لشأنه . وكان لا يزال ممسكا بيدها فى شدة وقد بدأ يزول عنه همه حين رأى أباه يدخل الحجرة فأقبل الأب إليه وفكر أنه لا بد وأن يمضى فى هذه اللعبة حتى النهاية فقال « هيه كويس » ، وصوته ينم عن فرط السرور !! إنبسطت لما ساعدت « بابا نويل » ؟ .

وبدا الاضطراب على « موريس » على حين أخذ سائر الأطفال يحدثون أباه فى صوت واحد بأن « موريس » قد سلك سلوك الأطفال الصغار وكيف أنه لم يساعد « بابا نويل » إطلاقا . وبدأ الأب عندئذ يشعر بالضيق وبأن الأمر فوق ما يحتمل ، فجعل يضحك ويخفى شعوره بالضيق ثم ارتكب آخر الحماقات . استدار إلى ولده الذى شعر بأنه قد أهين وحاول أن يكايده . ونفد صبر « موريس » وانقض على والده وغرز أسنانه الصغيرة الحادة فى اليد التى كانت تحمل هذا الخاتم اللعين ، واندفعت يد الأب الأخرى بطريقة آلية فى الدفاع عن نفسه وانهالت فى حدة على وجه « موريس » وعقدت الدهشة لسانه فلم يستطع البكاء . ووجد الجميع يتجاهلونه ليلتفوا حول والده ينظرون أثر العضة فى يده فخرج

الطفل من الحجرة مندفعاً وألقى بنفسه على أرض الصالة فى طريق الجميع ، ورفع عقيرته بالبكاء ، حتى قدمت إليه أمه وحملته بين ذراعيها وقصدت به إلى سريره وقد وقد استشعرت الخزى والخجل .

ولشد ما كانت رغبتنا فى أن يتبع الوالد ابنه إلى حجرته وقد أدرك أنه قد جرح شعوره فيسأله العفو والمغفرة كما يفعل الكبار بعضهم إلى بعض . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . وخيل للوالد أنه يقوم بالواجب الذى تفرضه عليه أبوته فقضى ما لا يقل عن خمس دقائق يحدث « موريس » بأنه قد كان « شقيا » وأن أحدا لن يحبه إذا ظل يسلك هذا المسلك ، وأنه هو وأمه استشعرا الاستياء والخزى ولا ينتويان أن يقبلاه قبلة المساء . وخرج من الغرفة وكان آخر ما قاله أنه لن يستطيع أن يفهم طوال حياته السبب الذى كدر « موريس » فكان بهذا أحد الكبار الذين يفوتهم أن يبحثوا عن سبب الجريمة قبل أن يحاكموا المجرم .

* * *

ربما كان فى هذه القصة ما يدهش له الكبار الذين لم يفكروا يوما فى مسلكهم نحو الأطفال على أنه مسلك « لا أمانة فيه » أو « مسلك خداع » وهؤلاء هم الذين كتبنا من أجلهم هذا الكتاب . وأما الأقلية الضئيلة من الآباء الذين يخدعون أبناءهم عن قصد وخبث فعليهم ألا يشقوا على أنفسهم بقراءته أبدا . فلسنا نقصد من وراء هذا الكتاب إلا أن نبين — لهؤلاء الرحماء من الآباء الذين يرغبون فى أن يبذلوا قصارى جهدهم من أجل أولادهم — أنه من الضرورى لهم أن يقفوا على رأى الطفل فى خداعهم له حتى يتبينوا العاقبة الوخيمة التى قد يجرها مسلكهم على الطفل :

الفصل السادس

يستطيع الآباء أن يكونوا على حق

يشعر الذين أتيحت لهم منا فرصة التعمق فى دراسة السلوك الظاهرى للطفل بكثير من الأسف حين يجدون أن أكثر الناس حبا للأطفال — أى الآباء — هم أقل الناس فهماً لتصرفاتهم . وكثيراً ما يبدو أن رغبة الآباء الشديدة فى أن يبذلوا قصارى جهدهم فى سبيل أطفالهم هى التى تحول بينهم وبين أن يفهموا مايدور بخلد أطفالهم ، ولعل معظم هذا الكتاب قد قصد به إلى معونة مثل هؤلاء الآباء .

لكن هناك — لحسن الحظ — عدداً لا بأس به من الآباء الذين يسلكون إزاء كل موقف بحكمة بالغة ، اكتسبوها من بصيرة مستنيرة من جهة ، ومما تعلموه من دراستهم للحقائق المقررة عن سلوك الأطفال من جهة أخرى . وتوضح الفصص التالية — التى لا تقتصر على فترة معينة من العمر بالضبط — ما نقصده بقولنا « يستطيع الآباء أن يكونوا على حق » .

هلا قابلت « منيرة »

تبلغ « منيرة » الثامنة من عمرها ، وهى صغرى ثلاثة أولاد سليمة البدن ، جذابة ، ، ذات وجه متورد الوجنات ، لها جديلتان قصيرتان

تفخر بهما ، أطلقتهما تنموان وهى تصر على ذلك على الرغم من كثرة ما أظهره لها الكبار من استهجان . وكانت عيناها صافيتين ، يشع منهما المرح ويبدو فيهما بريق التساؤل . وقد حدث لها فى مطلع حياتها أن زاد اهتمام الأسرة بها ، لأنها كانت على وشك أن تصاب بالربو ، ولكنها الآن تتمتع بصحة جيدة ، مما حرمها متعة هذا الاهتمام بها .

وأنت لا تكاد تتعرف إليها حتى يروعك منها ما تتصف به من اتزان ونزعة إلى الاستقلال . وهى تسعى إلى أن يكون لها مركز القيادة دون أن تجنح إلى الاستبداد والتعسف ، تتقبل المدح دون أن يداخلها الزهو ، تتحدث إلى الغرباء عنها دون أن تستشعر الخجل ، أو يبدو منها ما ينم عن الوقاحة والجرأة . وهى إن غنت فى جمع لا تشعر بالخجل وتتوقع حين تفرغ من ذلك أن يمتدح المادحون غناءها لا أن يمتدحوا شخصها ، ويطيب لها كذلك أن تكلف القيام ببعض المهام التى تحب أن تنهض بها منفردة . وهى وإن كانت تميل إلى المخاطرة فانها تستطيع أن تسكب بعض قطرات من الدموع إذا سقط من يدها فى البالوعة نصف ريال كانت قد كلفت أن تبتاع به شيئا .

وهى تستمع إلى توجيهات الكبار فتقبلها أو ترفضها على حسب حكمها عليها — وإن لها لقدرة على أن تحسن الحكم على الأشياء — ولكنها تميل إلى أن تثور إذا هى استشعرت فى الأمر الموجه إليها شيئاً من التجبر والإلزام ، حتى وإن كان صادراً إليها ممن تحبهم وتحترمهم وهى — مع ذلك — لا تتوانى عن أن تتعاون مع غيرها إن تبين لها أن الموقف يتطلب تضافر الجهود . وهى ترتدى ملابسها فى عناية ،

ولكنها تخلف وراءها ما خلعته من ملابس ملق فى غير ترتيب . وهى تدرك أنها على شىء من الفوضى ولكنها تظهر العجز عن التغلب على ذلك من غير معونة صادقة وتشجيع أكيد من الكبار .

وهى تتصف بالأمانة والهدوء وترغب أن يكون الكبار معها كذلك . وتستطيع أن تكيف نفسها مع الغرباء من الناس ومع المواقف التى تستجد عليها دون خشية لا مبرر لها . وهى تطرب للنكتة حتى ولو كانت هى المقصودة بها ، على شرط ألا تشعر بأن صاحب النكتة يريد أن يحقرها ، وهى تستطيع أن تمرح وتلعب ، حتى إذا أحست بما يثبط عزيمتها صارت على درجة كبيرة من الحنق . ولكنها تستطيع أن تغادر مكان اللعب قبل أن ينال منها الضيق أو تنخرط فى البكاء . وهى تستمتع بالألعاب التى تقوم على المنافسة ، ولكنها لا تحفل بالفوز أو الهزيمة قدر ما تحفل بما تصيبه فى اللعب من متعة ومرح . وهى قلما تشعر بالسآمة ، فإن لديها دائماً من الأعمال أكثر مما لديها من وقت . وهى تميل كذلك إلى أن تحرز البطولة فى المدرسة ، لأنها دون شك ستشعر بالاطمئنان ولأنها تستطيع أن تكون كريمة ، وهى مولعة بأبيها ، ولكنها تحس أن أمها أقرب منه ، وهى تحبها إلى درجة التقديس وإن كانت لا تعتمد عليها كل الاعتماد ، وهى إن سئلت عن سبب ولعها بأمها أجابت « إنها جد منصفة — تفهم الأشياء — لها وجه سمح — تعبس حين يستدعى الأمر ذلك — وتحدثنى عن الأشياء » .

نستطيع أن نقول إذن أن « منيرة » البالغـــة ثمانى سنوات

تحس الرضا بالحيـاة . ومن الواضح الجلى أنهـا إن بقيت على حالها تستقبل الحيـاة بحماس واستمتاع ، فانهـا ستصبح بعد أن تكبر امرأة تسعد بالحياة .

وقد يجد بعض القارئين من العسير عليه أن يصدق أن هناك فعلا طفلة مثل « منيرة » . أما « منيرة » نفسها فانها لا تكاد تشعر أنها قد بلغت من الاتزان حـــداً غير مألوف يدعونا إلى أن نذكرها فى هذا الكتاب . والحق أنها ليست سوى « طفلة عادية » جداً ولعل هذه الصفة هى أكبر ما يمكن أن يوجه إليها من مديح فى أيامنا هذه التى تفشت فيها العقد والاضطرابات النفسية . فقد انتزعت الحرب أباها من محيط الأسرة عدة سنوات ، ولهذا فإن أكبر الفضل فى تربيتها ينبغى أن يرجع إلى أمها التى لا تتميز بشىء غير عادى اللهم إلا أن أطفالها الثلاثة ــ الذين يتميزون بالفتنة والجاذبية ، والميل إلى التعاون والطواعية ــ يعتقدون أنها أوفر الأمهات حظا من الكمال .

إن هـذه الأم تسوس أولادها على الحب ، وبالحب المتزايد ، وقد كانت نتيجة ذلك أن عمدوا إلى ارضائها ، فهى لا تسوسهم بعصا سحرية ، وكل ما هنالك أنها تصطنع الحكمة والأمانة ، وتعتقد أن أطفالها لهم شخصياتهم المستقلة وليسوا مجرد متاع تملكه . وأنها لتسير فى حياتهـا على هدى معايير اقامتهـا على تعاليم الدين بأوسـع معنى لهذه التعاليم .

الرجل الغريب :

لم يكد يبدأ « طارق » — وعمره ستة شهور — يعتاد صوت والده الأجش وملمس وجهه الشائك حين يقبله حتى اختفى ذلك كله عن محيط حياته وسرعان ما أخذ ينسى كل شيء عن ذلك . فقد سافر أبوه عبر البحار مخلفا وراءه « طارق » وأمه ليجد كل منهما فى الآخر عزاء وسلوى . والحق لقد وجد كل فى صاحبه كل العزاء . أما الأم فقد كانت متزنة عرفت كيف تسيطر على عواطفها — فى معاملتها مع طارق على الأقل — عرفت أن له حقا بوصفه فرداً له شخصيته المستقله ، ولم تجد مبررا من فقدها لحب زوجها لأن تغمر طفلها الصغير بمظاهر الحب أكثر مما يحتاج الطفل الناشىء الذى لم ينضج بعد . ولكنها استعاضت عن وحدتها بأن اتخذت من ولدها رفيقا لها ، ووجد الإبن فيها — بدوره — خير صديق ، واعتاد أن يتبعها فى غـــدوها ورواحها فى المسكن ، على قدر ما مكنه من ذلك حبوه .

وكان أكثر من يزور الطفل وأمه من النساء والأطفال ولهذا لم يكن « طارق » قد اعتاد رؤية الرجال ، حين عاد أبوه بعد أن بلغ ابنه الثانية بقليل . وكان من عادة « طارق » أن ينام فى غرفته وحيدا ولكنه كان يقضى فى سرير أمه الكبير نصف ساعة ممتعة فى كل يوم قبل أن يبرحا السرير . وذات صباح سعت إليه كعادتها وأخذته إلى حجرتها وجعلت تداعبه مداعبة كانت تبعث السرور إلى قلبه وتجعله يطلب المزيد ولكن كل شيء كان قد تغير فى هذا الصباح ، فقد كان هناك رجل « غريب » فى سرير الأم فى مكانه الحبيب . ونظر « طارق »

إلى أبيه وراح يرتمى فى أحضان أمه وانفجر فى بكاء صاخب وقـــد تملكه الفزع وعبثا حاولا تهدئته .

وكانت أمه قد أخذت على عاتقها أن تطلعه على صورة أبيه كل ليلة وهى تضمه وتطلب إليه أن يقبل الصورة قبلة المساء ولكن جاءت نتيجة كل ذلك مخيبة للآمال ، فقد بدا واضحا أن الوليد لم يكن يدرك أن هذا الجندى الذى تمثله الصورة يمت إليه بأدنى صلة .

وظل الوالد يحس يوما أو يومين شيئا من الألم لذلك ، ولو أنه حاول ألا يجعل من ذلك أمرا يعكر صفو عودته إلى بيته ، أما الأم فقد أحست الضيق بعد أن أخذ « طارق » يتعلق بها أكثر الوقت . ثم اصطنع الوالدان الحكمة فى ذلك فجلسا بعد أن نام « طارق » ليتدبرا الأمر ووضعا نفسهما موضع الولد الصغير ، وعلى حين فجأة أدركا أنه كان فى الحقيقة يرى أباه للمرة الأولى فى حياته فانه من العسير على طفل فى الشهر السادس من عمره أن يعرف شخصية أبيه . ووجد الأب فى ذلك شيئا من العزاء . وأخذ هو وزوجته يسلكان نحو طفلهما المسلك الصحيح وأدركا أنهما قد تسببا لـ « طارق » فى صدمة فى أول صباح لقى فيه أباه ، وأنه لا بد من مرور وقت كاف حتى يزول أثر هذه الصدمة ولهذا اعتزما أن يتذرعا بالصبر على مايشعر به الطفل من عداوة نحو أبيه . ولم يكن من طبيعة « طارق » أن يتعلق بأمه هذا التعلق الشديد ، فاعتزما أن يعدا ذلك أثرا من آثار الصدمة ، وأن يدعاه على هذا التعلق حتى تنشأ بينه وبين أبيه العلاقات الطيبة فلا يعود الطفل فى حاجة إلى حماية أمه . ولم يكن فى طوق البشر ألا يتبادل الزوج وزوجته مظاهر

الحب — بعد أن افترق أحدهما عن الآخر أمدا طويلا . لكنهما اتفقا على أن ينال ابنهما من ذلك حظه حتى لا يتسببا فى أن يشعر بالغيرة. واعتزم الأب أن يقف موقف الانتظار ولم يحاول الاقتراب من ولده على ما فى ذلك من مرارة . وكثيرا ما استبدت به الرغبة فى أن يحمل الولد ويحتضنه . ولكنه استدل مما كان وجوده لايزال يحدثه من ضيق فى نفس الطفل على أنه إن فعل ذلك فقد زاد الطين بله . وهكذا التزم الوالدان ما اتفقا عليه نحو ابنهما أسبوعا بعد أسبوع ، حتى أخذت الحواجز المضروبة بينهما تتداعى فى بطء شديد . وانقضى مايقرب من ستةشهور قبل أن يصبح الأب مألوفا عندالطفل تماما ، ويالهامن ستةشهور . ومع ذلك فقد كانت لاتزال هناك فترات يعود فيها «طارق» إلى التعلق بأمه ، ولكن أحدا لم يكن يعير هذه المسألة التفاتا . وأخذالوالد يروق فى نظر الطفل كل يوم أكثر من غيره ، وبلغ من شعور الأم بالارتياح لأن الأزمة قد مرت بسلام أن أصبحت على استعداد لأن تضحى بمنزلتها فى نفس الطفل إن كان ذلك يزيد من تعلق الطفل بأبيه . ولكن لا عليك أيتها الأم فأنه لاصلاح لأمر الأثنين بدونك

لكل شيء مكانه الخاص :

كانوا ثلاثة إخوة تبلغ أعمارهم الثانية والنصف والرابعة والنصف والسادسة والنصف ، وكانوا قد اعتادوا حياة الانطلاق والتحرر فى الريف ، حين ذهبوا مع والديهم فى زيارة إحدى الأسر الصديقة التى تعيش فى حى راق من أحياء لندن . ودهش الأطفال حين أطلوا من نافذة حجرة نومهم فوجدوا فناء صغيراً مبلطاً يحيط به جدار صغير

بدلا من أن تحيط به الحقول والأشجار كما اعتادوا أن يروا فى الريف . وبدا غريباً فى عينهم منظر هذه الدور الكثيرة المتلاصقة . وكان من الصعب عليهم أن يفهموا أن لهم جيرانا قد يؤذيهم صخبهم على الرغم من أن أمهم قد لفتت أنظارهم إلى ذلك كثيراً .

وكان بالفناء مقعد من مقاعد الحديقة و بضعة ألواح من الخشب ، وفى منتصفه شجرة طويلة هيفاء ملساء . وظل هذا الفناء طيلة أسبوعين مسرحا للعب ثلاثة أولاد صغار تضطرب بين جوانحهم روح البداوة والحيوية . ولم يجد الأطفال ما لا يروقهم فى الفناء فى بادىء الأمر . ولم تعجز الولد الأكبر الحيلة فاتخذ من الألواح الخشبية والمقعد محطة سكة حديدية وأخذ هو وإخوته يمثلون القطارات . ثم اهتدوا إلى أنهم يستطيعون أن يصعدوا إلى قمة الحائط بأن يرتبوا الألواح الخشبية والمقعد ترتيباً خاصاً . ووجدوا على الجانب الآخر من الحائط ، فى الحديقة المجاورة كومة من الرمل الأصفر الجميل الذى يستخدم فى البناء ، فنظروا إلى الرمل ونفوسهم تهفو إلى اللعب به ، والتمسوا أن يسمح لهم بذلك . وحاول الأبوان أن يشرحا لهم حرمة أملاك الغير ، ولكن الأولاد الصغار لم يقتنعوا بشىء من هذا كله ، وحاجوا أباهم قائلين « احنا مش رايحين نخسره يا بابا » . لكن أباهم — الذى يعلم أن الجيران لن يسمحوا بمثل هذا العبث — لم يتحول عن موقفه . وأخذ الأولاد الصغار يصعدون إلى أعلا الحائط مرات ومرات ليشخصوا بأبصارهم إلى هذا الفردوس من الرمل الأصفر من تحتهم .

وكان فى حديقتهم بعض أكوام الرمل ولكنه كان متفرقا غير نظيف

فنظروا إليه في سخرية وازدراء . أما الرمل الذى كان فى حديقة الجيران فقد أصبح أكثر الأشياء اجتذابا لنظرهم ، ولم يكفوا عن نسج القصص الخيالية عن صاحب هذا الرمل . تخيلوا أن صاحب هذا الرمل أشبه شىء بالغول الآثم الذى كانوا قد قرأوا عنه فى بعض الكتب . وأخذوا يلتمسون ما لا حصر له من الوسائل لعقابه على أن لم يسمح لهم بالعبث فى رمله . كل هذا والكبار مستمتعون بما يشغل الأطفال به أنفسهم ، ويشاركونهم هذا العبث . ولكن الذى لا شك فيه أنهم لم يحملوا محمل الجد ما توعد به الولد الأكبر صاحب الرمل من الانتقام .

ثم أرسل الأولاد الثلاثة ذات صباح ليلعبوا فى الفناء حتى يتم إعداد الفطور . وكانت شمس ذلك الصباح تسطع بأشعتها على رمل الجيران فتجعله أكثر ما يكون إغراء . وتسلق الأولاد إلى مكانهم الحبيب من قمة الحائط وأخذوا يصيحون متوعدين ذلك « الغول » الذى لم يكن قد استيقظ بعد ، والذى لم يكن يدرك مبلغ مايثيره رمله من شعور بالحرمان فى نفس الصغار الثلاثة وتعب الأولاد من كثرة الصياح ووصفهم صاحب الرمل « ياراجل ياعجوز ياحمار » فوقفوا على الحائط وانتظروا ماذا يوحى إليهم شيطانهم بعد ذلك . ولم يطل بهم الانتظار فقد اهتدى كبيرهم إلى فكرة سرعان ما أسرها إلى إخوته فى ابتهاج . وأخذ الأولاد يتهامسون ويقهقهون ، فقد بدت الفكرة فى نظرهم صائبة وجد خبيثة .

وبعد برهة رأت الأم — وقد تصادف أن كانت تطل من النافذة فى هذه اللحظة — أولادها وقوفا على الحائط أشبه شىء بصف من النافورات يبولون فى صخب وضجيج على الرمل من تحتهم . وركبها

الفزع هنيهة ، ولكنها كانت سيدة حصيفة . فساءلت نفسها فى الحال عن السبب فى أن أطفالها يسلكون هذا المسلك ، وقدرت فى نفسها أن ذلك لابد أن يكون نوعا من الانتقام من الجار المسكين جزاء له على أن كان صاحب هذا الرمل المحرم . وأسرت الضحك من الفكرة وعمدت إلى أن تخفى سرورها حين اقتربت من الحديقة . وانتظرت حتى نزلوا فى أمان من على الجدار ثم نادتهم إليها وقالت « ليس هذا مكان التبول ، فإنكم لا تستحمون أو تنامون فى الفناء ، أليس كذلك ؟ ، إن لكل شىء مكانه المناسب ، وعلينا أن نضع كل شىء فى مكانه . إن الحيوانات تستخدم الحديقة لأنها لا تعلم أن هناك مكانا أفضل من ذلك ، لكن الإنسان لايرضيه أن يسلك كما تسلك الحيوانات ، أليس كذلك ؟ ونظر الأولاد إلى وجهها الجاد . ولما كانوا يثقون كثيراً فى حسن إدراكها لكثير من الأمور فقد رأوا أنها على حق فيما تقول ، وسلموا بوجهة نظرها عن طيب خاطر ، وقالوا إنهم لن يعودوا لمثل هذا العمل . ولم تكن الأم على يقين من صدقهم ، ولكنها — لعلها بحسن نيتهم فى هذه اللحظة — أخذت تقبلهم فى ابتهاج وتحمل نفسها على أن تحسن الظن بهم .

نعمة مزدوجة :

ظل « محسن » الطفل الوحيد فى الأسرة زهاء ستة أعوام والرفيق الدائم لأبويه اللذين كانا يشركانه — وحسنا فعلا — فيما يقومان به من نشاط دون أن يفسده التدليل . ثم أخبره أبواه أنهم فى انتظار قدوم أخ أو أخت له . وبدا عليه أنه قد سر بذلك . ولم يدر بخلده ولا بخلد والديه

انهما سيرزقان توأمين . ووجد « محسن » من العسير عليه أن يكيف نفسه لهذا الطفل المزدوج من التوأمين . وكان التوأمان من ضعف البنية بحيث تطلبا من الأبوين عناية استغرقت معظم وقتهما . وكثر إغفالها لشأن « محسن » على الرغم من أنهما حرصا على أن يفرغا له كلما سمح الوقت بذلك .

واستبدت الغيرة بـ « محسن » وأصبح صعب القياد ، ولكن الأم لم تدرك أنه يتحتم عليها أن تقوم بعمل ما إلا بعد أن رأت إبنها قد بدأ يسلك مسلك الوليد . سألت « محسن » فى إهتمام بالغ ماذا تستطيع أن تفعل من أجله حتى يسلك مسلك الأولاد الكبار . ولكنها ارتاعت حين أجابها دون أن يتردد البتة « إرمى البنتين » وأدركت عندئذ دون أدنى شك مبلغ الاستياء الذى أصبح الولد يشعر به .

ورأت الأم أنه لا ينبغى على الاطلاق أن يكون اهتمامها بصحة التوأمين أكثر من اهتمامها بسعادة « محسن » ولذا فقد بذلت قصارى جهدها لتوفر له من الوقت أكثر ما تستطيع ، وعندما بدأ « محسن » يحس أنه مازال المحبوب المرغوب فيه ، أخذ يكيف نفسه بالتدريج لهذه الظروف ، واحتل مكانه بوصفه « الأخ الأكبر » فى محيط الأسرة . وشجعت الأم هذا الاتجاه فى « محسن » بكل الوسائل الممكنة ، ولم تكن تتوانى عن كل ما من شأنه أن يعزز ثقته فى نفسه ويعيد إليه شعوره بالامتياز . وكان من وسائلها فى ذلك أن خص بسرير ، وممتلكات ، لا تكاد تصل إليها أصابع التوأمين المستطاعة . وهكذا استعاد شخصيته . ولما عاد إليه

شعوره بالسعادة والطمأنينة تبين له أنه يستطيع أن يستشعر المتعة حتى في وجود أختيه اللتين كان يحتقرهما من قبل . وكم كانت دهشة أحد الجيران بالغة حين رفض « محسن » في ابتهاج دعوته لتناول الشاى قائلا « أصل إحنا رايحين نحمى الاتنين التوم ــ. شفت بقى » .

عزمى ووالده يفهم كل منهما الآخر :

كان عزمى وعمره سبع سنوات في طريقه إلى حفلة تمثيلية محلية مع والده . وقد كان الذهاب إلى هذه الحفلة متعاحقا لولد صغير لم يعتد شهود الحفلات ، أضف إلى ذلك أنه كان سينير لأبيه الطريق الزراعى المظلم المؤدى إلى مكان الحفل « ببطاريته » التى أهديت إليه في العيد .

وعاد « عزمى » مهرولا من المدرسة ، وجلس إلى تناول الشاى وهو يتوق إلى اللحظة التى يعود فيها أبوه من عمله . وأخذ يرقب الساعة، ويفكر في كل مكروه يمكن أن يحول بين أبيه وبين العودة إلى المنزل. ولكنه ما أن بدأ يحس أن شيئاً لا بد قد عاق والده عن المجيء حتى سمع الصوت المألوف صادراً من المطبخ يطلب إليه أن يسرع لئلا يتأخروا. وارتدى « عزمى » سترته على عجل وأخذت أمه تدور حوله تحاول أن تقنعه أن يقف بلا حراك لحظة ريثما تعقد له رباط الرقبة وتلبسه القفاز . وكان لذلك صخب وهرج نسى « عزمى » في غمرته « بطاريته «النفيسة» ، فلم يذكرها إلا وأمه توصد الباب من خلفهما . وهم « عزمى » أن يعود إلى داخل المسكن ليأتى بها لكن أمه ــ التى لم تكن تدرك ما «للبطارية» من أهمية في تلك الرحلة ــ حملته على أن يمضى في الطريق مؤكدة له

ان الليلة ستكون مقمرة وأنهما سيستطيعان أن يتبينا الطريق دون حاجة إلى البطارية .

لك الله ياعزى .. إن القمر لم يكن ليغير من الأمر شيئاً بالنسبة له . ولم يكن الأب قد قطع من الطريق أكثر من بضعة أمتار حين سمع إبنه يبكى فى مرارة ، واستدار ليستطلع الأمر . وسرعان ماأحاط بالموقف، وسأل عزى إن كان يفضل ألا تفوته مشاهدة جزء من الحفل على أن يذهب إليه « بالبطارية » ولما تبين له أن ولده يفضل أن تكون معه « البطارية » مهما كلفه ذلك من أمر أمسك بذراعه فى شيء من الغبطة والابتهاج واندفعا عائدين ليحضراها . وصعب عليهما أن يجداها ولكنهما تمكنا من ذلك بعد أن اشتركوا جميعا فى البحث عنها مدة خمس دقائق . واستأنف الأب وولده المسير إلى الحفل، والولد الصغير فى المقدمة يسير فى زهو وكبرياء يهدى أباه الطريق ويجنبه مواضع البرك المتناثرة على طول الطريق . وكان من الطبيعى أن يصلوا متأخرين إلى المسرح وأن يتسللوا إلى أماكنهم . وحين اتخذوا مجلسهم دفع عزى يده فى يد أبيه برفق واستشعار للأمان كما لو كان يريد أن يقول له « كل حاجة دلوقت كويسة » وجلس الوالد وإبنه فى تعاطف وتفاهم ليستمتعا بالحفل

مؤتمر فى سوء النظام :

قالت الأم لأولادها « إنكم يا أبنائى من ألطف الأطفال فى العالم ولكنكم ميالون إلى الفوضى وعدم النظام إلى درجة لا توصف » .

فقد كان الأولاد محبين للتعاون سلسى القياد فى كثير من الأمور

ولكنهم كانوا حين يعودون من مدرستهم الداخلية يشيعون الفوضى ويعبثون بالنظام فى المنزل . وكانت الأم لا ترغب فى أن تكدر عليهم صفو أجازاتهم الأسبوعية ، بلومهم ومطالبتهم بضرورة مراعاة النظام — فقد كانت العلاقات الطيبة أهم عندها من أن يظل بيتها حسن التنسيق — ولكنها جعلت تسائل نفسها أنستطيع أن تحقق كلتا الغايتين . واعتزمت أن تحاول .

بدأت بأن عقدت إجتماعا من الأطفال الثلاثة ، وسلم الجميع فى سرور بأن حسن التنسيق فى المنزل شىء جميل . ثم قال كبيرهم « أصل إنت عارفه إن الواحد يبقى بيعمل حاجة وتجيله فكرة إنه يعمل حاجة ثانية وإن ما كانش يعملها على طول تروح منه » .

ووافقته الأم على ذلك فيما بينها وبين نفسها ، واستدارت إلى إبنتها البالغة من العمر أحد عشر عاما تسألها رأيها ، فأجابت البنت فى غير تصنع « أيوه ياماما وأصلك إنت بتقولى لنا نعملك حاجة وبعدين إحنا ننسى نكمل الحاجة اللى كنا بنعملها قبل كده » وفكرت الأم أن كلام الأطفال صحيح فى هاتين النقطتين وأضاف أصغرهم « ما هو الترتيب ياماما حايبقى كثير ويتعب » وفهمت الأم تمام الفهم ما أراد الولد الأصغر أن يقول ، فقد كان لا يزال فى السادسة من عمره تمتلىء نفسه بالحماس والأفكار الحية المتوثبة حين يجلس ليقيم على الأرض مزرعة من اللعب وأنه يظل سادراً فى اللعب حتى تمل نفسه فلا يعود يطيق مرأى المزرعة بحيواناتها ، بل أن يعيد لعبه إلى مكانها . وأجابته الأم إجابة تعينه على ألا يجد فى إعادة اللعب إلى مكانها عبئاً ثقيلا . ولكنها لم تكن قد قامت بحل

المشكلة الكبرى ، فعادت تسأل أبناءها الكبار «طيب ودلوقت رايحين نعمل إيه فى المسألة دى . . »

وعرض الطفلان إقتراحات شتى ، ولكنهما إنتهيا أخيراً إلى أن نظام المصادرة الذى تسير عليه المدرسة هو أنجع الوسائل . وقالت الأم «كويس ، أنا حاخلى لكم أود النوم على مزاجكم تهرجلوا فيها زى ما انتوا عايزين ، لكن إذا لقيت أى حاجة من حاجتكم بره أودكم ، أنا رايحه أحرمكم منها لمدة أسبوع » ونال إقتراحها الموافقة الإجماعية من المجلس ، وأدهشها أن يقترح الأولاد أنهم سيحاولون أن يراعوا النظام فى حجراتهم الخاصة أكثر من ذلك . وأظهرت الأم سرورها البالغ من الفكرة ، ولكنها لم تقدر فى نفسها أنها ستشهد المعجزات من أولادها من أول الأمر ، وذكرت أنه قد أتى عليها حين من الدهر كانت فيه ميالة إلى الفوضى وسوء النظام ، وأنها الآن قد كبرت وأصبحت تحب النظام إلى درجة أنها تتألم للفوضى وسوء التنسيق . ولهذا فلا بأس على الأطفال إن كانوا فى مثل هذه السن على هذا النحو من الفوضى والإهمال . وأنها لا بد أن تصبر والزمن خير كفيل بتحسينهم وتعويدهم النظام .

وانفض إجتماع المجلس وأسرع الأطفال إلى أمهم يحتضنونها ويقبلونها فى شيء من الشغب والعربدة . واستخلصت الأم نفسها من بينهم بشيء من الصعوبة وهى تضحك فى احتجاج . ومضت عنهم وهى توقن أنها تستطيع التغاضى عن بعض سوء النظام دون أن تجرح الأطفال . وقدرت أنه من الأفضل أن يظل البيت على شيء من الفوضى وسوء النظام الدائمين على أن ترى أطفالها يفقدون أقل قدر من إقبالهم على الحياة واستمتاعهم بها .

تحريك الجبال :

هذا الفصل الذى بين يدى القارىء يتحدث أكثره عن العقلاء من الآباء والأمهات الذين يتصرفون بحكمة إزاء مشكلات أطفالهم . والحالة التى سنذكرها يتبين فيها كيف استطاعت مربية رشيدة أن تساعد بنتاً صغيرة ولدت وبها تشوه خلق فى جسمها على ألا يكون لذلك أثر على شخصيتها ونفسيتها .

كانت « كاميليا » ذات العينين البراقتين ورأسها المائل إلى الوراء مستسلمة لأفكار الحزن والتعاسة . وكان واضحاً لمن حولها من الكبار أنها كانت تجد صعوبة فى أن تشارك سائر زميلات الفصل الرقص وأن الجميع يتهامسون بين الحين والآخر فى رثاء وإشفاق عن عاهة البنت . فقد شاء سوء حظ كاميليا أن تولدوذراعها الأيمن ضامر مشوه وبكف ليس بها من الأصابع إلاالابهام وكتلة من اللحم فى مكان بقيةالاصابع .

ولما انتهت الرقصة أخـــذت « كاميليا » تتجول فى الحجرة وهى تتحدث إلى عدد من الأطفال الآخرين ، ثم قصدت إلى المربية التى ظلت تشرف عليها منذ وقت مبكر وكانت المربية تتحدث إلى إحدى الزائرات حين تدخلت « كاميليا » وبدون أدنى تردد مدت الطفلة يدها الشوهاء وسلمت على الزائرة فى ثقة تامة وبروح ودية . وكانت المربية قد اعتادت مثل هذه المواقف مرات كثيرة من قبل فعرفت أنها لا بد من أن تقوم بشىء من التوضيح حتى لا يشعر الكبار — لا الطفلة — بالحرج إذ كانت الطفلة قد اعتادت أن تنظر إلى عاهتها على أنها مسألة عادية .

وأمسكت المربية فى هدوء بيد البنت وشرحت للزائرة ما يقوم به الأطباء من محاولات مدهشة حتى تنمو للبنت أصابع جديدة . وقالت « كاميليا » فى زهو « أنا بقى لى دى الوقت صباعين » وهى تعرض على الزائرة التى أظهرت الإهتمام بأعاجيب فن الجراحة . وأردفت « دا أنا أقدر أضرب دى الوقت على الكمنجه برضه » ثم ضحكت وقالت « لكن تعرفى إنهم أخذوا جزء من نخدى علشان يعملوا لى صوابع » ثم أديرت دفة الحديث إلى موضوعات أخرى ، وخفت « كاميليا » لتشارك فى الرقصة التالية وهى تبتسم للمربية ابتسامة ثقة واطمئنان .

وبدت شجاعة « كاميليا » التى تبلغ العاشرة من عمرها غريبة لبعض الناس مع أن البنت كانت تبدو طبيعية لا تكاد تحس بذلك — ولعل هذا يبين أن فى استطاعة الآباء إن أحسنوا الإشراف على أطفالهم أن يجنبوهم ما قد تجره العاهات الجسمية من نظرة قاتمة منحرفة إلى الحياة . ومن الواجب أن نلتزم القواعد نفسها فى علاج مثل هذه الحالات ، وعلى الكبار الذين يعنيهم الأمر أن يغمروا الطفل بالحب وأن يحسنوا فهم نفسيته ، وأن يقدموا له التشجيع وأن يكون مقصدهم من ذلك أن يشعر الطفل بالطمأنينة التى تمكنه من أن يستمتع بالتعاون مع رفاقه على الرغم مما يشكو من نواحى القصور .

وقد ساعد فى بناء شخصية البنت الصغيرة ما نبذله من جهود لتتغلب على هـــذه العقبات ، وسرورها من قدرتها المتزايدة على استعمال يدها الشوهاء . وقد حدثتنا المربية عن نضالها المرير مع « كاميليا » لتحملها على أن ترغب فى استعمال ذراعها المشوه . وعن مبلغ ما لاقت « كاميليا »

من صعوبة فى استخدام « الكمنجة » حتى أصبح لأصبعها الجديدين القدرة على استعمال القوس .

كم يعلق آباء الأطفال المشوهين من أمثال كاميليا من آمال على تربية الأطفال وتدريبهم فى المستقبل . إننا إن استطعنا أن نزود مثل هؤلاء الأطفال بنظرة صحيحة سعيدة إلى الحياة ، وإن مكناهم من أن يسدوا خدمات حقة إلى المجتمع ، مكنا هؤلاء الأطفال من أن — يجتازوا مرحلة الطفولة والمراهقة فى سهولة طبيعية تجعل منهم فيما بعد كبارا سعداء متكاملين . ها نحن قد بدأنا نتبين الطريق الصحيح فما على الكبار الذين يحبون الأطفال حب هذه الممرضة لكاميليا إلا أن يكشفوا عن مكنونات نفوس الأطفال ليضيفوا إلى هذا الصرح من المعرفة الذى سيعيننا يوماً على أن نتيح لكل طفل فرصته الكافية .

زينب العصبية :

كانت زينب البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما ، فى طبعها بداوة وعصبية ، وصراحة تلقائية إلى حد ما ، وكانت ودودة ، شديدة الولاء لمن تحب ، وكانت ذات أفكار نيرة ومثل عليا . وكانت مرحة كأحسن ما تكون الفتيات المراهقات .

ولم تكن زينب كذلك من قبل ، فقد كان لها أخ أصغر ضعيف البنية ، استنفذ أكثر اهتمام والديه مما جعل زينب تشعر وهى لا تزال بعد وليدة غير مرغوب فيها ، وأنها دون من عداها . وأرسل بها — حين بلغت الثامنة — إلى مدرسة داخلية بعد أن صارت بنتا عصبية

وأصبحت الأم التى لم تكن تتمتع بصحة جيدة مشغولة على الدوام بطفلها الصغير . ولم تكن الأم راغبة فى إن تفقد ابنتها ، ولكن الأسرة والطبيب زينا لها هذا الإجراء .

وهناك فى المدرسة أخذت البنت الصغيرة تحدث نفسها بأن أمها لم تعد تحبها ، ولم تعد تريد بقاءها فى المنزل . وأحست لما حدث بمرارة الإستياء ، وأخذت تجتر هذه الأحاسيس حتى كادت تقضى عليها ، ونشأت البنت ميالة إلى العدوان محبة للظهور ، متعسفة فى النقد ، وقحة ــ وحسبت أن البنات جميعهن شريرات ولذلك لم تصادق منهن إلا القليل . وكانت متخلفة عن قريناتها فى المدرسة ، توجه أسئلة حمقاء وقحة كان يتضايق منها أكثر المدرسات ، وقليل منهن من كانت تحاول أن تتفهمها ، ولذلك فقد وصفوها بأنها « عصية » .

ثم أدركت أمها الموقف بسرعة وتاقت إلى أن تعيدها إلى المنزل وإلى أن تلحقها بمدرسة أخرى خارجية ، ولكن الزوج والأقارب الذين طالما اتهموها بأنها ستفسد الأطفال إن هى ظلت تعاملهم بمثل ما تعاملهم به أثاروا فى وجهها عاصفة عاتية من المعارضة . ولهذا فقد أخذت الأم على عاتقها أن تظهر لإبنتها كل ما استطاعت من مظاهر الحب خلال العطلات الأسبوعية . وأخذت تبحث عن الوسائل التى تعيد إليها الثقة بنفسها طوال الفترة التى تقضها فى المدرسة . وجعلت تكثر من كتابة الخطابات التى حرصت فيها على أن تشرح لها أنهم لم يبعثوا بها إلى تلك المدرسة إلا لتكتسب أكثر ما يمكن من الخبرات ، ودون أن تنسى وصف مبلغ اشتياق أهل المنزل إليها .

وأخـــذت « زينب » تقتنع بذلك واستعادت احترامها لنفسها . ووجدت فى معونة أمها التى لا تنقطع وحبها وتشجيعها الدائمين مايبعث الطمأنينة فى قلبها ويعيد اليها ماظلت تفتقر اليه لتستطيع مواجهة الحياة . وأخذ سلوكها يتحسن فى سرعة وشاع المرح شيئا فشيئا كما كثرت الأخبار المدرسية فى الخطابات التى كانت تبعث بها إلى أمها .

وجعلت «زينب» تأخذ بأسباب الشفاء على الرغم من أنها كانت فى حاجة دائمة إلى مظاهر حب أمها لها وثقتها فيها وغدا الأخ الأصغر الكريه مخلوقا صغيراً لاغناء لها عنه .

نستطيع أن نذكر بصدد هـذه الحالة أنه كثيراً مايحدث أن تذهب جهود أحد الأبوين أدراج الرياح أو يضعف أثرها إذا عارضها الآخر فى الأفكار والتصرفات . ولهـذا فقد حدث فى حالة « زينب » أن أدت جهود الأم إلى لاشىء بسبب أن الرجل وزوجته لم يتفقا فيما بينهما على الطريقة المثلى لتربية «زينب» . كان الزوج قد أبعدته الخدمة فى القوات الجوية عن محيط الأسرة عدة سنوات ولـكنه بعد أن عاد لم يوافق على طريقة زوجته فى تربية الأولاد ووصفها بأنها طريقة «لينة» إذ لم يكن له حظ من العلم بنفسية الأطفال ولم يكن بطبعه محبا للأطفال ولهذا فانه لم يتمكن من فهم نفسيات أطفاله . وبدا عليه أنه ينكر أن زوجته قد استطاعت أن تحسن تصريف شئون أطفالها فى غيابه ، وكان من العسير عليه أن يطامن من كبريائه فيعمل تحت إمرتها . واستشعر الغيرة حين وجد أبناءه يفضلون أمهم تفضيلا ظاهراً غير أنه لم يحاول أن يستميلهم إليه ليتخذوه من بعد ذلك صديقا .

ولكى يستر الوالد ما منى به من فشل فى معاملتهم لجأ إلى شىء من الخشونة والمماكسة فى معاملتهم . كما أنه أعلن أنه لكى يناهض ماتقوم به الأم من تدليل مزعوم للأطفال سيتولى عقاب الأطفال وزجرهم كلما أحس أنهم فى حاجة إلى شىء من ذلك .

وكانت نتيجة هذا التعارض المؤسف أن حدثت مناوشات اضطرت الأم معها إلى أن تقف موقف الدفاع عن الأطفال ضد وجهة نظر الزوج . ومن المؤكد أن سيكون لذلك أثر سيء للغاية على «زينب» إن هى اضطرت إلى أن تلتمس فى أمها ظهيراً ومناخا أو إن وجدت نفسها محل خلاف ومشاحنات بين والديها .

ونحن نأمل أن يغلب الزوجان جانب الحكمة وأن يتفقا على اتخاذ اجراء مشترك معين قبل أن تقع كارثة تقوض سعادة الأسرة . فان الأزواج الذين لاعلم لهم بتربية الأطفال ويحاولون مع هذا أن يملوا آراءهم على زوجاتهم اللائى جاهدن وعانين كثيراً فى قراءة كل مايتصل بالأطفال وتعلمه ، هم فوق ماتحتمل زوجاتهم .

ولقد حدث فى حالة من هذا النوع أن استطاع الزوجان تجنب وقوع الأزمة بأن سلم الزوج بالمزايا الظاهرة لطريقة زوجه فى التربية وبأن قبل أن يصبر عليها حتى يرى نتيجة هذه الطريقة ، ولو أنه كان يعتقد فى قرارة نفسه بضرورة اصطناع النظام الاستبدادى فى تربية الأطفال . وقد اشترك الأطفال فى المناقشة كذلك ، كما طلب اليهم أن يقوموا بدورهم فى اظهار أن التربية القائمة على روح المودة بين الآباء والأطفال تؤتى أطيب الثمرات .

التجربة

أخذت الأسرة طريقها الطويل إلى لندن، مرة تركب «الأوتوبيس» وأخرى تركب المترو (الذى يسير تحت الأرض) لتزور أسرة صديقة فى عطلة الأسبوع . وكان الجو حين بدأت رحلتها ملبداً بغشيه الضباب فى صباح يوم من أيام يونيو . ولكنها ما كادت تصل إلى مقصدها حتى أخذت حرارة الجو تشتد ، وسبب ذلك للأسرة شيئا من الحيرة فقد كانوا اعتزموا ألا يأتوا معهم « بالمايوهات » على الرغم من أنه كان بالقرب من المنزل الذى سيحلون به ضيوفا حمام سباحة ، وأن « بيتر » البالغ من العمر الحادية عشرة استبدت به الرغبة فى أن يذهب للسباحة مع ابن المضيف ، وجعل يثير شيئا من الصخب واللغط ويلوم الأسرة أن لم تأت معها « بمايوهه » .

وعرض الوالد على «بيتر» أن يستعير «مايوها» ولكن «بيتر» رفض ذلك بشدة . وتشاور الوالدان فى الأمر، ثم قال الوالد لولده . « تستطيع أن تعود لتأتى بمايوهك إن أردت» ، وراع ذلك «بيتر» فإنه لم يكن قد اعتاد أن يمضى وحده فى رحلات بعيدة كهذه . ولبث يفكر لحظات ، ثم أجاب « طيب ماشى ، أنا حروح أجيبه » ومد الوالد يده إلى ابنه ببعض النقود فى بساطة وهدوء ومضى الولد .

وساورت الشكوك والهواجس نفس الوالدين حتى اقترب موعد الغذاء وإذا « بيتر » يعود بسلام وقد أتى « بالمايوه » . وبدا الابتهاج بالظفر والنجاح على وجهه . وأيقن الأبوان انه كان لا بد من القيام بمثل هذه المخاطرة .

وسئل الأب عن ذلك فأجاب « إن أكثر ما يبديه الآباء من خوف وشدة اهتمام بأطفالهم يرجع إلى الأنانية . ذلك أنهم لا يريدون أن يكبدوا أنفسهم مشقة منحهم فرصة . ولهذا ينشأ الطفل وهو كثير الإشفاق والهلع على نفسه وتستمر المسألة على هذا النحو » .

ولكن هب أن مكروها وقع لـ « بيتر » ؟ أجاب الأب « في ظني أنك إن ازددت اهتماما وهلعا على الطفل تضاعف احتمال وقوع المكروه لهم . أما إن غرست فيهم الثقة بالنفس والجرأة وحسن التصرف لكان من المستبعد أن يقع لهم مكروه . وذلك لأنهم سيظلون يقظين لما يحدث . إن الأطفال الذين يقع لهم ما يكرهون هم الذين لا يثقون بأنفسهم لأن آباءهم لا يثقون بهم . وهذا قد يرجع إلى جبن الآباء أو إلى ميلهم إلى التظاهر بشدة اتكال الأطفال عليهم . وكلا الأمرين لا يمكن الطفل من أن ينتفع من قدرته على إدراك الأمور والحكم على الأشياء .

ونستطيع أن نضيف أن والد « بيتر » ليس أقل اهتماما بتربية أطفاله ، بل إنه لأكثر عناية بهم من كثير من الآباء الذين يظهرون شدة الاهتمام بذلك والذين ينفقون من الوقت أكثر مما ينبغي في تقييد حرية أبنائهم وإملاء رغباتهم عليهم .

كيف السبيل الى هذا :

نرى لزاما علينا ألا نختتم هذا الفصل قبل أن نحاول تحليل الأسباب التي تجعل من الرجل أبا ناجحا . فإن الملاحظ أن الآباء سيء التصرف يشتركون في اتجاهات وأفكار خاطئة على حين أن الآباء حسني التصرف يشتركون في مزايا واحدة .

يشترك الآباء الذين يحسنون التصرف فى أنهم يبدون نحو أطفالهم حباً عريضاً ، سخياً ، لا يقوم على التملك والأثرة كما أن لهم احساسهم الخاص بقيم محددة فى أذهانهم . وهم بعد ذلك يلتزمون نصيحة « بوليتوس » « كن صادقا مع نفسك التى بين عينيك فلاتخدعها » . وكما أنهم لايخدعون غيرهم من الناس فهم لايستطيعون أن يخدعوا أطفالهم ، فهم بعطفهم وعدالتهم الثابتين المتزنين يوفرون لأطفالهم الإحساس الذى لاغنى عنه بالأمن والطمأنينة وبأنهم مرغوب فيهم . وهذا هو الإحساس الذى ينبغى أن نؤكد أهميته .

والآباء الذين يحسنون التصرف يحسون كذلك بالمسئولية إحساسا عميقاً مما يدفعهم إلى الاستزادة من المعرفة الضرورية التى تمكنهم من أن يقوموا على تربية أولادهم تربية ناجحة .

كذلك يتميز الآباء الصالحون بروح اجتماعية قوية فهم قوم ميالون إلى التعاون فى روح من المودة سواء أكان ذلك فى محيط أسرهم أو خارجها وهم أنفسهم سعداء وإن لهم لمثلا عليا يعيشون على هديها ويعملون على تحقيقها . وهم كذلك يتحلون بالتواضع والصراحة . كما أنهم يقدرون الديمقراطية فى أوسع معانيها حق قدرها . ويحثون أطفالهم على أن يسلكوا مسلك الأفراد ذوى الشخصيات المستقلة المستقبلة . وأن يشعروا أنهم يساهمون بنصيبهم الذى لاينكر فى الحياة خارج المنزل .

وهناك أسباب مادية لابد وأن تتوفر للآباء حتى يكونوا آباء صالحين ، فلابد لهم من أن يعيشوا فى مستوى أعلى من مستوى الكفاف وأن تتوفر لهم المنازل المريحة .

ولقد التقيت بسيدات استطعن أن يجعلن من كوخ ذى أربع حجرات منزلا سعيداً لأسرة كبيرة، ولاشك أن هؤلاء السيدات من أنبل سيدات العالم . ومع هذا فسعادة الأسرة لاتقوم فى العادة إلا على توفر المكان الفسيح الذى يسمح بالحركة ، إذ أن حياة الأسرة لاتفنى عن الغرف الحرجة . وأن الأسرة التى تفرد لطفلها غرفة خاصة به لتجعل له مركزاً فى الأسرة لايستغنى عنه من أجل أن يكتمل نموه فى بعض مراحل النمو. فعلينا إذن أن نجعل هذا نصب أعيننا خصوصاً وأن البلاد آخذة فى التخلص من مشكلة المساكن وتوفير أسباب الراحة فى السكن لأبنائها. إن السكن الصحى ليس هو مجرد المكان الذى يتوفر فيه عدد من الأمتار المكعبة الكافية من الهواء لكل نسمة ، فقد يشبع هذا حاجة البدن ، ولكن النفس الآخذة فى النماء لاتستغنى عن مكان تخلو فيه إلى نفسها. وليس أقل من أن نوفر لكل طفل ركنا خاصا به .

ولاتنتهى المسألة عند حد توفر المنزل الصحى والشخصية السليمة ، بل إن الآباء إذا أعوزهم الخيال ضاعت عليهم أكثر المزايا والفوائد. وربما كان أكبر مايتصف به « الصالحون » من الآباء هو فهمهم لنفسيات الأطفال فهما قائماً على حسن التصور والعطف . فعلى الذين يريدون أن يقدموا المعونة للأطفال الصغار أن يجعلوا من أنفسهم أطفالا صغاراً كذلك . ولقد رانت الغشاوة على كثير من الكبار فاصبح عالم الطفولة أبعد عليهم من الوصول إلى الكواكب والنجوم. أما الآباء « الصالحون» فيستطيعون أن يعودوا بخيالهم إلى عالم الطفولة بآماله وآلامه ، فذلك أيسر لديهم من الانتقال إلى الغرفة المجاورة .

الفصل السابع

أتيحوا الفرص للآباء

بينا فى الفصل السابق ماذا نعنى بلفظة « الآباء الصالحين » ونريد فى هذا الفصل أن نبحث فى كل ما يمكن أن يعين الآباء جميعاً ، على أن يستمتعوا بتربية أطفالهم كما يستمتع بها الآباء « الصالحون » . ونحن نؤمن إيماناً قويا أنه حتى الآباء أنفسهم ليس فى مقدورهم أن يكونوا صالحين إلا إذا كانوا سعداء . وأنى لهم أن يكونوا سعداء وهم ، فى أغلب الأحايين ، فى اضطراب وقلق على أبنائهم . ونحن ندرك كذلك أن الأطفال ليسوا السبب الوحيد فى هذا الاضطراب والقلق ، ولكننا نؤمن كذلك أن كثيراً من هذا الاضطراب والقلق مرده إلى الأطفال . ومن المؤكد أنه فى مقدور الأسرة إن تهيأ لها دخل مناسب — أن تتخلص من نوع واحد من أنواع القلق والاضطراب كما أنه فى مقدورها — إن حظيت بقسط وافر من الخدمات الطبية — أن تتخلص من كثير من هذا الاضطراب والقلق . لكن الاضطراب والقلق اللذين نريد أن نعين الآباء على التخلص منهما هو نوع من القلق ينتشر فى الأسر الغنية والأسر الفقيرة على السواء — ونقصد به ذلك القلق الذى يترتب على افتقار الآباء إلى المعرفة اللازمة من أجل حسن النجاح فى تربية أطفالهم .

لا نرى أن يبدأ الإعداد للأبوة فى سن مبكرة . فإن الأطفال الذين ينشأون فى أسر سعيدة يقوم فيها على تربيتهم آباء مستنيرون يكون من المؤكد غالبا أن يصبحوا بعد أن يكبروا رجالا ونساء سعداء متزنين، وسيثبتون فى المستقبل أنهم سيكونون بدورهم آباء صالحين كذلك . ومن الممكن أن تلقن الدروس الأولى فى هذه الناحية الفنية من الموضوع للمراهقات والمراهقين على هيئة دراسات فى فن الأمومة تلقن للفتيات، ودراسات فى فن الأبوة وشئون المنزل تلقن للفتيان . وذلك أن المراهقة هى فترة الرومانسية ، فيها يستغرق المراهق فى تشييد صروح الآمال . وأى صرح أحلى من أسرة سعيدة ؟ فمن الواجب إذن أن نوجه هذا الإهتمام الفطرى الذى يبديه المراهقون والمراهقات نحو الأطفال الصغار إلى مصارفه الصحيحة ، وأن نكشف لهم عن مهنة الأبوة السامية .

إن الأطفال الذين يتعلمون فى المدرسة هذه الدروس الأولية بطريقة حيوية جذابة يصيرون أكثر قدرة على مواجهة الابوة وقد إعتزموا أن يتصرفوا بذكاء وأن ينجحوا فى مهمتهم . كذلك ينبغى أن تنظم الدروس والمحاضرات التى يشترك فى الإستماع إليها كل من الرجل وزوجه ، فإنه من المهم أن تتفق آراء كل من الأبوين حول تربية أطفالهم . وقد عرفنا من محادثاتنا مع الآباء أن فى مقدورهم أن يهتموا بهذا الموضوع إن هم وجدوا أيسر تشجيع .

إن الإخصائيين الاجتماعيين والزائرات الصحيات كثيراً ما يؤسفهم أن يجدوا أن الآباء الصالحين بفطرتهم هم الذين يخفون إلى سماع

المحاضرات وقراءة المراجع ، على حين أن أحوج الناس إلى هذا هم أولئك الذين لا يقبلون عليها كثيراً ، بل إنهم ليرفضون منهم التدخل لهذا الغرض .

وإنه ليبدو لنا أن أحسن نظام لتدريب الآباء على فن الأبوة هو يوم الحضانة ومدارس الحضانة . وقد أثبتت دور الحضانة التى أنشئت زمن الحرب — بما لا يحتمل الشك — أنها لا تفقد الأمهات إحساسهن بالمسئولية ، بل إنها لتزيده وتنميه . فقد كن يدركن — بعد أن يشاهدن ما يكسبه أطفالهن من تحسن فى الصحة والسلوك بفضل المعاملة المستنيرة على يد الاخصائيين — أن فى إستطاعتهن — إن هن إصطنعن طرقا مشابهة — أن يجعلن الحياة داخل الاسرة أكثر يسراً وسهولة .

ونحن لا نوصى بأن يحل نظام يوم الحضانة أو الحياة فى مدارس الحضانة محل الحياة فى الاسرة ، ولكننا نرى من الضرورى أن تكون الحياة فى مدارس الحضانة جزءا من الحياة فى الأسرة . بل إننا لنذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن الأم ينبغى ألا تضطرها ظروفها الإقتصادية إلى أن تسلم طفلها إلى دور الحضانة لتقوم بتربيته حتى تتفرغ هى للعمل . ومع هذا فمن الواجب أن نجعل فى ميسورها أن تترك وليدها فى دار الحضانة مرة أو مرتين فى الأسبوع ، لتستمتع هى ببعض الوقت الذى تنفقه فى النشاط الحر . وبهذا لا يحرم الوليد رعاية أمه كما أنها ستتمكن من زياراتها المنتظمة لدار الحضانة من الوقوف بنفسها على أحسن الطرق فى معاملة الصغار . وأن تناقش مشكلاتها الخاصة مع رئيسة المربيات . وربما تيسر لها ما هو أهم من هذا كله : أن تزداد ثقتها بنفسها بقليل من

العطف والتشجيع . كذلك ستكون الطرق الصحيحة فى التربية أكثر قيمة عندما تراها تطبق على طفلها بدلا من مجرد علمها بها . كما أن النصيحة التى ستقدم اليها ستقوم على دعامة من الملاحظة الفعلية للوليد مدة يوم كامل ، بدلا من أن تقوم على مجرد سرد الأم لقصته سردا غير دقيق فى أغلب الأحيان ، تقوم به الأم فى عجلة فى عيادة مكتظة بالرواد .

وكذلك تستطيع الأمهات أن تساهم بالعمل فى هذا النوع من دور الحضانة عددا من الساعات كل أسبوع ، وربما كان للخبرة العملية التى تكسبها الأمهات من هذا السبيل أعظم الفائدة . فهن سيتعرفن - بطبيعة الحال - إلى الهيئة العاملة فى هذه الدور . كما أنهن سيشعرن شعورا حقيقيا بأنها ملك لهن . ولقد استشعر المسئولون عن دور الحضانة زمن الحرب بالزهو والكبرياء لأنهم يسهمون فى إدارة دار حضانة ناجحة ، كما كان هذا الشعور من أعظم ما كوفئوا به على الجهود المضنية التى بذلوها . كذلك ينبغى أن يشجع كل ما من شأنه أن يزيد الآباء اهتماما بأبنائهم ، وأن تنظم الجهود المشتركة من عقد اجتماعات فى نوادى الآباء إلى جماعات إصلاح لعب الأطفال . وربما كان من المفيد أن يتقاسم الآباء مع بعضهم أو مع المختصين المتاعب وأن يتبادلوا الأفكار ، ويتدارسوا المشكلات إذ ينبغى ألا ننسى أن المربيات أو المدرسين يستطيعون أن يتعلموا الكثير من الآباء . كذلك ليس هناك شك فى أن دور الحضانة قد تدفع بعض الآباء إلى أن يشعروا بمسئوليتهم الكاملة للمرة الأولى كما أنها قد تجعلهم ينهضون بواجبهم عن طيب خاطر إن عرفوا ان هناك من سيعينهم على التغلب على ما يعترضهم من عقبات .

أما الأطفال الذين تزيد أعمارهم عن الثانية فإن مدارس الحضانة بالنسبة لهم ولآبائهم ذات قيمة حقيقية . ذلك أن معظم الأطفال يحتاجون قبل أن يبلغوا سن الالتحاق بالمدرسة بفترة طويلة الغنى منهم والفقير — إلى ما يشغلون به أنفسهم وإلى رفقة فى ظروف معدة إعدادا حسنا بحيث تشرف فيها عليهم عين مدربة فى مدارس الحضانة . كذلك لا بد لكى نجنى أطيب الثمرات من أن يتردد الأطفال بانتظام على هذه المدارس خمس مرات فى الأسبوع ، ولمدة ست ساعات يوميا .

ليست مدارس الحضانة هذه إذن مرتعا للكسالى من الأمهات كما يسمها نقادها ولكن لها أغراضا أسمى من ذلك . فكما أن البستانى الحاذق يهتم بأعداد التربة قبل أن يبذر البذور ، فكذلك تقوم مدارس الحضانة بأعداد جسم الطفل وعقله لتلقى بذور المعرفة والمهارات التى ستقوم المدرسة فيما بعد بغرسها فيه . وأن هذا التدريب الذى تقوم به مدارس الحضانة لجزء هام من تربية الطفل للحياة . وإنه لينبغى أن يشجع الآباء على أن يحصلوا عليه بأنفسهم أينما وجدوه . ومن الممكن أن تكون مدارس الحضانة — مثلها فى ذلك مثل يوم الحضانة — ميدانا لتدريب آباء الأطفال بين الثانية وسن الالتحاق بالمدرسة . وليس من السهل دائما للأمهات أن يتجولن فى المدرسة وأن يلاحظن ما يقوم به أطفالهن الصغار من نشاط ، وذلك لأن صغار الأطفال سيتعلقون بأمهاتهم إذا ما رأينهن فى دار الحضانة . غير أنه من الميسور أن تتخذ التدابير التى تمكن الآباء من أن يلاحظوا الأطفال دون أن يراهم هؤلاء ، وذلك كما حدث فى كثير من أنحاء أمريكا وفى عيادة أو عيادتين فى بلادنا . ومن

الواجب كذلك أن تكون نوادى الآباء ومجموعات المناقشة جزءا بارزا فى حياة دار الحضانة .

كذلك لا بد من أن تختار مدرسات دار الحضانة وناظرتها بعناية فائقة . فإنه لاجدوى من مجرد معرفة هؤلاء بعملهم معرفة نظرية أكاديمية إذا لم يأنسوا فى أنفسهن حب الإنسانية وروحا اجتماعية عميقة . كذلك ينبغى إلا يقتصر عملهن على مجرد الملاحظة الدقيقة للأطفال الذين يعهد بهم إليهن ، وإنما عليهن إلا يشعرن أنهن قد أدين واجبهن إلا بعد أن يكن قد قمن بكل ما فى طاقتهن ليوفرن الأطفال جزءاً من السعادة فى منازلهم كذلك . ولا سبيل إلى أن يقمن بهذا إلا بأن يتخذن من الآباء والأمهات أصدقاء وصديقات ، وبأن يمدونهم بشىء من خبراتهن ليساعدنهم فى تلك المهمة الشاقة فى كثير من الأحيان إلا وهى فهم أطفالهم .

وتصور قصة «روزمارى» التالية ماقد يقع فيه الآباء — حتى بحسن النية من أخطاء ، وكيف أن دور الحضانة تصلح من هذه الاخطاء .

أما القصة الأخرى فإنها مجرد عرض سريع لأب مشكل بلغ من إصلاح حاله واستقامة أمره درجة أدهشت نفس دار الحضانة التى قامت بإصلاحه وتقويمه .

ضربة الجوع (سنها ثلاث سنوات ونصف)

كانت «روز مارى» من أولئك الاطفال الذى نسميهم «بالمتعبين فى تغذيتهم» أو بعبارة أخرى نقول ، إن أوقات تناول الطعام أصبحت

كابوساً على الاسرة جمعاء لأن «روز ماري» لم تكن تريدأن تأكل . وعلى كل حال فإنها لم تكن تريد أن تأكل شيئاً ذا طعم يختلف عما ألفت أو شيئا يحتاج إلى مضغ . كانت ترفض كل أنواع الطعام اللهم إلا ثريد اللبن ، والخبز والزبد والكعك . ولم تكن تشرب اللبن إلا أن يكون حلو المذاق وأن تكون درجة حرارته مناسبة . ولم تكن تتناول عصير البرتقال الذى يقدم إليها إلا حين ترغب فى ذلك . وقد كان يمكن أن يلائم هذا الغذاء طفلا مفطوما ، ولكنه غير ملائم بالتأكيد لطفلة صغيرة يبلغ عمرها الثالثة والنصف . وقد بدت على « روز مارى » الأعراض المبدئية للين العظام ، وأسفت الأم لذلك أسفا لم تستطع أن تخفيه . ولهذا فقد أصاب البنت شىء من الجزع من المرض .

فلنلق الآن نظرة على الفترة الأولى من حياة « روزمارى » ولننظر كيف حدث هذا .

لم تكد أم «روزمارى» تغادر المدرسة حتى التحقت بوظيفة فى مكتب . وظلت تعمل فيها إلى ماقبل ميلاد «روزمارى» بشهور قلائل . فلم تكن تهتم بأطفال صديقاتها ، ولما علمت أنها تنتظر حادثا سعيداً وأنها ستستقبل مولوداً ضحكت فى سخرية وقالت « إنها لاتكاد تعرف عن هذا الموضوع شيئا » . وأكدت لها أمها من خبرتها الخاصة أن « العناية الالهية » ستزودها بالمعرفة اللازمة بمجىء المولود . وأملت أم « روزمارى » أن يتحقق هذا الكلام ، وترددت قليلا من المرات على أحد المستوصفات الذى نصح لها فيه أن تشترى كتابا معينا عن الأطفال وفعلت ولكنها ـ لسوء حظها ـ لم تتبع نصيحة المستوصف وتستوعب

حاجاه فى الكتاب قبل أن تلد ، وقدرت فى نفسها « سأنتظر حتى يقع مالا أحب وعندئذ أبحث فى الكتاب عما ينبغى أن أفعل » وكان هذا أول خطأ جسيم تورطت فيه ، فقد ظلت تنعم فى جهلها بالمزالق ، وأصبحت بالتالى غير قادرة على أن تتجنب الوقوع فيها .

ولدت « روز مارى » فى مستشفى طوارىء خارج مدينة « لندن » وما أن بلغ عمرها أربعة عشر يوما حتى أخذتها أمها لتعيش مع أسرة زوجها فى الريف لتكون بمنجى من الغارات الجوية . وربما كان هذا هو الحل الوحيد الممكن فى ذلك الوقت . ولكن تبين أن هذا الإجراء هو الخطأ الثانى الذى ارتكبته الأم . وكانت الأسرة تتكون من الجد والجدة وبنتيهما اللتين لم تتزوجا بعد . أما ولدهما فقد كان عبر البحار ، ولما كان قد تزوج من أم « روزمارى » على غير إرادة الجدين والأسرة ، فإن الأسرة لم تترك فرصة لمضايقتها إلا انتهزتها . فلم تمد الأسرة يد المساعدة فى تربية الطفلة ، وإنما فضلت أن تقف موقف الناقد وبذلك قوضت ما فى نفس الأم من ثقة قليلة . كذلك كان أفراد الأسرة يقفون من البداية فى صف « روزمارى » ضد والدتها مفسدين الطفلة بالتدليل كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا . فما أن تبكى الطفلة حتى يعترض معترض على الصخب الذى تحدثه أو على أن أمها تترك الطفلة الصغيرة المسكينة لتبكى .

ولما بلغت « روزمارى » الشهر التاسع أخذتها أمها إلى مركز محلى لرعاية الطفل تستشير المسئولين به عن عملية الفطام . فقد كانت أخذت على عاتقها مهمة تغذية الطفلة ، على الرغم مما تلقى فى ذلك من صعوبات .

وجعلت « روزماری » تصرخ وتبكى أثناء مقابلة أمها للطبيب الذى وصفها بأنها « طفلة مدللة » الأمر الذى أحزن الأم لعلمها بصدق هذا الوصف .

وأخبرها الطبيب أنه كان ينبغى أن تبدأ الطفلة فى تناول بعض الفاكهة والخضروات وهى بعد فى الشهر السادس من العمر لتعتاد مذاق الجديد من الطعام . واعترفت الأم بأنها قد حاولت ذلك مرة أو مرتين وأنها إنما امتنعت عن ذلك حينما جعلت «روزماری» تلفظ كل شیء مما جعل الأم تستنتج أن الطفلة لا ترغب فى تناول شیء من الفاكهة والخضروات . وارتاع الطبيب لسماع هذا ، وأخذ فكرة قاتمة عن طفلة لا تزود « بالتغذية المناسبة المتزنة » وطلب إلى الأم أن تواصل جهودها فى هذا الصدد . وغادرت الأم العيادة وهى تحمل بين جنبيها كل نية حسنة ، وعادت فى اليوم التالى تقدم لابنتها ما كانت ترفضه من قبل . لكن «روزماری» ظلت ترفض كل طعام لم تألفه من قبل ، وتصرخ فى طلب تريد اللبن . فقد كانت من الحكمة بحيث تعلم أن الأسرة ستأتيها به . واستعرضت الأم مشكلات ابنتها هذه مع بعض صديقاتها فأشرن عليها بمشورات متضاربة لدرجة أن الأمر كان يختلط عليها حين تأتى ساعة تناول الطعام . قالت إحداهن «ابقى اقفلى مناخيرها لما تيجى تأكلها» . وقالت الثانية « ابقى اضربيها لما تطلع الأكل من بقها » . وأشارت الثالثة « استنى عليها شوية لما تكبر وتعقل عن كده » .

وجربت الأم كل هذه النصائح ، بل إنها كانت تجرب أكثر من

نصيحة فى الوقت الواحد ، ولكن ذلك لم يجد فتيلا ، وبقيت «روزماري» على حالها لا تتناول إلا ما ألفت من طعام .

ولكن أحداً لم يبين لأم « روزماري » أن الطفلة لا تستطيع أن تتناول طعامها فى سعادة وعن طيب خاطر فى مثل هذا الجو من الثورة الانفعالية وحدة المزاج ، والأعصاب الثائرة . وكان الطبيب قد نسى أن يشرح لها – حين طلب إليها المثابرة – أهمية اتجاهها وموقفها أثناء قيامها بهذا العبء الملقى على كاهلها ، وأنها لن تصل إلى نتائج حسنة إلا إن آمنت بأنها ستنجح فى ذلك حتما وظلت تحاول عدة أسابيع . كذلك لم يشرح لها واحد من الناس أن الطريقة الوحيدة – لكى تعتاد « روز مارى » الجديد من الطعام – هى أن تبعد عنها فى هدوء واصطبار الطعام الذى لا ترغب فيه بطريقة آلية فى كل مرة تلفظه فيها . إن المسألة لا تعدو أننا « نربى » حاسة الذوق عندها حتى تقبل الغريب من الطعام ، وأن هذا الدرس مثله كمثل سائر الدروس لا يفيد منه المتعلم إلا إذا لقناه فى جو مناسب من الهدوء وعدم الانزعاج . لم يشرح واحد من الناس لأم « روز مارى » شيئا من ذلك ، ولهذا فليس من الإنصاف أن نلومها على أن ظنت « الشقاوة » فى إبنتها . (والعجيب أن أهل زوجها كانوا يشاركونها هذا الظن يوما ويختلفون معها يوما) . وهكذا عاشت الأم فى غمرة من القلق تفزع من حلول موعد وجبات الطعام .

ولما بلغت « روز مارى » السنة الأولى من عمرها ، أصر الجدان على أن تتناول طعامها مع بقية الأسرة . واشتروا لها كرسياً عاليا لهذا

الغرض وخشيت الأم أن يزداد حنق الجدين عليها ، فلم تكد تحتج إلا قليلا ، ثم رضخت فى النهاية للواقع . أما «روز مارى» فقد رفضت أن تصيب شيئاً من الطعام الذى يحتاج إلى مضغ ، وصارت تلفظ إلى الأرض كل ما تقضمه من طعام ، لأنها لم تكن قد اعتادت أكل اليابس من قبل ذلك بستة شهور . وأخذوا يقدمون إليها فى كل يوم أصناف الطعام التى تكون غذاء كاملا ولكنها لم تكن لتتذوق أكثر هذه الأصناف ، وكانت حين ترى الغذاء تضع إحدى يديها بقوة على فمها ، وتدفع عنها بيدها الأخرى الملعقة الممدودة . فإن حاولت الأم أن تصطنع شيئاً من الحزم أخذت الطفلة تناضل حتى تكسب المعركة . ثم بلغت «روز مارى» الشهر الثامن عشر وبدأت تحس الرغبة فى أن تتناول الطعام بنفسها واستطاعت أن تأكل العصيدة وتريد اللبن دون معونة . وناولت الأم طفلتها فى يدها ملعقة ملأى بالجزر والطماطم ، وفكرت أن طفلتها ربما أصبحت أكثر اهتماما بغذائها ، ووضعت «روزمارى» الملعقة بعناية فى فمها وابتلعت الطعام ، ثم عاودت ملأ الملعقة بنفسها وبلعت ولكنها ما كادت تفعل ذلك للمرة الثالثة حتى نظرت فرأت الأسرة كلها مشدوهة وقد حبست أنفاسها من شدة القلق . ولكن سرعان ما زالت النوبة وعاد إليها سلوكها القديم .

ومن الواجب أن نذكر أن كل وجبة من وجبات الطعام لم تكن معركة صريحة بين «روز مارى» وأمها فقط ، فكثيراً ما كان يحدث أن يجد أحد الكبار نفسه مضطراً إلى التدخل كل بضعة دقائق . فهذه تتوسل إلى الطفلة أن تأكل ، وهذه الأخرى تلاعبها ، وتستثيرها ،

وآخر يقول «سيبونى آأكلها ، هى رايحة تاكل علشان خاطرى» بل أسوأ من هذا كله أن الجد كان ينتزعها من على كرسيها ليجلسها على ركبته ، ويحاول أن يجعلها تأكل نتفا من الطعام من طبقه الخاص به . وكان وقت تناول الطعام لا ينقطع فيه النقاش والخلاف حول هذه الطفلة الصغيرة التى كانت تدرك مبلغ سيطرتها عليهم والتى كانت تطرب من ذلك . ولم يدر بخلد واحد من أفراد الأسرة أن يدعها وشأنها لتأكل بعيداً عن أعين هؤلاء الأقارب الذين ركبهم الهم والجزع . فقد كان يمكن أن يقدم لها الغذاء فى حجرة أخرى بعد أن أصبحت قادرة على أن تطعم بنفسها . ولو أنهم تركوها وحدها لكانت قد اعتزمت أن تجرب ولكانت قد أكلت بعض الطعام ثلاثة أيام على الأقل من بين أيام الأسبوع ولكان هذا بمثابة خطوة فى الاتجاه الصحيح . كذلك لو أن أمها قد أتبعت طريقة تقديم الصنف الأول من الطعام ثم رفعه بعد عشر دقائق فى هدوء ودون تعليق ، ثم تضع بدله الصنف الثانى لكان قد خيل إليها أنها لا تزال مغلوبة على أمرها ولكان ذلك فى الحقيقة أول ما تحرز من نصر . صحيح أن « روزمارى » لم تكن ستفيد جسميا إن تناولت ملعقتين ولكن تناولها للطعام أو عدم اقترابها منه لم يكن سيثير مثل هذه المتاعب . وعندئذ لن يفقد واحد هدوءه ولن يروع الطفلة المسكينة كثرة مايدور حولها من لغط وما يرتفع من أصوات الكبار المشفقين على أنفسهم . ولو أن الهدوء الانفعالى عاد إلى عالمها وبدأت تدرك أن أمها ستقف منها موقف الحزم والثبات فى المعاملة (بأن تخفى القلق الذى كانت لا تزال تشعر به) لكانت قد استجابت لذلك بأن تصطنع شيئا فشيئا نوعا من السلوك المعقول .

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لسوء الحظ ، ولهذا فان «روزمارى» لم تتح لها الفرصة لتصلح من أمرها ، والحق أنها كانت كلما كبرت ازدادت سوءا ، لكثرة ما كان يتوقع منها أن تقوم به من جهة ولأن قوة إرادتها الآخذة فى التزايد جعلتها أقل طواعية من الجهة الأخرى ، ولهذا فقد أخذت الأم تكثر من صفعها .

وأشرفت الطفلة على العام الثالث ودخلت بذلك فى مرحلة جديدة . أصبحت تميل إلى الهدوء وتكثر من التفكير ، وبدأت تفقد نشاطها وخفتها ولم تعد تبدى من المقاومة عند مواعيد الأكل ما كانت تبديه وأصبحت متبلدة الحس ، جامدة الشعور ، ولم تعد تحاول أن تطعم نفسها بنفسها على الاطلاق ولم تعد ترفض أن يدفع الطعام فى فمها ولكنها لم تكن تأكله بل كانت تمسك اللقمة الأولى فى فمها ، حتى يفرغ الطعام وترفع المائدة وهى لاتحاول أن تمضغ ، ثم تخرج اللقمة لتلقى بها فى الطبق فى نهاية الأمر . ولم يعد الثريد يسيل لعابها دائماً . ولا الخبز والزبد ولا الكعك . وعاشت هكذا على القليل من الطعام فأخذت تنمو فى نحافة ، وفقدت كل ما كان لديها من رغبة فى النضال وأصبح أيسر التعنيف كفيلا بأن يدفعها إلى البكاء وظل الحال على هذا النحو عدة شهور حتى أخذتها أمها أخيراً إلى الطبيب .

وقفت «روزمارى» وأصاخت السمع — كما فعلت فى مرات كثيرة سابقة — إلى سرد الأمراض التى أصيبت بها وإلى سوء سلوكها . وجعلها هذا تشعر — كعادتها — بما لها من قيمة وأهمية ، وتعمل على استمرار المتاعب المتعلقة بطعامها . ورأى الطبيب أن «روزمارى» فى حاجة إلى

من يعاملها فى حذق ومهارة ، وإلى أن تعيش بين مجموعة من الأطفال ، ولهذا فقد تقرر أن تعود أمها إلى الإلتحاق بالوظيفة وأن يبعث بروز مارى إلى مدرسة الحضانة . وقبلت الأم ذلك على مضض — إذ كانت تحس بمرارة الفشل ، لكنها كانت قد بلغت مرحلة اليأس ، فتركتها أخيراً لتذهب إلى دار الحضانة .

وهكذا وجدت «روز مارى» نفسها أنها لم تعد مركز الاهتمام ولكن صارت طفلة بين « أسرة » تضم أربعين فرداً . ولم يظهر عليها الرضا أو الإستياء بحياتها الجديدة ، لكنها بقيت على حالها من تبلد الحس وجمود الشعور .

وضعوها أولا عند تناول الغذاء بين أطفال بلغوا الثانية اعتقاداً منهم أنها ستلقى من الكبار مساعدة على تناول طعامها ، ولكن سرعان ما تبين لهم أنها قد أحست حين وضعوها بين الصغار بأنهم قد انتقصوا من قدرها ، وبذلك لم تخط فى سبيل التقدم خطوة واحدة . وبعد أسبوعين انتزعوها من بين صغار الأطفال وأجلسوها على مائدة بين سبعة أطفال كبار كانوا على وشك أن يبلغوا سن الإلتحاق بالمدرسة . وبدا عليها السرور بهذا وأخذت تصبح أكثر ابتهاجا وميلا إلى الحديث ولو أنها كانت لا تزال مقلة فى الطعام . وأعطيت كل يوم مقداراً صغيراً جداً من كل ما يقدم للأطفال الكبار . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تصيب من الطعام قضمة أو قضمتين بدون تفكير ، ولو أنه لم يحدث مطلقا أن ظلت محتفظة بالطعام فى فمها دون أن ترد رده . ولم يعد هناك من يؤنبها ، ولو أنه كان يحدث أن يمر بها أحد الكبار فيحدثها فى هدوء

بأنه من الأفضل أن تزدرد اللقمة كما يفعل الآخرون وأنها إن ابتلعت الطعام فستنمو بسرعة وستصير قوية مثلهم . ولم يعد هناك كذلك من يهتم بها ويكثر من الحديث عنها أو يقلق عليها ، ولذا فقد بدأت تهتم قليلا بطعامها .

أما اللحم فقد كان العقبة الكؤود ، ولهذا فقد استبدلوا به لعدة شهور أنواعا أخرى من المادة البروتينية . وبذلوا كل ما من شأنه أن يغرس فيها الثقة بالنفس والزهو بالنجاح فى النهوض ببعض الأعمال الا فى وقت تناول الطعام فحسب ، بل وأثناء بقية اليوم كذلك . وأعطيت أيضاً شرابا من الحديد المقوى ليزيد من شهيتها نحو الطعام . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تظل أسبوعا أو أسبوعين تتناول من الطعام ما يكفيها ، فيزداد سرور من حولها ، ثم تنتكس لعاداتها القديمة . وكان البحث يسفر عن أن سبب الانتكاس هو فى العادة أنها تناولت الغذاء فى منزلها يوم الأحد . ولهذا فقد أشاروا على الأم ألا تدفعها إلى تناول طعام على الإطلاق ، وأن تتريث حتى « تطلب » هى إليها ذلك . ورأوا أنها لما كانت تتناول غذاءها ست مرات فى الأسبوع فى دار الحضانة فإنه من الأفضل أن تحرم منه مرة كل أسبوع بدلا من ان تستهدف للثورة الإنفعالية التى تصاحب تناولها للغـــداء فى بيتها دائماً واستجابت أم « روز مارى » إلى هذه النصيحة وتعاونت معهم تعاونا صادقا . وبذلك تحقق توحيـــد المعاملة لأكبر درجة يستطيعها البشر ، فقد كانت حياة الطفلة موزعة بين المنزل ودار الحضانة .

ومضى ما يقرب من عام قبل أن تستطيع «روزمارى» أن تجلس إلى

طعامها دون أن يبدو عليها شيء مما كانت تشكو منه من الخوف وما أن بلغت الرابعة والنصف حتى كانت قد تخلصت من متاعبها وصارت تنقض على طعامها بشأنها فى ذلك شأن لداتها من الأطفال السويين . ولما بلغت الخامسة من عمرها أنجبت لها أمها أختا ، وكان من المحتمل أن تعود «روزمارى» إلى سلوكها القديم ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث وتبين أن «روزمارى» قد وصلت أخيراً بعد جهود مضنية كثيرة إلى التكيف السليم مع الحياة . وأخذت تزداد ثقة بنفسها ازدياداً سريعا حتى أنها حين وصلت إلى الوقت الذى تترك فيه دار الحضانة إلى المدرسة كانت قد أصبحت من الشخصيات البارزة فى الدار .

ألقوا بالعصا (فى الثانية من عمره)

كان «تومى» عند أول ذهابه إلى دار الحضانة طفلا تعسا مهملا يشكو من لين العظام . وكانت أمه الأرملة تندب حظها ، وتحمل للعالم أجمع شعور الحقد والضغينة . وكانت لا تجد من تشفى غلتها فيه إلا «تومى المسكين» ، لأنه كان ضعيفا لا يستطيع أن يتقى ضربها . ولم تكن لها صديقات ، كما كانت تغلظ فى معاملة كل من يحاول أن يتعرف إليها حتى رئيسة دار الحضانة ، ولو أنها لم تكن تلقى منها من سوء المعاملة كما كان يلقى غيرها . وهكذا كانت من بين «الآباء المشكلين» وأشرس من عرفت دار الحضانة .

كانت إذا وفقت فى أعمالها يوما عاملت ولدها حين تقدم على دار الحضانة لتأخذه فى رفق وإشفاق ، أما إن كان حدث فى أثناء النهار ما يسوؤها تأكد «تومى» من أنها لا بد ستصفعه قبل أن تبلغ به الباب .

وترتب على هذا أن أصبح «تومى» طفلا محطما عصبى المزاج كثير المخاوف والعقد يصعب قياده إلى درجة بعيدة حتى على الذين أعدوا أنفسهم لمثل هذا العمل . ودعت رئيسة دار الحضانة كل من يعمل بالدار وجميع الأمهات إلى إجتماع خاص وأخذن يتشاورون فى أمر «تومى» واعتزمن على أن يتعاون جميعا على إصلاح حاله . وكان عليهن أن يخلقن جواً من الصداقة بينهن وبين أم «تومى» وأن يغيرن من نظرتها إلى الحياة — ولم يكن هذا باليسير فقد كانت أعزف الناس عن الإختلاط بالناس .

وكان هذا العمل شاقا ولكنه جدير بأن تبذل من أجله الجهود وارتابت الأم أول الأمر فى تقرب الجميع إليها . وكان هذا أمراً متوقعا، ولكنهم ما زالوا بها حتى بدأت تأنس إليهم شيئا فشيئا وأظهرت ما لديها من خلال حميدة . ولما أكمل إبنها الثالثة من عمره أفلحوا فى اقناعها بأن تشهد حفل عيد ميلاده . ولما بلغ الرابعة أنتخبت عضواً فى مجلس ادارة نادى الأمهات . أما فى المصنع فقد زادوا فى خلال هاتين السنتين من مسئولياتها . وكان لهذا أثره فى أن صارت الأم لا تنظر للحياة من خلال هذا المنظار الأسود ، وأصبحت — بعد أن زادت سعادتها — تهيء لابنها أوقاتا أكثر من السعادة ، وبديهى أنها لم تعد تعذبه ، بل إنها فى غضون سنته الأخيرة فى دار الحضانة كانت تنصح بالفعل لمن هن أقل منها استثارة من الامهات بألا يضربن أطفالهن . وبلغت الذروة حين أرسلت الى رئيسة دار الحضانة ذات صباح رسالة تستنكر فيها توقيع العقوبات البدنية ، وتخطرها بأنها ستبعث بابنها «تومى» الى مدرسة تعلم هى بالتأكيد أنه لن يستهدف فيها للعقوبات البدنية أو لمثل ذلك من

سوء المعاملة . ولم تكد رئيسة الدار تصدق ما قرأت ، لانها لم تكن قد نسيت بعد ما بذل فى ذلك من جهود مضنية .

وبدا هذا عجيبا لا يسهل تصديقه فانها أدركت وهى تتسلم الخطاب باهتمام أنه ينبغى لها أن تظل على عهدها تحارب ما يلجأ اليه بعض الناس كثيراً وبغير تدبر من اتخاذ العنف وسيلة لدفع الاطفال الى الصالح من السلوك .

قدمنا فى هذا الفصل مثلا أو مثلين لم نتعمد اختيارهما لبيان ما لدور الحضانة من نفع للأمهات والاطفال . وان كل من يعمل فى دور الحضانة التى تقوم على التعاون الصادق مع الآباء سوف لا يعير أدنى التفات للمناقشات النظرية التى يريد بعض الناس أن ينالوا بها من قدر دور الحضانة فهى ضرورية للآباء والاطفال على السواء .

الفصل الثامن

على أبواب المجتمع

لم نكن على حق حين خيل إلينا أننا نستطيع أن نخصص فصلين مستقلين لبيان أثر دور الحضانة على الآباء من جهة وأثرها على الأبناء من جهة أخرى . فقد ثبت لنا أنه لا يمكن فصل هذا عن ذاك .

أما فى الحالات التالية فلعلنا سنهتم بالحياة فى دار الحضانة وبيان الصلة بينها وبين المنزل ، على حين أننا عنينا فى الفصل السابق ببيان الحياة فى المنزل وكيف يمكن أن تتغير باتصال الآباء بدار الحضانة . فالتفرقة إذن لا تقوم على أساس، ولعل كل مالها من فائدة أنها تزيدنا يقينا بأن المنزل ودور الحضانة ينبغى أن يكمل أحدهما الآخر ، وأن يعمل الإثنان فى إنسجام من أجل الهدف المشترك . وهما بهذا التآزر والعمل المشترك يبنيان شخصية الطفل على دعائم متينة ، ويمكنانه من أن يواجه الحياة المدرسية بآفاقها الأرحب وهو مزود « بعقل سليم فى جسم سليم »

اصبع « بنى » المتورم (عمرها أربع سنوات)

كان أصبع « بنى » شديد التورم قد امتلأ بالصديد والميكروبات . وحاولت أمها — التى كانت تفرق لأنفه ألم — مرات قلائل أن تضع على أصبع إبنتها (لبخة) ، ولكنها كانت سرعان ما تتنحى عن هذا

العمل عندما تصرخ ابنتها لمرأى هذه الضمادة التى يتصاعد منها البخار .
وكانت « بنى » منذ قليل بدار حضانة الحى الذى تسكنه . ولهذا فقد أخبرتها أمها ــ وكانت تريد أن تطرح المشكلة جانباً ــ بأنها ستطلب إلى رئيسة دار الحضانة أن تعنى بأصبعها فى الصباح .

فلما كان الصباح جعلت « بنى » تصرخ وتقاوم وترفض المرة الأولى أن تذهب إلى دار الحضانه ولاشىء يشغل بالها سوى أصبعها المتورم . وإذ ذاك لم تجد أمها وسيلة لتهدئتها إلا بأن تؤكد لها أن رئيسة الدار لن تمس هذا الأصبع ، وبذلك استطاعت أن تحملها على الجلوس فى عربتها دون أن تضطرها إلى التأخير أكثر من ذلك . وعند وصولها إلى الدار طلبت أم « بنى » إلى الرئيسة أن تفعل شيئاً من أجل أصبعها المتورم ، الأمر الذى جعل « بنى » تأخذ فى الصراخ ، ولكن أمها الحنون أكدت لها أن الرئيسة لن تفعل شيئا على غير إرادتها .

ولم تكد أم « بنى » تستنقذ نفسها من قبضة ابنتها المستعرقة فى الصراخ حتى جلست الرئيسة إلى جوارها واخذت تواسيها وتبدى لها مظاهر العطف والإشفاق على أن كان لها هذا الأصبع المتورم الذى لابد من علاجه ليتحسن .

وجعلت تتحدث فى أناة وبصوت يهدىء من روعها عن أنه كان لها هى الأخرى أصبع متورم وأنه كان كثيراً ما يؤلمها .

وأخذ روع بنى يسكن شيئاً فشيئاً ، وجعلت تستمع لما كان يحدثها به هذا الصوت . أكد لها ذلك الصوت أن رئيسة الدار قد كان لها أصبع

متورم ، وفكرت أن علها أن ترغب فى التخلص من هذا الألم . وأحست أنها قد وجدت رفيقة لهـا فى الألم ، فأخذت تزداد ثقة واطمئنانا . وزادت الرئيسة من إغرائها واستمالتها للطفلة حتى لم تعد تستطيع أن ترفضهما . وإذا بالطفلة تمد قدمها المريضة فى حجر الرئيسة وتبتسم لها . ثم تحتمل ما تقوم به الرئيسة من تمريض دون أن تصرخ ، بل إنها قامت بقطع الضمادة بنفسها وثبتتها بالدبوس فى النهاية . فلما فرغت من ذلك مضت تحجل فى شعور بالانتصار إلى حجرة الرئيسة تبحث عن المكافأة وكانت قطعة من الحلوى يثاب بها الشجعان من الأطفال .

ولما قدمت أمها لتعود بها إلى المنزل راعها أن تجدها أكثر إبتهاجا ، تمسك بيدها لفة من الورق الأزرق قد ربطت برباط من الصـــوف وأوضحت « بنى » لأمها فى جزل أن الرئيسة قد حزمت لها كل ما يلزم لعلاج أصبعها بما فى ذلك قطعة من الحلوى وانها ستبين لها كيف تقوم بالعلاج قبل أن تذهب إلى الفراش . وأحست « بنى » بأنها قد أصبحت ذات شأن وخطر كما لمحت فى عيون بعض الأطفال الآخرين حسدا وغيرة ظاهرين . وعمدت « بنى » إلى معطفها ترتديه ، على حين انتحت الرئيسة بأمها جانبا تشرح لها أن علها أن تقوم بدورها بعد أن صارت « بنى » متعاونة لا ترفض العلاج . فوعدت الأم أن تبذل أقصى ما تستطيع وأجلست طفلتها فى العربة ومضيا إلى المنزل وهما أسعد ما يكونان حالا .

وكان عسيرا على رئيسة دار الحضانة أن تتبين فى صباح اليوم التالى أيتهما ـــ الطفلة أو الأم ـــ كانت أكثر زهوا بالعملية الناجحة

التى أجريت فى المنزل ، فقد أخذت كلتاهما تتحدث عنها فى جذل بمجرد ان لقيتا الرئيسة .

الليبن المراق (ثلاث سنوات ونصف)

(١) كان فيليب يأكل ثريده وكان ولدا صغيرا عاقلا يحسن استعمال معلقته وكوبه . وكانت أمه تشغل على الدوام وقت تناول الافطار فى إعداد الأطفال الكبار للذهاب إلى المدرسة ، ولذا لم يكن « فيليب » يحظى بكثير من الإهتمام . وكانت قد نسيت فى هذا الصباح أن تضع السكر فى الثريد وأمكن « فيليب » أن يرى إناء السكر على الجانب الآخر من المنضدة واعتزم أن يتناوله بنفسه ، لكنه لم يستطع أن يصل إليه ، فوقف على كرسيه وجعل يمد يده إلى أقصى ما يستطيع دون أن يفلح فى الوصول إلى الاناء . وركع على المنضدة والتقط إناء السكر، وعاد إلى مجلسه فى حذر وعناية مخافة أن يقع منه ما يجر عليه اللوم والعقـــاب .

وكانت العملية بالغة الدقة فى حاجة الى أن يركز لها « فيليب » كل ما يستطيع من إنتباه . وبلغ من استغراقه فيها أنه لم يلحظ كوب اللبن التى كانت إلى جوار مرفقه إلا بعد أن أراقها . ودخلت أمه الغرفة فى تلك اللحظة فبدأ يبكى وقد توقع أن أمه ستنهال عليه بالعقاب قبل أن تمكنه من أن يشرح لها ما حدث . وصح ما توقع ، إذ إنتزعته أمه من كرسيه فى عنف وصفعته عقابا له على ما أشاع من فوضى . وزادت الصفعة صراخه حدة وارتفاعا فأخرجته أمه من الحجرة حتى تفرغ من

فطورها وتطالع صحيفتها فى هدوء . وظل « فيليب » يصرخ حتى زال عنه الألم ، فتمدد على أرض الصالة وقدر أنه لن يعود إلى حب أمه .

(ب) وبعد بضعة أيام كانت امرأة ذات ذراع واحد تقدم وجبة الفطور فى دار من دور الحضانة التى أقيمت زمن الحرب لثلاثين طفلا تتفاوت أعمارهم بين الثانية والخامسة وكانت تروح وتجى فى الغرفة بخفة وسرعة محاولة أن تبذل لكل طفل ما هو بحاجة اليه من العناية ، وهى تحرص كذلك على أن تجيب عما ينهال عليها من الاسئلة بقدر ما تستطيع . وكان عليها أن تبين لولد صغير كيف يمسك بالملعقة ، وأن تمرق بعد ذلك الى الناحية الأخرى من الغرفة لتمنع بنتا صغيرة من أن تضع ثريدها على رأس جارتها ، فى الوقت الذى يتناهى فيه إلى سمعها أصوات نقاش بين أربعة أطفال كبار حول أيهم يستطيع والده أن يسوق أكبر عربات النقل . وأدركت أنهم سيحتكمون اليها عن قريب لفض هذا النقاش . ولكنها رأت أن من الواجب أن تذهب أولا إلى طفل جديد تزيل عنه وحشته بعد أن بهرته كثرة من حوله من الأطفال .

وكان صاحبنا « فيليب » هو ذلك الطفل الجديد بعد أن رأت أمه أنها لا تستطيع أن تسوسه وأنه من الأفضل لها أن تبرح المنزل لتعمل وتكل لغيرها أمره . وكان يجلس إلى جوار بنت صغيرة لا تفتأ تتململ وتعبث بكوبها الملىء باللبن . وتعلقت عيناه بها فى قلق متزايد فقد كان لايزال يذكر ذلك الحادث القريب الذى وقع له . وصح ما توقعه وأريق اللبن . وسال فى حجر البنت الصغيرة ثم على قدمى « فيليب » ونظر إلى البنت الصغيرة ثم إلى السيدة وأصابه من الذعر أكثر مما أصاب الطفلة .

لـكن السيدة أقبلت إليهما حيث وقعت الحادثة وخاطبت الطفلة فى غير انزعاج قائلة « كده اللبن الحلو توقعيه كله على الأرض . . دا انت غرقتى فيليب المسكين .. بصى كده لهدومك النظيفة الحلوة إنت خلتيها ازاى . . المرة الجاية أنا حسقيه لك على طول بدل ما تقعدى تلعبى بيه . . ديكى الساعة يبقى فى بطنك ولا يندلقش » .

وسلمت الطفلة بأن ذلك سيكون من الأفضل . وغادرت المكان لتحضر خرقة تمسح بها اللبن المراق على الأرض ، كما تعلمت أن تفعل فى الدار . أما فيليب فقد كان مستغرقا فى تتبع كل ما يحدث . وأدار وجهه إلى السيدة بعد أن زايله القلق . ونظر إليها وهو يبتسم فى اطمئنان وثقة كما لو كان يريد أن يقول لها « أصل اللبن يندلق بسهولة . مش كده » وقابلت السيدة ابتسامته بابتسامة أخرى ، واستدار ليتناول فطوره وقد طمأنه أن أدرك أنه بين أصدقاء يحسنون فهمه . وسمعته السيدة يقول « دى ماما بتضربنى لما بدلق حاجة . هى بتضربنى » .

وكانت السيدة قد لاحظت ما بدا على « فيليب » من قلق أثناء الواقعة وماقاله فى النهاية ، فأخذت ترقبه باهتمام لمدة أسبوع أو أسبوعين واستمعت إلى حديثه مع غيره من الأطفال ، وتأكد لديها أن هناك من كان يضربه فى المنزل . ولذلك اعتزمت أن تكاشف أمه مصطنعة الحرص والمهارة فى ذلك قدر ما تستطيع ، فقد كانت تعلم أن الحديث فى هذا الموضوع مع كثير من الأمهات فيه شىء من الحرج . واعترفت أم فيليب أنها كثيراً ما كانت تضربه ، ولكنها قالت ، كما قال كثير غيرها من قبل ، « إننى أضربه على كره منى يا سيدتى

الرئيسة ، ولكننى لا أجد غير ذلك سبيلا لأمنعه من أن يفعل مالا يليق» وعندئذ جعلت رئيسة الدار تشرح لها فى كثير من البساطة أنه ينبغى للكبار أن يفهموا وجهة نظر الطفل . ووقع هذا موقع الغرابة من نفس أم «فيليب» وإن كان قد شاقها ، ولذلك وعدت أن تشهد الاجتماع التالى لنادى الأمهات الذى سيناقش فيه موضوع عقاب الصغار . وبرت بوعدها وحضرت الاجتماع . ثم عادت إلى منزلها بعد انفضاضه وهى تحمل فى نفسها كثيراً من النوايا الطيبة . ولكنها ــ بطبيعة الحال ــ لم تكن تتريث لتفكر فى كل مرة يسىء فيها « فيليب » السلوك فى بادىء الأمر ، وإنما كانت تطيل التفكير فى الموضوع كله وهى تقوم بعملها فى المصنع ، وأخذت تدرك شيئاً فشيئاً أنها فى غير حاجة إلى أن تكثر من إيذاء ولدها ، لأنه لم يعد ــ كما كان فى نظرها ــ ولداً شقياً . وهكذا استطاعت دار الحضانة أن تغير من فيليب ، وتغير من أمه حتى أدرك كل منهما أنه يستطيع أن يعمل على إسعاد صاحبه .

بالتعاون بين الأسرة والمدرسة تبلغ ماتريد

تؤكد هذه القصة الأخيرة من الباب الأول أهمية الدور الذى ينبغى للمنزل أن يقوم به . فإنه لا قدرة لدار الحضانة ــ مهما بلغت من الرقى ــ أن تصنع المعجزات بالأطفال الذين يعيشون فى بيئات منزلية سيئة تؤثر فى شخصياتهم تأثيراً دائما ، والذين لا يرغب آباؤهم أن يخطوا خطوة واحدة فى سبيل التعاون .

كان « اريك » طفلا جميلا ذا « وجه ملائكى » وشعر أشقر متموج

وكان انموذجا كاملا للطفل السليم البدن . وبدا على أمه – حين ذهبت لأول مرة إلى دار الحضانة – أنها لا تريد أن تكثر من الحديث عنه ، ولو أنها ذكرت فى ابتهاج وعلى مسمع منه أنه عفريت صغير ، وأن دار الحضانة « أولى به » . ونظرت مربيات الدار إلى هذا الوجه الجميل وذلك الشعر المتموج ، فلم يكدن يصدقن ما تقول الأم .

لكنهن سرعان ما أدركن خطأهن ، فإن « اريك » أصبح بعد أسبوع مثار الفزع فى الدار ، لم يعجبه شىء فيها . إذا لعب مع من فى سنه من الأطفال استطاع – لتفوقه عليهم فى قوة البدن – أن يستبد ويتعسف معهم وأن يجعل من نفسه ديكتاتوراً صغيراً بينهم ، فلم يكد يسلم طفل من شجاره واعتدائه – أرسل به بعد ذلك – مزوداً بما يناسب عمره العقلى من عمل – ليشترك مع أطفال يكبرونه ، ليكون بين من يضارعونه فى القوة البدنيـــة . وطلب إلى كبار الأطفال أن يشركوه معهم فى نشاطهم ، غير أنه لم يكد ينصرف إلا إلى التخريب ، وسرعان ما عرف بينهم بأنه « المخرب » ، وكانت تلاحقه أينما حل هذه الصيحات ، « ايه ده يا اريك . . أنت كسرت لعبتى » أو بعدوا الولد اريك من هنا ، لحسن عمال يخسر لعبنا » .

وكان اريك إذا ما احتجز فى مكان على أى نحو من الأنحاء ، يلقى بنفسه على الأرض ، يرفس ويصرخ ، ولا يزال كذلك حتى يضطر المربيات إلى أن يخرجن به من الغرفة ليتولى أحد الكبار تهدئته . ولم تترك الدار وسيلة من الوسائل التى يمكن أن يعالج بها طفل غير اجتماعى فى الثالثة من عمره إلا وحاولتها .

وجعلت المدرسة تحاول المرة بعد المرة أن تتعرف الطريقة التى كان يعامل بها اريك فى المنزل ، لـكنها لم تجد فى إجابات الأم ما يعينها على ذلك . وبدا واضحاً أنها تتعمد إخفاء شىء فقد كانت إجابتها دائماً نوعا من التهرب والمراوغة .

وبعد أن انقضى ما يقرب من عام فى جهاد شاق مع اريك زل لسان الأم فذكرت أنها لا تدرى كيف يمكن لولدها أن تتحسن حاله وهو شديد الشبه بأبيه . وأمسكت المدرسة بهذا الخيط واصطنعت الحذق والمهارة فى الحديث مع الأم حتى وقفت سريعا على القصة الكاملة لزوجين يقضيان أكثر وقتهما فى الشجار . وبدا لها أن كلهما شرس الطبع حاد المزاج وأن اريك المسكين كان إذا قالت له أمه « إنك ولد شقى » وجد أبوه السرور فى أن يقول له « إنك ولد شاطر » ، وإن أرشدته أمه إلى الصواب من السلوك ضحك أبوه وشجعه على الثورة والتمرد . وبدا كذلك أن كلا من أبويه كان كثيراً ما يعنفه ويلومه لأسباب مختلفة أشد الإختلاف . وهكذا عاش اريك فى حالة دائمة من الحيرة والعدوان وهو لا يملك أن يتبين لنفسه ما هو خطأ وما هو صواب . وبذلك لم يعد من العسير على مربيات الدار أن يتبين لماذا كان اريك أشق من بالدار من الأطفال .

وتحدثت المدرسة إلى الأم فى جد وحزم وبينت لها كيف أن هذا الجو العاصف بالمنزل هو الذى أطاح بشخصية ابنها . وأمنت الأم على كلام المدرسة ، ولـكنها فقدت الأمل فى أن يتغير شىء فى جو المنزل . ولم تفكر الأم فى أن تفارق زوجها ، كما بدا عليها الاقتناع بأنهما

سيقضيان حياتهما فى هذا الشجار . وكان حلها الوحيد للمشكلة أن على إريك أن يعتاد ذلك .

وهكذا بات التعاون بين المنزل ودار الحضانة أمراً مستحيلا فى هذه الظروف مما اضطر دار الحضانة إلى أن تقوم بفصل اريك من الدار فقد كان هناك أطفال كثيرون ينتظرون أن يسمح لهم بدخول الدار فى الوقت الذى لم يكن فيه اريك يفيد شيئا لنفسه ولا يترك الفرصة لغيره من الأطفال أن يفيدوا شيئا . وعلى الرغم من أن مربيات الدار لم يكن من السهل على نفوسهن أن يسلمن بالعجز والفشل فإنه لم يكن مناص من أن يلجأن إلى هذا الإجراء ولم يأت المساء إلا وقد عادت الدار إلى مألوف هدوئها .

لكن الحالة السابقة لحسن الحظ لم تحدث إلا نادراً . وهى تبين كيف أن الظروف المنزلية غير المستقرة قد تكون المسئولة عما يصل إليه الطفل من سلوك سيء غير اجتماعى . ومع ذلك فإن الأغلبية الساحقة من الآباء لا يحجمون ، إذا هم وجدوا من التشجيع أيسره ، عن التعاون مع القائمين على دار الحضانة ومع زملائهم من الآباء فى أن يزيدوا من رفاهية أطفالهم . ويالها من فائدة عظمى تعود على الجميع حين يتم التعاون الوثيق بين المنزل ودار الحضانة من أجل الأطفال وحين ينشأ ناد للآباء يكون حلقة اتصال بينهما ويتمكن فيه الآباء المنعزلون من التخلص من متاعبهم بأن تطرح هذه المشكلات فى مناقشات عامة يسهم فيها جميع الآباء بما لهم من خبرات فى جو من الود والوفاق .

ولقد ضمنا فى مختتم الباب الثانى تلخيصا موجزا لبعض الارشادات من شأنها أن تعين الأطفال على أن يصبحوا رجالا متزنين سعداء . وهذه الإرشادات ينبغى اتباعها خلال مرحلة الطفولة كلها لأنها تمثل نوعا من الإتجاهات الصحيحة التى ينبغى اصطناعها ولا تمثل قواعد صارمة لا يحسن الإنحراف عنها . ولذلك فإننا لن نختتم هذا الباب بذكر الإرشادات التى ننصح بها وإنما سنمضى إلى دراسة مشكلات الفترة التى يختلف فيها الأطفال إلى المدرسة والدور الذى يلعبه فيها الآباء .

الباب الثانى

نحو آفاق أوسع

الفصل التاسع

الأطفال فى بيوتهم

سيتناول هذا القسم من الكتاب الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثانية عشرة . وهى فترة زمنية ليس لها ما تتميز به عن سائر المراحل فى حياة الطفل ، ولكن الذى دفعنا إلى أن نجعل منها مرحلة متميزة هو أن النظام التعليمى — كما هو قائم الآن — يجعلها كذلك . وهى مرحلة من حياة الطفل فيها امتداد لما قبلها وتباشير لما يليها . وأن كثيراً من الإرشادات التى سنقدمها فى هذا الباب تصلح للتطبيق فى غير ذلك من مراحل العمر .

ولنجمل القول مؤقتا . الطفل عبارة عن حشد من الإرادة والنشاط ، يناضل من مرحلة من التكيف إلى أخرى فى سبيل أن يبلغ الرشد . وإن له حاجات محددة — الحاجة إلى الطعام — الحاجة إلى النوم — الحاجة إلى النشاط البدنى — الحاجة إلى اللعب ، الحب ، المخاطرة —

التقدير وما إلى ذلك . وهو بفطرته مخلوق اجتماعى فى حاجة إلى أن تقره الجماعة على ما يفعل وإلى أن تظاهره . وهو — فى ذاته — ليس بالخير ولا بالشر ، ولكنه ينبوع من الحيوية والنشاط تستطيع أن تجعل منه خيراً أو شريراً ، ولو أنه أميل إلى جانب الخير .

والأمر فى ذلك بيد من هم أشدالتصاقا به فى الحياة من الكبار ، هذا وينبغى لنا أن نؤكد أن للطفل شخصيته وأنه يصر على أن تتاح له فرص التعبير عن نفسه كشخصية مستقلة ، وأنت إذا اتحت له الفرصة لذلك وأعنته على أن يزدهر وجدته ينمو فى حماس وسعادة ليستقبل الشمس والهواء ، أما إذا ذهبت تثقل كاهله بالقمع والإحباط وأغفلت إشباع حاجاته ، وجعلت تحد من نموه المتزايد كنت سببا فى أن يتشوه خلقه ويستخفى فى الظلام .

هذه السنوات (من الخامسة حتى الثانية عشرة) إما أن تكون سنوات من المرح والسعادة للأطفال والآباء والمدرسين على السواء ، وإما أن تكون سنوات من النضال المنجهم بين الأطفال وهؤلاء الذين لا يحسنون فهمهم . أما الأطفال السعداء فليس لدينا ما نقوله لآبائهم إلا القليل — وإن كثيراً من البيوت ليسودها التفاهم والسعادة والنمو الصحى وهى تجعل من تنشئة الأطفال عملا ممتعا كما ينبغى أن يكون وأما غير أولئك من الأطفال فلعلنا نستطيع أن نقدم لهم يد المعونة وسنحاول تحقيق ذلك بعرض بعض ما أكتسبنا من خبرات ، فان أفضل الوسائل لدراسة الطفولة أن ترد منهل الحياة ذاتها ، أضف إلى ذلك أن المجال لا يسمح بالدخول فى الأساس النظرى لكل هذا . وقد تخيرنا الحالات

التى أوردناها لا على أساس كثرة وقوعها . وإنما انتقينا منها الحالات التى تسفر عن سوء فهم الآباء للأبناء وإنا لنأمل أن توضح هذه الحالات بعض ما يحار فيه الآباء من مشكلات وأن تعين الكبار على فهم عالم الأطفال فما أسهل ما ينسى الكبار عالم الأطفال .

« روى » ذلك الحقود الصغير

كان « روى » وحيد أبويه اللذين اتبعا فى تنشئته نظاما دقيقاً التزما فيه دقة المواعيد والحرص على إمداده بالغذاء المستكمل لكل الفيتامينات اللازمة . وكان لديه الكثير من اللعب وكثيراً ما قال أبوه لأصدقائه « إننا لا ندخر وسعا فى سبيل إسعاد الطفل »

وكان للأسرة قطيطة يحبها الجميع حباً جما ، ويكثرون من تدليلها وملاطفتها ، بل إن الأسرة لم تكن تتحدث إلى ضيفاتها بشىء بعد التحدث عن « روى » إلا عما تقوم به القطيطة من أعمال كانت مثار الإعجاب .

وكان والد « روى » حريصا — بدافع الحنان الأبوى — على ألا ينشأ إبنه مدللا — ولكن « روى » للأسف — بلغ الثامنة وهو لايزال يكثر من مص إبهامه . كما كان يعمد إلى الارتماء فى أحضان أمه بين الحين والآخر ، وقد كان كل من هذين المسلكين سبباً فى أن يعبس الرجل فى وجه ولده ، لأنه كان يرى أن مسلكه هذا لايليق إلا بالأطفال الصغار .

وذات يوم أقبل إلى الدار بعض الضيفان من الكبار ليتناولوا الشاى . وكان سلوك « روى » فى بادىء الأمر سليما لاغبار عليه ، وهم الضيوف بالإنصراف بعد تناول الشاى بقليل ، وبينما كانوا وقوفا فى الصالة يحيون والد « روى » تحية الوداع إذا بالقطة التى كانت فى حجرة الجلوس مع روى تصرخ صرخة حادة مفاجئة . وأسرع الوالد لينظر من شق الباب ليجد « روى » يرفع عن قصد قدمه من على ذيل القطيطة ، ورأى كذلك علامات الاعتداء على وجهه .

وانهالت على الولد صنوف الاتهامات والتوبيخ ، كما أخذ الضيوف يتهامسون ، وأشاع ذلك فى الأسرة جوا من الشقاء والتعاسة ولكن مرور الأيام أنساها الحادثة . وكان ذلك فى سبتمبر .

وأقبل العيد « الكريسماس » وأهدى الوالد لولده مبراة رأى أنها ستجعله يشعر بأنه أصبح فى عداد الرجال . وكان الوالد قد ظل عدة أسابيع قبل إهدائه المبراة ينتقد كل ما يبديه « روى » من تصرفات طفلية محذراً إياه بقوله « إحنا مانقدرش ندى مطوة لولد صغير » إنت عارف طبعا . إنت لازم تبقى راجل علشان نجيلك المطوة ولكن حدثا شنيعا وقع بعد ذلك . فقد طعن « روى » القطيطة بنصل المبراة الصغير ، وعلى الرغم من أنها لم تكن أكثر من مجرد وخزة حادة . فان القطة لاذت بالفرار عبر النافذة . ولم تعد إلى الدار إلا بعد عدة ساعات ، ورأت « الخادم » ماحدث وأبلغت ذلك للوالدين ، وأنكر « روى » التهمة . لكنهما مع ذلك سحبا منه مبراته وحرم « روى » من عشاءه وتعرض للضرب والعقاب . ورفضت أمه أن تقبله قبلة المساء . وعجب

الوالدان لماحدث وأدهشهما أن ينجبا مثل هذا المارد الصغير .

من بين ما نستطيع أن نستخلص من هذه الحالة .

١ ــ الأطفال الصغار فى حاجة إلى من يظهر لهم الحب من حين لآخر ومن الواجب ألا نجعلهم يشعرون بالخجل والخزى إذا هم أظهروا حاجتهم إلى ذلك .

٢ ــ ينبغى ألا نتعجل نمو الأطفال ، فان ذلك يجعلهم يشعرون بأننا نثقل عليهم .

٣ ــ ينبغى ألا نحاول أيضاً أن نصبهم فى القالب الذى نريد ، وإنما علينا أن نرقبهم أثناء نموهم وأن نعينهم على أن يكونوا شخصيتهم هم .

قد لا يرى بعض الناس فى الحالة السابقة أكثر من « حالة بسيطة من حالات الغيرة » لكننا لا نوافق على ذلك ، فقد دلتنا خبرتنا على أن غيرة الأطفال لا تكون بسيطة بحال . إنها ليست نوعا من الاستجابة المباشرة للموقف ، وإنما هى ناشئة عن عجز الآباء عن أن يشعروا أطفالهم بأن لهم من القدرة على التفكير والتصرف ما لبقية أفراد الأسرة . لقد جعلوا « روى » يستشعر الخجل والخزى من إظهار محبته لأمه ، وآذاه أن ينقد أبوه مسلكه ، ويصفه بأنه لا يسلك مسلك الرجال . على حين أن القطيطة كانت تحظى بالحب أينما حلت دون أن يحول بينها وبين ذلك حائل . فلا عجب إذن أن يختلط الأمر على « روى » وأن يشعر بالضغط الواقع عليه حين توقعوا منه ما لم يكن قد استعد له من « رجولة » . ولا عجب كذلك إن كان قد انفجر استياؤه فى شكل اعتداء

على القطيطة التى كانت ـــ فى نظره ـــ رمزاً لما لقيه من إنكار لتصرفاته .
إن الأطفال الذين يستشعرون الطمأنينة فى مركزهم فى الأسرة لا ينتابهم
شعور الغيرة أبداً .

لا تتسبب لطفلك فى الشعور بالخزى

كانت «جين» فى العاشرة من عمرها ، تتوسط أخاً وأختاً لها وكانت
قوية شديدة إلى درجة الاعتداء ، كثيراً ما تتشاجر مع أختها الكبرى ،
على حين كانت تظهر العطف والحنان لأخيها الصغير ، كذلك كانت «جين»
تحب الألوان الزاهية ، وكثيراً ما أحنق أمها عليها أن كانت تتمنى دائماً
أن تستحيل ألوان الملابس التى كانت تخلعها عليها أختها الكبرى إلى ألوان
غير ألوانها . «أنا كان نفسى يبقى أحمر» وأحياناً تقول «دا أنا ما بحبش
اللون ده» والحق أنها كانت حمقاء فى هذا ، فإنها كانت تتمنى أن لو كان
الفستان الأخضر أزرق ، والأزرق أخضر . مما جعل أمها تنعتها بأنها
بنت صغيرة حمقاء . أما فى المدرسة فقد كانت «جين» زعيمة عصابة
من الصغار كانت المدرسات والآباء يسمونها «رفاق السوء» واعتادت
أن تلعب معهم بعد الخروج من المدرسة ، وأن تصل إلى المنزل متأخرة
متسخة فى أغلب الأحيان .

وذات يوم أعطتها أمها نقوداً لتبتاع بها خبزاً عند عودتها من
المدرسة إلى المنزل . وكانت أختها الكبرى هى التى تقوم على شراء
حاجيات المنزل ، ولكنها فى ذلك اليوم كانت ستخرج من المدرسة
لتذهب مباشرة إلى السينما مع صديقات لها . وكانت الأم فى حاجة إلى

الخبز حين تناول الشاى . ولكن حل وقت تناول الشاى دون أن تعود « جين » وأخيراً عادت « جين » وقد تأخرت زهاء الساعة دون أن يكون معها خبز . وأخبرت أمها أن النقود قد ضاعت وهى فى طريقها إلى المدرسة .

واستبدت بالأم سورة عاتية من الغضب . وذهبت فى اليوم التالى إلى المدرسة وحاولت أن تصلح من شأن « جين » بأن تقص على مسمع من مدرستها ما ارتكبته من سوء التصرف عساها تشعر بالخزى والخجل وقالت لمدرستها الحسيرى إنها تستطيع أن تأخذها بالحزم ما شاءت ولكن « جين » على الرغم من ذلك ازدادت سوءاً ولم تتحسن .

ثم إضطرت الحرب الناس إلى الهجرة من لندن إلى الريف ، ووجدت «جين» نفسها فى إحدى القرى بين عشرين ولداً وبنتا . وقد أقامت فى دار مع طفلتين يصغرانها سناً . وسرعان ما أكبرت السيدة صاحبة الدار بدافع من حنان الأمومة — ما أظهرته «جين» من خفة ونشاط وأخبرتها أنها سوف تعتمد عليها فى كثير من الأمور . وتم «لجين» أثناء الحرب الحصول على أول ثياب تشترى خصيصاً لها دون أن تخلعها عليها أختها ، ووصلت التقارير إلى أمها تنبئها بتحسن سلوكها فاستشعرت الرضا والسعادة ، وجعلت ترسل لها خطابات تفيض بالمحبة والإعزاز . ثم عادت «جين» إلى لندن فى سنة ١٩٤٤ وقد تغير حالها تماما ، ولكن هب أن الحرب لم تقع . .

ومغزى هـــذا :

١ — علينا أن ندرك المركز الحرج الذى يكون فيه الطفل الثانى

الذى كثيراً ما يشعر أنه مهضوم الحق بالنسبة لأخيه الأكبر أو أخته الكبرى . علينا أن نشعره بقيمته وأهميته بأن نكثر من الانتباه إليه والاهتمام به . وأن نظهر ثقتنا به بأن نكل إليه من المسئوليات الدائمة ما يتناسب وقدراته . وعلينا أن نجعله مسئولا على الدوام عن هـــذه الأعمال ، لا أن نكل بها إليه من حين إلى آخر كلما نزل عنها الأخ الأكبر

٢ ــ ينبغى لنا ــ إن كان الطفل يحب بعض الألوان أن نحقق له ما يرغب فيه منها ، وأن نهون على نفسه من وقع ما يخلعه عليه أخوه الأكبر أو أخته الكبرى من ملابس ، بأن نصبغها و نصلح منها حتى تناسبه ، على أن يكون ذلك بعد أن نناقش الطفل الذى سيلبسها ــ إن الأطفال يقدرون الرغبة فى الاقتصاد عند أبويهم ، ولكنهم لا يسهل عليهم أن يرغموا على إرتداء ملابس يخلعها عليهم إخوتهم الكبار بطريقة تشعرهم بأنهم فى المرتبة الثانية من الأهمية .

٣ ــ ينبغى ألا تحاول مطلقاً أن تلوم طفلا بأن تتحدث إلى شخص آخر عن مبلغ شقاوته . إنك بذلك تكون سبباً فى أن يزداد الطفل شقاوة . عليك أن تمتدح دائماً ما يظهره الطفل من سلوك حميد ــ حتى يظل الطفل يقوم به ــ لا أن تتعقب العثرات وتديم تأنيبه عليها .

جونى لا يطيق تركيز انتباهه

الأب ماهر فى الحساب ، والأم كانت تشتغل بالتدريس قبل أن تتزوج ، ومع هذا فإن « جونى لا يقوى على تركيز إنتباهه بدرجة كافية » بهذا وردت التقارير تلو التقارير . وقد أدام الوالدان نصحه قائلين

«ما تركز إنتباهك ياجونى» كلما دفعاه إلى شيء من القراءة أو اللعب أو حل الألغاز . حاولا جاهدين أن يدرباه على تركيز الانتباه . والحق لقد كانا من أشد الآباء عناية بأولادهم .

لكنه ليس من العسير عليك أن تدرب ولدا فى التاسعة على تركيز الانتباه بعد أن تكون قد علمته ألا يركز انتباهه من قبل .

فلنرجع قليلا إلى الوراء — كان « جونى » فى الثالثة ، وكان اليوم عيد ميلاده . وقد أهدى إليه كثير من اللعب ، من بينها كرة قدم صغيرة . وقد عكف على لعبه هذه منذ الصباح . حتى كان الأصيل وهو يلعب فى زاوية من الحديقة ، يصنع فطائر من الطين بأصيص مكسور من أصص الزهور ، على حين كانت أمه وخالته ترقبانه وهما جالستان على مقعد فى الحديقة .

كان « جونى » مستغرقا أشد الاستغراق فى صنع فطيرة تلو فطيرة ثم يعود فيتلف ما صنع ، وثيابه تزداد اتساخا على اتساخ .

« جونى »

(لايسمع «جونى» شيئا ، ويقلب الفطيرة التى صنعها على الأرض)

« جونى ... جونى ... تعال هنا ،.. »

(يهوى « جونى » بقطعة من الخشب على رأس الفطيرة ويحسبه الرائى أنه ولد شقى يعمد إلى تجاهل أمه) .

جونى ... جونى ... جونى ...

(تمضى أمه وتنتزعه من بين الفطائر) .

« انت وسخت نفسك يا حبيبى ، تعالى والعب بالكورة بتاعتك »

« لأ ... »

« لكن يا جونى داهيه كورة حلوة » .

« لأ ... »

(ثم تتدخل الخالة قائلة : «طب بص يا «جونى» ، أنا حاحدفها لك وأنت تضربها برجلك ترجعها تانى » .

(ينصاع « جونى » مرة أو مرتين ، ثم يخطىء عن قصد فى تصويبها لانه كان يفكر فى الفطائر . وتمضى الكرة حتى تختفى بين الكرنب) .

« ماما » (وقد ذهبت خالته لتعود بالكرة) .

« نعم يا حبيبى » .

« أنا عايز شوية ميه علشان أعمل فطير » .

« بلاش يا بنى ، وانت وسخت هدومك أهوه ، اللعب بالكورة مع خالتك » .

« أنا مش عاوز » .

« هو حد لاقى كل اللعب الحلوة دى ، إنت لازم تلعب بيهم » .

(وتمتم « جونى » بكلمات غير مفهومة . وكانت خالتــه قد عادت بالكرة ، فرمتها إليه . ولكنه يهملها فتمضى إلى الحديقة ثانية ، يتبعها

« جونى » ولـكنه ينصرف عنها ، ويقبض قبضتين من التراب يلقى بهما فى الهواء) .

« جونى » ما تبقاش شقى » — (يعود جونى إلى فعله) .

« جونى » بطل الحكاية دى باقولك .. » وأسرعت الأم إلى ولدها الشكس .

وإنك لتعلم بقية القصة .

كيف تجرؤون أيها الكبار فتتهمون الصغار بعدم القدرة على التركيز فى حين أنه يلذ لكم أن تفسدوا عليهم ما يظهرونه فى السنوات الأولى من قدرة على الانهماك والاستغراق . لن يتدرب الطفل على تركيز انتباهه فيما يضطر إلى أدائه من أعمال حتى يكون قد تعلم التركيز على أشياء يشتهى أداءها . لاتحاولوا أن تقطعوا على الأطفال انهماكهم إلا إذا اضطررتم إلى ذلك اضطراراً . إن كان اللعب بالتراب والرمل والماء يضايقكم ، لأن ذلك سيكون سبباً فى اتساخ الطفل ، فما عليكم إلا أن تلبسوا الطفل ثيابا رثة ثم تألفون بعد ذلك عدم التضجر والقلق . إن الطفل لايعنيه فى قليل أو كثير أن تكون ثيابه نظيفة أو متسخة طالما كان أمامه من الأعمال مايهتم به ويلذله ، وإنما الذى يعنيه أن يسمح له باللعب بالأشياء البسيطة . إن شيئا لايشوقه ويلذ له أكثر من ذلك . وأن علينا أن نتعلم كيف نساعدهم فى بلوغ ذلك .

طفلة تكذب على المعلمة

مضى التقرير الذى أرسلته المدرسة الأولى فى المدرسة التى تتعلم بها «مولى» يقول «.. أرى من الواجب أن تعلموا أننى لم أعد أثق بما تقوله «مولى» ، فقد تعمدت أن تكذب على عدة مرات فى هذه الفترة الدراسية ، ولهذا فإننى أرى من الواجب أن تتحدثوا اليها فى ذلك » .

وتحدث الأبوان إلى «مولى» فى ذلك فعلا . قصا عليها قصصا مفزعة عما حدث للذين يكذبون . وأخبراها أنها تجلب العار بذلك على الأسرة ، وأنهم فى خزى بسببها . وطلبا إلى المدرسة الأولى — فى استياء وحنق — أن تكتب لهما إن عادت الطفلة إلى الكذب . فقد كان هذا فوق مايطيقون .

ثم انقضى مايقرب من شهر حين وصلت «مولى» إلى المدرسة ومعها خطاب يقول . . إن أمها مضطرة إلى مغادرة المنزل لتساعد إحدى قريباتها المريضات ، ويطلب إلى المدرسة أن تسمح لـ «مولى» بالتغيب عنها ثلاثة أيام لتقوم فى أثنائها ببعض المهام المنزلية . لكن المدرسة الأولى — وقد اعتادت أن تشك فى «مولى» من قبل — رأت أن تمضى لتتأكد من أن «مولى» لم تكن تريد التغيب بدون مبرر ، لاسيما وأن الخطاب لم تقدمه «مولى» بنفسها ، وإنما عهدت بذلك إلى إحدى الصديقات . وحينما وصلت إلى المنزل وجدت «مولى» منهمكة فى بعض الشئون المنزلية ، وأن أمها كانت تعمل بجد فى انهاء بعض أشغال الابرة . إذن لقد كانت القريبة المريضة قصة مختلقه . وكل ماهنالك أن الأم كانت فى حاجة إلى معونة «مولى» ثلاثة أيام .

وطلبت المدرسة الأولى إلى أم «مولى» أن تصرفها لقضاء حاجة حتى تتاح لها أن يخلوا إلى بعضهما . ثم اتهمت الأم بأنها كانت قد ارتكبت نفس الأمر من قبل . واعترفت الأم بأنهـا قد فعلت . وإذ ذاك قالت المدرسة .. « وكيف تتوقعين إذن ياسز « بلانك » أن تتحرى «مولى» الصـــدق على حين أنها تعلم أنك تعمدين إلى الكذب لتحقق بعض الأغراض ؟ .

لـكن شيئا من ذلك لم يكن قد دار بخلد أم «مولى» .

نخلص من هذه الحالة إلى أنه من الواجب عليك ــ إن كنت تريد أن يتخذ طفلك لنفســه قيما ومعايير صحيحة ــ أن تصطنع لنفسك معايير بسيطة واضحة فى معاملتك للناس . فإن الطفل لايستطيع أن يميز مابين مايسميه الآباء بـ «الأكاذيب البيضاء» وبين غير ذلك من أنواع الـكذب من فروق دقيقة . إن الأطفال يرون الأشياء بنوع من الأمانة الصريحة المباشرة بدرجة أكبر ممـا يفعل الـكبار . وعلى هذا يكون من الواضح فى هـذه الحالة أن الأم قد أخطأت ، لـكن هناك حالات أقل وضوحا يتسبب الآباء فيها فى أن يختلط الأمر على الأطفال حين يجدون آباءهم قد سلـكوا فى موقف معين سلوكا معينا وسلوكا آخر فى موقف آخر .

لاتحسبن أن للطفل من القدرة الناضجة على الحكم ووزن قيم الأمور مالغيره من الـكبار . صحيح أنه ليس من السهل علينا أن ننظر إلى الحياة بعين الطفل ، لـكن علينا أن نحاول .

ما أجبن تومى

كان «تومى» غلاما حسن السلوك . ولم يكن يأخذ عليه أبواه سوى أنه لم يكن يمضى لما يريد فى شجاعة كغيره من الأطفال . وقد قالت عنه مدرسة الألعاب الرياضية إنه «قليل الثقة بنفسه» .

هناك فى الحقيقة عدة أسباب لما يبدو على الأطفال من جبن غير طبيعى . أما «تومى» فقد كان أبوه السبب فى جبنه . فقد كان رجلا ضخما بكل معانى الكلمة ــ ذا شخصية مهيبة ، يتحبب إلى ولده الذى أحبه حباً جماً . ولكن مرجع ذلك إلى أنه كان ــ فى نظر تومى ــ كاملا من كل النواحى .

إن على الآباء ذوى الشخصيات الجبارة الا يعاملوا أبناءهم الصغار كأنهم الحيوانات الأليفة المدللة ، بل إن عليهم أن يبثوا فيهم الشعور بالرجولة والإعتزاز بالنفس . وإنه لا سبيل إلى أن تبقى على شخصية ولدك فلا تحجبها شخصيتك الطاغية إلا بأن تعامله على أنه فرد له شخصيته المستقلة .
وهناك أسباب أخرى للجبن هى :

١ ــ الصدمات ــ كأن يعود الأب الى الأسرة بعد غيبة طويلة .

٢ ــ الحساسية الذهنية التى تصاحب الذكاء المتوقد فى كثير من الأحيان والتى ترتبط فى الغالب باحساس غير عادى بالخوف من الفشل فى كل عمل جديد .

٣ ــ كثيرة ما يوجهه الكبار ــ وهم قلقون ــ من حث الأطفال على الحذر والحيطة .

٤ ـ فقدان الشعور بالأمن فى المنزل نتيجة ما ينشب بين الآباء من خلاف وما يكون بينهما من تعارض فى معاملة الطفل ... ألخ . وكما أن الأسباب السابقة تؤدى إلى الجبن والتهيب ، فإنها قد تؤدى كذلك إلى الاندفاع والتهور . إذ هى فى النهاية تنشأ عن الشعور بانعدام الأمن . وهكذا يصبح «تومى» رعديداً و«جونى» مشاكساً حقوداً ، وتصاب «ريتا» باللجاجة ويعمد «الين» إلى السرقة .

فالى الآباء الذين يعانى أبناؤهم من الجبن والتهيب نسوق هـــذه النصائح الذهنية الثلاث :

١ ـ اغرسوا فى أطفالكم الشعور بالطمأنينة .
٢ ـ إعملوا على أن يزداد الطفل إحتراما لنفسه .
٣ ـ طاردوا شبح الخوف فى أية صورة من صوره .

قد تسرق الأمهات

نسوق فيما يلى مثالا يبين كيف يعوق جبن الأمهات الأطفال عن أن يستمتعوا بنموهم التلقائى .

عمد أحد الشبان قبل أن تبدأ عملية التصويت فى معركة الإنتخابات الكبرى إلى تأليف جماعة من الأولاد الصغار الذين يبلغ متوسط أعمارهم العاشرة ليعينوه على توزيع أوراق الدعاية . وأطلق على جماعته هذه اسم «الفرقة الطائرة» واندفع الجميع فى رشاقة وخفة إلى حيث ينبغى أن

توزع الأوراق . ورأوا فى الطريق طفلا صغيرا كان قد خرج فى نزهة مع أمه وأخته الوليدة .

وناداه أحد أفراد «الفرقة الطائرة» قائلا « تعالى معنا ياتونى إحنا بنوزع إعلانات » .

وتردد « تونى » وجعل يتطلع إلى أمه تارة ، وإلى الشاب أخرى . وقال الشاب « أهلا وسهلا » تعالى داحنا لسه عايزين ناس فى « الفرقة الطائرة » .

وأضاف طفل آخر من أعضاء الفرقة « ناس يكونوا بيجروا كويس» وناداه صديقه ثانية « تعالى ياتونى » .

وترددت الأم ، ثم رأت أن ذلك سيؤخر ولدها عن تناول الشاى . فاستأنفت السير فى طريقها وتونى ينظر خلفه فى أسى ومرارة .

وبعد ساعتين عادت « الفرقة الطائرة » فى زهو وانتصار بعد أن قضت الأصيل كله فى توزيع الأوراق ، يسابق بعضهم بعضا . وكانوا قد التقوا برجل من رجال الحزب المعادى يوزع أوراق الدعاية فما كان منهم إلا أن سخروا منه وهزأوا به بطريقة غير ديمقراطية وجعلهم هذا يشعرون جميعاً بالسعادة ويحسون بمبلغ أهميتهم . كذلك استخفهم الطرب والاعتزاز بالنفس وهم فى طريق العودة إلى أن يغيروا على أرض العدو ويصيدوا بعض العصافير ، ثم عادوا إلى بيوتهم وقد عظمت نفوسهم فى أعينهم وأكبروا ما قاموا به من مخاطرات .

أما « تونى » فقد كان يقبع فى بيته القريب الذى لا يبعد عن بيوتهم بعد أن حرم المشاركة فى هذه الخبرة ، وإن كان على يقين من أنهم سيتحدثون بها إليه فى اليوم التالى ، وجعل يتناول الشاى فى وجوم هو وأمه الولعة به ، وأخته الوليد ، وهو يرسل بنظره إلى الفضاء البعيد .

كانت أمه تقدم وجبة شهية فاخرة من الشاى ، ولكن بعد أن سلبته مرحــه .

ما أجدر الأمهات بألا تغالى فى مطالبة الطفل بالتزام قواعد النظافة وبألا يتبرمن كثيراً إذا خرج أطفالهن على هذه القواعد . إن رسالتك أن تيسرى لطفلك سبيل الاستمتاع بالحياة ، وأن تعلميه كيف يحب الحياة لما فيها من مرح ومخاطرة . لا تعبىء كثيراً إن تأخر طفلك يوما عن تناول الشاى أو وسخ ثيابه . تلك هى الحياة ، إن النظام الرتيب (الروتين) خادم مطيع ولكنه بئس الرائد .

بابا ولع بالمكايدة

كان فى استطاعتنا أن نسوق كثيراً من القصص يبين كيف يعمد بعض الآباء المولعين بأبنائهم والمغرمين بالمرح إلى مغايظة أبنائهم حتى يقلعوا عن بعض العادات السيئة كقرض الأظافر أو الخوف من الحيوانات الصغيرة أو ما إلى ذلك من سىء العادات . ولكننا نرى من الأفضل أن نقتبس هنا بعض أقوال سيدة فى العقد الرابع من عمرها والتى ناقشناها فى مادة هذا الكتاب . قالت السيدة «بودى أن تتناول فى كتابك موضوع إغاظة الأطفال ، اعتاد أبى أن يغايظنى دائماً وكنت أكره منه ذلك على

الرغم من أننى كنت أظهر عدم الاكتراث به . وكان هذا يجلب الشقاوة على نفسى . بل إنه أفسد فى النهاية ما كان بينى وبينه من علاقات . فإننى لم أكن أفضى إليه بشىء من ذات نفسى ، لأننى كنت أخشى دائماً أن يسخر منى . ولازمنى هذا حتى بعد أن كبرت وعرفت أن ذلك كان نوعاً من الحماقة . فقد كان كثير العطف فى كثير من الأحيان » .

ماري سرقت (١)

كانت « مارى » تبيع بعض المعروضات لحساب « الصليب الأحمر » وكان أكثر ما جمعت من المال من الأقارب والأصدقاء . وعمدت إلى قطع العملة الصغيرة فاودعتها إناء وضعته على رف فى حجرة النوم ولكنها سرعان ما نسيت كل شىء عن الموضوع ، كما أن أحداً من أفراد أسرتها لم يكلف نفسه عناء رد المال إلى المسئولين عنه . ولم تجد فى ترك النقود حيث وضعتها شيئاً يدعو إلى الغرابة . فقد كانت قد استمتعت ببيع المعروضات وتحصيل النقود . وسرعان ما غاب عن ذهنها مصدر تلك المتعة . إذ لم تكن قد جاوزت الثامنة من عمرها .

كانت « مارى » طفلة راكدة ، ثقيلة الحركة ، كثيراً ما يسخر منها زميلاتها فى المدرسة ، وكانت تكره ذلك ، وتمددت فى الفراش ، وجعلت تسائل نفسها كيف تستطيع أن تحمل صديقاتها على أن يزدن من حبهن لها . وكانت قد حاولت ذلك عدة مرات كانت من بينها تلك المحاولة الناجحة التى عمدت فيها إلى أن تنزل لرفيقاتها عن كسر من غذائها أو بعض الأقلام الرصاص (والأساتيك) فى بعض الأحيان ، ولكن هذه المحاولة لم تجد

طويلا ، وأصبحت بحاجة إلى أن تجرب وسيلة أكثر اغراء .

ورأت فى إناء النقود حلا للشكلة ، فهى تستطيع أن تأخذ بعض هذه النقود إلى المدرسة لتوزعه على الصديقات . وبدا لها أن ذلك سيكون أكثر جدوى — فإنها لم تكن تدرك قيمة المال إدراكا صحيحاً ، ولم تكن كذلك تعرف اتجاهات الكبار نحوه . وأفلحت الخطة ، ووجدت نفسها محفوفة بجمع من الصديقات لم تكن تتوقع منهن صداقة . ولذلك فقد جعلت تكرر فعلتها هذه .

وانقضى أسبوع وإذا الشك يساور واحدة من الأمهات حول مصدر هذه (البنسات) التى كانت ابنتها تأتى بها من لدن « مارى » فما كان من هذه الأم إلا أن زارت أم «مارى» . وعند ذاك بدأت المتاعب . قيل لـ «مارى» إنها لصة ، وإنها ستصير عندما تكبر لصة يؤول مصيرها إلى السجن ، وأنها لن يحبها أحـــد ، وأنها قد حطمت قلب أمها . ثم ذهبت لتنام بعد أن حرمت تناول العشاء ، وظلت تبكى حتى غلبها النعـاس .

وصحت من نومها فى اليوم التالى لتجد من حولها فى المنزل يعاملونها معاملة الأرض ؟

يعبسون فى وجهها أو يزورون عنها ، أما فى المدرسة فإنها لم تصبح بطلة ، وإنمـا غدت فى نظر زميلاتها بنتا صغيرة منبوذة . وسرعان ما أخذت صديقات المنفعة يكثرن من مكايدتها ومغايظتها . وبذلك أخفقت « مارى» لسوء حظها فى أن تتودد إلى الزميلات وأضحت تفرق

من الذهاب إلى المدرسة وأصبحت فى المنزل متبلدة الحس لا تعبأ بشيء . أما أبواها — اللذان كانا فى الحقيقة يحبانها حباً جماً — فقد ركبهما الغم والكمد ، إذ رأيا ابنتهما الصغرى بائسة ، ولكن كان يعوزهما من المعرفة والقدرة على التصور ما يمكنهما من علاج الموقف .

ما الذى نتعلمه من هذا؟ من الواضح أن « مارى » كانت قد فقدت الشعور بالأمن فى المدرسة ، وأنها لم تجد فى المنزل ما يعوضها عن هذا الأمن المفقود . لذلك أحست العزلة والعجز عن مجابهة ما كان يلقاها به أصدقاؤها فى المدرسة من اغاظة ومكايدة ، فلما حاولت بطرق لا يرضى عنها المجتمع أن تكسب لنفسها شيئاً من التقدير جعل الجميع يهاجمونها . حتى لقد سلبوها البقية الباقية من الاعتزاز بالنفس . إن « مارى » لم تجد من يفهم مشكلاتها . لأن مجتمع الأسرة لم يكن يسوده التفاهم . ولو أنهم أتاحوا لها الإحساس بالمشاركة فى حياة الأسرة بجميع نواحيها لكانت قد استطاعت أن تجابه مشكلاتها فى المدرسة بطريقة أكثر جدوى . وما اغفال إرسال النقود إلا دليل على ذلك ، فإن « مارى » كانت لصة .

لكن رائدكم وأنتم تهيئون لأبنائكم فرصة التعرف على كل شيء أن تجعلوهم يشعرون أن مساهمتهم لها قيمتها الحقة . فإن ذلك أساس الحياة المنزلية السعيدة والطفولة السعيدة .

ماري اللصة (٢)

كانت « ماري » الإبنة الثانية لأبويها وكانت طفلة قوية الجسم فى التاسعة من عمرها . وكانت أختها فى الثانية عشرة ، قد التحقت قريباً بمدرسة ثانوية . وكانت الأسرة تعيش فى منزل صغير جميل فى إحدى مدن الأقاليم ، حيث عرف الأبوان بأنهما جديران بالاحترام وبميلهما إلى النشاط والعمل .

ثم ولد لأبويها ولد فكان من الطبيعي أن يشمل الفرح الأسرة . ولكن « ماري » سرعان ماأصابها بعد ذلك شيء من الكآبة والحزن ، وأصبح التافه من الأمور يدفعها إلى العويل والبكاء ، وهى التى كانت قبل ذلك طفلة جريئة شجاعة إلى درجة تلفت الأنظار . ثم جاء تقرير المدرسة عنها أثناء الفترة المدرسية الثانية مخيباً للآمال كذلك — وبدا بذلك أن « ماري » فى طريقها إلى أن تكون عبئاً ثقيلا . وبات الوالدان فى هم وقلق . ولكن ما حدث بعد ذلك كان أدهى وأمر . . . فقد افتقدت الأم قطعة من قطع الشلنات كانت قد أودعتها فى جيب (مريلتها) لتشترى بها ما يلزمها من الغاز . وأوضحت القرائن أن « ماري » هى التى أخذتها .

ووقع ذلك موقع الصدمة المؤلمة فى نفس الوالدين ، فإنهما لم يكن قد لقيا شيئاً من هذه المتاعب فى تربية بنتهما الكبرى ، ولم يكد يفهم أحدهما لذلك سبباً . ومع هذا فقد كانا من الحكمة بحيث لا يعمدان إلى

الإندفاع والتهور ، وإنما اعتزما أن يتباحثا فى الأمر بعد أن ينام الأطفال وتناقشا فيما ينبغى عليهما أن يصنعا . ثم كان المساء من اليوم التالى والأخت الكبرى خارج الدار والأب لم يعد من عمله ، فقدمت الأم إلى مارى قطعة أخرى من ذات الشلنات (الخمسة قروش) وقالت «إنتى أخذتى شلن من جيبى إمبارح فانا فهمت إنك محتاجة لفلوس ضرورى. صحيح إن أنا وبابا ماحناش أغنياء لكن إحنا نفضل نعطيك الفلوس أحسن مانخليك تسرقيهم » . وداهم « مارى » شعور بالورطة والتحير ولكنها بدأت بعد لحظة تنكر بحرارة أنها أخذت شيئاً من النقود ، ثم انفجرت فى النهاية بالبكاء وارتمت بين ذراعى أمها . وأخبرتها أمها ألا تفكر بعد ذلك فى الأمر وسألتها ألا تعود لما فعلت لأن أباها وأمها لن يحسنا تدبير ميزانية الأسرة إلا إن تمكنا من معرفة أين تذهب النقود . كذلك أوصتها أمها بأن عليها أن تخبرهما إن كانت فى حاجة إلى المزيد من النقود لسبب من الأسباب ، وأنهما عند ذلك سيحاولان تدبير هذه النقود .

وعاد الوالد إلى المنزل بعد أن كانت « مارى » قد استعادت هدوءها ، وظلت كذلك حتى دخل عليها حجرة النوم يحييها تحية المساء ، فإذا بها تعود ثانية إلى البكاء . وتحدث إليها بمثل ما تحدثت إليها به أمها وزاد على ذلك أنهم سيحاولون أن يجدوا لها بعض ما تقوم به من الأعمال فى المنزل والحديقة إن كانت تريد أن تحصل على مزيد من المال لتنفقه .

وأنهى الوالدان إلى طبيبهما ما وقعت فيه من خطأ وكانا يعلمان

عنه الاهتمام بدراسة سيكلوجية الطفولة . فأوضح لها أن ما قابلت به الأسرة دخول أختها الكبرى المدرسة الثانوية من ابتهاج وفرح ، وما تبع ذلك مباشرة من فرح واهتمام زائد بالوليد الجديد ، كل ذلك كان فوق ما تطيق « ماري » المسكينة التي أحست بتفاهتها وحقارة شأنها احساساً دفعها إلى أن تعوض عن ذلك بالسرقة . ونصح لها الطبيب بأن يحرصا على منحها قسطها الأوفى من الاهتمام والمحبة .

وبقيت « ماري » طفلة مشكلة إلى حد ما عدة شهور بعد ذلك . ولكنها ما كادت تلحق بأختها الكبرى في المدرسة الثانوية حتى كانت قد استعادت كل ما كانت تتصف به في سنها الأولى من بهجة ومرح وقوة ونشاط .

لقد أسعد الحظ « ماري » وكان لها هذان الأبوان ، إذ أن كثيراً من الآباء كانوا يرون بأن من واجبهم في مثل هذه الحالة أن يأخذوا المسألة في شيء من العنف والصرامة . والحق أن الآباء ليحزنهم في كثير من الأحيان أن يروا أبناءهم يعمدون إلى السرقة ، حتى أنهم ليفقدون قدرتهم على حسن التصرف . فيرون في السرقة جرما شنيعا على حين أن الطفل لا يراها كذلك . ولعل ذلك الاتجاه من الآباء راجع في الغالب إلى ما يتواطؤ عليه الآباء من تكتم على ما يرتكبه ابناؤهم في المنزل من سرقات ، ولهذا فانه ما أن يواجه بعض الآباء مشكلة من هذا النوع حتى يحسبون أن طفلهم خبيث ليس كسائر الأطفال . فان قليلا من

الأطفال من لم يسرق شيئاً ما فى يوم من الأيام . وعلى ذلك فينبغى للآباء ألا يحسبوا أن أطفالهم حين يسرقون فقد فقدوا الضمير الخلقى . وهم إن قابلوا هذه الزلة من أبنائهم بلطف وحسن فهم ، وعلموا أن ارتكاب السرقة يكاد يرجع حتما إلى أن الطفل يحاول من جانبه أن يعوض عما يفتقده فى حياته من سعادة وطمأنينة وأمن ، لكان من السهل عليهم أن يعينوا أطفالهم على استعادة ما فقدوه من اتزان وتوافق .

وإذا كان لنا أن نلخص ما سبق فليس أفضل من أن نورد هنا ما قاله بعض علماء سيكلوجية الطفولة . . « إن الطفل إذا أحس أنه قد سلب المحبة أولم تتح له فرص النمو أو حرم المخاطرة ، لحاول أن يسرق ما سلب منه على أى نحو آخر من الأنحاء » .

وإن هذا ليؤيد تمام التأييد ما توصل إليه المؤلف بخبرته من أن الأطماع المادية ليست بحال من الأحوال السبب الرئيسى الذى يدفع الأطفال إلى السرقة . وعلى ذلك فمن واجب الآباء إن ارتكب أبناؤهم السرقة ألا يتساءلوا فى غيظ وحنق كيف وصل الحال بأبنائهم إلى مثل هذا الخبث والسوء وإنما عليهم أن يكتشفوا الحاجة النفسية الملحة التى لم يجد الطفل لها أشباعا .

لا تتحدث عن المسائل الجنسية

يذكر القارىء أن « جين » لم يخالجها أدنى شك حين أخبرتها أمها — وعمرها إذ ذاك أربع سنوات ونصف — بأن الأطفال تأتى « من

الحقائب السود ، وأنها اقتنعت بذلك ولم تعد تطلب مزيداً من الإيضاح
ولكن « جين » عادت حين بلغت السادسة إلى التساؤل حول هذا الموضوع فقد ذهبت مرة مع أمها إلى عيادة الطبيب وجعلت تتجول فى عيادته على حين كان الكبار يتجاذبون أطراف الحديث . ووقع نظرها على حقيبة سوداء مبطنة بالتيل الأبيض النظيف . وقدرت فى نفسها أن الحقيبة معدة لوليد وجعلت تبحث عنه . ثم لمحت صفا من أكياس من الورق الأزرق النظيف قد وضع فى صندوق زجاجى كبير . وأيقنت أن هذه الطرود أطفالا جدد ، فهرعت إلى أمها تخبرها وهى مستثارة « بصى ياماما ، هى الأكياس الزرقة دى فيها أولاد صغيرين ؟» والتفت الطبيب وقد كان رجلا مسنا من المدرسة القديمة — إلى «جين» وهو يضحك وقال وهو يغمز لأم جين «أما أنت بنت ناصحة تمام .. دى باين إنها تعرف أحسن مننا » . وربت على رأس « جين » ثم عاد إلى حديثه مع الأم . وأحست أم جين بلذعة الأسف ، ولكنها وجدت فى موقف الطبيب شيئاً من العزاء فقد أيدها فيما أنبأت به «جين» من قبل .

وانقضت سنتان « وجين » لا تزال سادرة فى جهلها . وكانت فى ذلك الحين تذهب إلى المدرسة فى حراسة بنتين تكبرانها سنا كانت تثقل عليهما حراستها ، وكانا كثيراً ما يعمدان إلى مغايظتها مما كان يحيل حياتها جحيما فى كثير من الأحيان . وكان مما يلذهما أن يسألا جين الصغيرة أسئلة عويصة أو سخيفة ، حتى إذا حاولت « جين » أن تجيب عنها راحا يضجان بالضحك منها . وسألتها إحداهما ذات صباح إن كانت تعرف من أين يأتى الأطفال، وانبرت « جين » تجيب عن هذا السؤال الذى حسبت أنها تعرف شيئا عن موضوعه . قالت لها إن الأطفال تصنع فى اكياس من

الورق الأزرق ، ثم توضع فى حقائب الأطباء السوداء ، ولكنهما — لسوء حظها — اغرقتا فى عاصفة من الضحك ، وفى النهاية أخذت إحداهما تطيل فى تبصرة « جين » بما كانت تسىء فهمه من حقائق الحياة . لكن « جين » كانت على يقين من أنها على صواب ، ألم تقل لها أمها ذلك ؟ ألم يقل لها الطبيب إنها كانت ذكية حين عرفت ذلك ؟ واستشاطت غضبا ورمت البنتين اللتين كانتا تضايقانها بالكذب والإختلاق . وامسكت البنتان بذراعيها وطلبتا إليها أن تعتذر اليهما . ولكنها لم تزد على أن جعلت ترفس و تعض .

ودفعت البنتان بها إلى السور . وهى لا تزال « تصرخ » وربطتا شعرها إلى أحد الأغصان المتدلية ، ثم غادرتاها ، وقالتا إنهما سيحلان وثاقها حين تعودان من المدرسة على شريطة أن تعتذر عن رميهما بالكذب.

وبعد بضع دقائق وجدها أحد المارة تبكى بكاء هستيريا وتجاهد عاجزة أن تفك قيدها . فحل وثاقها ، واستطاع بعد جهد ولأى أن يتبين عنوانها ، فأعادها إلى بيتها حيث لم تستطع أمها الحيرى أن تتبين من كلامها إلا هذه الجملة التى كانت تقولها فى غضب « مش انت قلتى شنط سوده » . واستطاعت أمها فى النهاية أن تهدىء من روعها وأن تستخلص منها قصة متماسكة ، وإذ ذاك أدركت فى فزع الدور الذى قامت به فى ذلك الحادث التعس ، وأحست احساسا عميقا بالخزى ، ولكنها كانت من الحكمة بحيث لم تكتف بأن تشرح لابنتها حقيقة مولد الأطفال

وإنما بينت لها كذلك أن الذى دفعها إلى أن تقص عليها تلك القصة هو أن الناس يعتقدون أن البنات الصغيرات مثلها لم يبلغن بعد من العمر ما يسمح لهن بالوقوف على الحقيقة . ولم تزد « جين » على أن تفرست فى وجه أمها ، وعندئذ أخذت أمها تحدثها فى صراحة وتواضع « أنا ما كنش يصح أكدب عليكى يا حبيبتى ، وأنا متأسفة قوى » وسرعان ما عاد التعاطف والمودة بين « جين » وأمها شأن جين فى ذلك شأن كل من يحبه أبواه من الأطفال ، وطوقت بذراعيها عنق أمها ، وقالت « معلهش — يا حبيبتى — يا ماما ، إنت ما عودتيش حا تعملى كده ، موش كده ؟ » .

من حسن الحظ أن الأم فى حالتنا هذه تصرفت بحكمة وشجاعة على الرغم من أن ذلك أتى متأخراً ، فلم تجنب ابنتها التعاسة والإصابة بالصدمة . ولو أنها — استرسلت فى التغرير بابنتها وخداعها — وإن كثيرا من الأمهات ليفعل ذلك فى مثل هذه الظروف — لكانت قد أوجدت هوة بينها وبين ابنتها تأخذ فى الاتساع على مر السنين .

ولنعد لحظة إلى بداية القصة ، كانت الأم قد أخبرت « جين » — على الرغم منها — بقصة الحقائب السود بادئ الأمر ، لأنه كان هناك أشخاص آخرون حين سألها ابنتها من أين يأتى الأطفال ، ثم تحيرت بعد ذلك ، وعز عليها أن تعيد الأمر إلى نصابه ، كان ينبغى أن يأتى إشباع اهتمامات الأطفال فى المرتبة قبل مراعاة الناحية الاجتماعية فى مثل هذه الحالات ، ولذلك فإن الآباء ملزمون — إذا هم اضطروا ألا يقولوا لأبنائهم الحق حول هذا الموضوع أن يبينوا لهم أن ماقالوه

كذب ، وأن يشرحوا الأسباب التى دفعتهم إلى قوله . وعند ذلك سيفهم الأطفال ، ولا داعى لأن يتوهم الآباء أنهم سيفقدون مهابتهم إذا هم اعترفوا بالخطأ ، فإنه ليس الاعتراف بالخطأ هو الذى يلحق الضرر بالأطفال .

بطرس فى طور الرعونة

أدركت الخالة لأول وهلة أن الأسرة ليست على مألوف أحوالها فقد اعتادت فى زياراتها السابقة أن تجد فى الأسرة جوا من الابتهاج والود ، لكن الأسرة كانت تبدو هذه المرة وقد سادها العبوس والتوتر والاكتئاب . وتحدثت بذلك إلى أختها ، فأجابت « بطرس يا ستى . أصله اليومين دول لاوى بوزه علينا وسايق الرذالة ومخلى كل العائلة زعلانه منه » .

وتبينت الخالة سريعا أن أختها لم تكن تبالغ فإن بطرس — وعمره عشر سنوات — كان دائم العبوس والتكشير عن الأنياب ، يعتدى على أخته التى تكبره بسنتين ، ويتشاجر مع ابن عمه الذى يسكن فى المنزل المجاور وقد يجلس إلى المائدة دون أن يغسل يديه ، فإذا أمرته أن يعود ليغسلها جعل يدمدم فى غضب . ثم يعود ويجلس إلى المائدة بعد أن يغسل يديه ليقول إنه لا يحس الجوع ، أو أنه لا يسيغ شيئا مما على المائدة وإن أراد سائر الأطفال — وكان أصغرهم عند ذلك فى السادسة من عمره — أن يلعبوا فى الحديقة أقام هو بالمنزل لا يبرحه وأخذ يشغل نفسه بالكتابة أو دفن وجهه فى كتاب . أما إن عادوا

إلى البيت وأرادوا أن يلعبوا داخل المنزل دمدم هو قائلا إنه سيذهب للقاء صديق ثم يغادر المنزل ، قالت أمه « إنه لولد لا يطاق . أليس كذلك ؟ إننا لنتمنى أن يشب عن هذا الطور » .

وكان والد بطرس مندوبا لإحـــدى شركات التأمين ، هوايته الأشغال الميكانيكية ، كما كان ذا خبرة بفلاحة البساتين ، يقوم بزراعة حصة من الأرض على مبعدة ميـل أو نحو ذلك من المنزل ، وتلقت الخالة فى أول مساء لها بدار أختها دعوة إلى نزهة بالعربة ، وتصدى بطرس للعربة وهم يخرجونها من (الجاراج) .

وركبت الخالة فى السيارة ولـكن ما كادت العربة تبدأ سيرها حتى سمعت أختها تقول « لا يا بطرس إنت مش حتروح معاهم ، دا هما مش حيرجعوا إلا بعد ميعاد النوم بتاعك » .

ثم كان المساء من الغد وأعلن الوالد أنه سيقوم بفك بعض أجزاء السيارة ، وقالت أم بطرس لولدها فى حزم « أوعى تنزل الجاراج يا بطرس انت عارف انت وسخت نفسك أد إيه فى المرة اللى فاتت » . كذلك لاحظت الخالة أن أختها أكثرت طوال الأمسية من قولها « أنا مش عايزه بطرس يكون نزل الجاراج ، لحسن هو بيوسخ نفسه هناك كثير » وأنها أرسلت ابنتها مرتين لتتأكد من ذلك .

ثم أقبل الغد وكان يوما من أيام السبت ، وأعلن الوالد أنه سيقضى الأصيل فى المزرعة ما دامت زوجه وأختها قد شغلا نفسيهما بحياكة الثياب .

وسأله بطرس «آجى معاك يا بابا؟» ولكن أمه قالت إنها تريد أن يظل بطرس فى البيت ويلعب مع أخيه الصغير لأن أخته ستذهب لتناول الشاى مع بعض الصديقات. وأذعن بطرس وهو عابس الوجه مقطب الجبين، وأنفق الوقت كله فى القراءة على حين جعل أخوه الأصغر يتنقل فى الحديقة يعبث بها ويفسد فيها.

وأقامت الخالة بينهم سبعة أيام أدركت بعدها أن بطرس كان يظهر كل يوم رغبته فى أن يكون عوناً لأبيه دون أن يجاب إلى ذلك إلا مرة واحدة ولفترة قصيرة من الوقت. ولاحظت كذلك أن بطرس يستهدف لقدر من النقد أكبر مما يستحق، على الرغم من أنه كان يصر على العناد والعبوس إلى درجة تدفع إلى الجنون فى بعض الأحيان، وكانت الخالة لحسن الحظ على علاقات طيبة مع أختها. فقالت لها يوما وهى تريد أن تنتهز فرصة انفرادها بها لتلفتها إلى خطئها:

«هل تعلمين أننى على يقين من أنك تغارين من بطرس» وارتاعت الأم لهذا الاتهام، ولكن أختها سألتها «إذا لم يكن هذا صحيحا، فلماذا تحولين بين بطرس وبين أن يخرج مع أبيه كلما أمكنك ذلك». وأجابت الأم «لا، أبداً، وكل ما فى الأمر أن بطرس لا يطمأن عليه ولهذا فاننى أرى أنه لابد لى من دوام مراقبته ورعايته».

وذكرت الخالة أنه ربما كان السبب فى غيرة الأم أن بطرس يفضل بشكل ظاهر أن يكون فى معية والده أكثر من أمه. وقالت «أتعلمين أنك تكثرين من انتقاد بطرس وأنك كثيراً ما تتدخلين فى شئونه

إلى درجة أكبر مما تقضى الظروف . وقد لاحظت أنا ذلك فى الحال بوصفى غريبة عنكم » .

وأفزع الأم أن تسمع هذا الكلام ، ولكنها كانت امرأة تقدر الأمانة وتجل ما تبديه أختها من آراء ، ولذلك قالت إنها ستفكر فى الأمر . ثم انقضت بضعة أيام وإذا بها تقول لاختها على غير انتظار .. « لقد جعلت ألاحظ نفسى حتى تبين لى أنك على حق إلى حد ما فيما قلتيه عن بطرس وعنى ، فما العمل إذن . » واعتزما أن يتباحثا فى المشكلة كلها بالاشتراك مع الزوج . وقاموا بتصميم خطة جديدة .. كان عليهم أن يزيدوا من تشجيع بطرس ، وأن يكفوا عن تعنيفه على ما يأتى من حماقات ، وأن يتيحوا له الفرص ليخرج مع أبيه ، ولكن الخالة نصحت لها قائلة « لا تتغيروا كل هذا التغير المباغت » بل ينبغى أن تحققوا هذا بالتدريج » وانقضت ثلاثة شهور تلقت الخالة فى نهايتها رسالة من أختها تقول فيها « لقد تحسن بطرس كثيراً وأننى لأستطيع أن أقول إنه قد عاد إلى درجة السواء » .

* * *

إنه لمن الطبيعى لمن ظلت تعنى بالطفل فى سنواته الاولى من الامهات أن يشق عليها بطريقة شعورية أو لاشعورية أن ينتقل ولدها إلى المرحلة التى يفضل فيها مرافقة أبيه . ولكن الام تجر على الاسرة الشقاء وتعوق نمو الطفل إن هى أخذت تحول بين الطفل وبين أن يحقق ما يريد من ذلك ، وإنه لينبغى للأمهات أن يرين فى ازدياد ميل

الطفل إلى الاستقلال عنهن دليلا على أنهن قد أدين رسالتهن كأمهات . وانه لهون على الاطفال والآباء مشاكل المراهقة أن يشجع الطفل فى سن مبكرة على ذلك الاستقلال ، وأن الام التى تقابل بالتسامح والتفاهم ما يبديه طفلها من عدم احتفال بها وتفضيل لمرافقة أبيه عنها لفى مأمن من أن تفقد حب ولدها لها ، وإنها لعلى يقين من أن هذا الحب سيقوم على دعائم وطيدة معقولة .

وعلى أنه من المحتمل أن تنعكس الآية بطبيعة الحال ، ويرفض الأب أن تحول الأم بين ولدها وبين أن يؤثره بحبه وإعزازه. ولكن الموقف السليم واحد فى كلتا الحالين ، وهو أن تتصف الأم بالتفاهم وعدم الأثرة . إذ الأثرة تقضى على الحب ، وإن تنازع الأبوين على حب الإبن ومودته لمن شأنه أن يعرض هذا الحب للخطر ، إنك لا تحسن فن الأبوة حتى تتعلم الصبر والإنتظار ، ونحن لا نزعم أنه من الميسور دائما اتباع هذه النصحية ، فاننا لم نقل مطلقا إنه من الميسور على الإنسان أن يكون أبا صالحا ، ولكن أولئك الذين يتبعون هذه النصيحة هم الذين سيحظون من أطفالهم بالحب الدائم والعرفان بالجميل مدى الحياة .

الطفلة الواشية النمامة

نختم هذا الفصل بذكر حالة هى فى الحقيقة كثيرة الوقوع ، ونحن إنما نوردها لنبين كيف يسىء الكبار فهم الأطفال وطبيعتهم . فان مما يؤسف له أنه من الصحيح أن أخطاء الآباء (والأمهات والأعمام

والعمات والأخوال والخالات، والجدات . . . الخ) يتحمل الأطفال نتائجها السيئة ونحن إن كنا لانستطيع أن نتأكد من ذلك بالنسبة للجيل الثالث والرابع لأننا نفتقر إلى ما يلزمنا لذلك من سجلات ، فاننا على يقين من ذلك بالنسبة للجيل الأول . إنه لمن الخطأ الفاحش أن نفترض أن الأطفال لا يعوج سلوكهم إلا بأن تقع عليهم الكوارث والأحداث . إنه لأهون على الطفل أن تمر به لفترة قصيرة عاصفة من سوء الحظ من أن يظل يعانى على الدوام من فقدان شيء بسيط ، وسيرى القارىء أن قصة هذه الحالة هي لأحد الكبار الذين قاموا برواية بعض مامر بهم من خبرات أثناء الطفولة »

ظلت « برندا » زهاء ثمانى سنوات الحاكمة بأمرها فى الأسرة لأنها كانت الحفيدة الوحيدة لجديها . وقد كان لها بجانب جديها عـــدد من الاخوال والخالات والأعمام والعمات المولعين بها ، والذين كانوا يتنافسون فى أن يظفروا ببعض حبها . فكانت تزورهم جميعا من وقت لآخر ، وتستشعر السعادة ، ولأنها كانت تشعر بالسعادة كان سلوكها طيبا مرضيا .

وكانت « برندا » فى زيارة لخالتها حين علمت أنه قد ولد لها أخت صغيرة ، وعصفت بها الرغبة فى أن تعود وتساعد أمها فى رعاية الوليد واستثارتها الفكرة فعلا . ولكن شـــيئاً لم يتحقق مما كانت ترجو ، فقد التف الكبار حول القادم الجديد دون أن تتمكن من المشاركة فى العناية به . وطلبوا إليها أن تلعب بدماهـا ، ولكنها لم تجد فيها عوضا عن ذلك الوليد الذى تدب فيه الحيـاة . وهكذا استحال اهتمامها بالوليد إلى

شعور بالمرارة والغيرة . وأصبحت صعبة المراس ، وبدا لها أن كل ما تفعله الآن لم يعد يروق الكبار كما كان يروقهم من قبل . فاستقر فى نفسها أنه لم يعد يحبها أحد ، ولذلك اعتزمت ألا تحاول بعد الآن أن يكون سلوكها مرضيا .

كان هذا هو حالها عند ما ذهبت فى زيارة إلى جدتها ، ولقد جاءت هذه الزيارة مخيبة لآمالها من أول الأمر ، فان الجدة التى لم تكن على شيء من الكياسة كانت تكثر من امتداح الطفلة الوليدة ، على حين أن خالتها التى تشرف على شئون منزل الجدة مشغولة البال فى علاقاتها الغرامية فلم يكن فى استطاعتها أن تأبه كثيراً للطفلة . ولذلك أصبحت « برندا » وقحة غير مقبولة السلوك . وودت لو تستطيع أن تجد طريقة تستعيد بها حب أهلها لها .

وذات صباح كانت الخالة تقوم على شئون المنزل فى شيء من التسرع والعجلة حتى تستطيع أن تبرح المنزل دون تأخير لتلاقى فتاها ولكن الجدة التى لم تكن راضية عن افتتان بنتها بهذا الشاب كانت تعمل على تأخيرها ما استطاعت . ولذلك فقد بدا للخالة أنها لن تدرك القطار قبل الرحيل . ونشب بين الخالة وأمها شجار ، ولما ارتفعت أصواتهما غادرت « برندا » المكان واختبأت فى الحديقة . ثم عادت لتجد خالتها تقوم على طهو طعام الغذاء وحدها وهى أشد ما تكون عبوسا وتجهما . وما أن رأتها الخالة حتى أنهالت على أم « برندا » بالسب والشتائم فى شخص إبنتها ، وذلك لتنفس عن نفسها بعض ما تجد ثم تناولت غذاءها فى سرعة وصمت وانفلتت خارجة من المنزل .

ـ توددت الجدة إلى « برندا » فى ذلك الأصيل كما لم تتودد به إليها من قبل . خرجتا معا فى نزهة ودية ، ولعبتا ، فلما حان وقت تناول الشاى سألت الجدة «برندا» عما تحدثت به الخالة عنها فى المطبخ هذا الصباح . فسردت «برندا» كل ما حدث فى دقة وتفصيل . وظلتا تلعبان بعد ذلك حتى حان موعد النوم لكن «برندا» كانت لا تزال يقظى عندما عادت الخالة ، وأخذ يتناهى إلى سمعها أصوات الغضب تصدر من الطابق الأرضى، ودام ذلك مدة طويلة . ثم سمعت وقع أقدام تسرع فى صعود الدرج . وإذا بخالتها تندفع إلى داخل حجرة «برندا» وهى تنتفض من الغضب، ثم ازدادت دهشة «برندا» حين وجدت نفسها توصف بأنها « بنت فتّانة وحشة» وخبيثة تسعى بين الناس بالفساد . وبغير ذلك من النعوت والأوصاف . وانفجرت «برندا» فى بكاء مفزع . وصاحت الخالة وهى تخرج من الغرفة أنها ترى فى «برندا» أخبث من عرفت من البنات وأنها ستحدث أمها عن كل ما جرى .

وانصفق الباب وارتمت «برندا» المسكينة الحيرى فى فراشها ترتعد فى الظلام .

واستيقظت «برندا» فى صباح الغد وقد نسيت ــ شأنها شأن سائر الأطفال ــ ما تسببت فيه من متاعب . أما الجدة والخالة فلم تنسيا وتجاهلتها الخالة ، ورأت الجدة أن من الكياسة ألا تتحدث إليها هى أيضاً حتى لا تخلق لنفسها من المتاعب أكثر ما لاقت ، وأخذت «برندا» تتجول فى أنحاء الدار وهى تشعر بالوحدة والعزلة ، ولكنها كانت تعلم أن أمها ستأتى لتعود بها فى ذلك اليوم ، وأثلج ذلك صدرها ، فقد كانت

تفتقر إلى حب أمها وحمايتها أشد الإفتقار ، لكن أحداً لم يصحبها إلى المحطة لتستقبل أمها ، وإنما ذهبت خالتها وحدها ، ثم إذا « بيراندا » تجد أمها وقد أحاطت خبراً بكل ما إرتكبت إبنتها من أخطاء . وأحست الأم بالخزى من أن إبنتها كانت سبباً فى كل هذه المتاعب ، فاعتزمت أن تعاقبها بأن تصطنع شيئاً من الفتور عند لقائها ، وعادوا إلى المنزل وأخبر الوالد بكل ما اقترفت « برندا » من أخطاء وهنالك أخذ الوالد — بدوره — يعظ إبنته بأن تكف عن الإفساد بين الناس .

ليست هذه القصة أكثر من عرض سريع لحياة يسودها سوء التفاهم والشقاء الذى لا يرجع إلا إلى نقص القدرة على تصور حياة الأطفال وفهم طبيعتهم . وإن الأطفال الذين لا يعنى بهم حق العناية ليتعرضون كثيراً إلى اضطراب دائم يبدلهم من بعد سعادتهم الطبيعية ألوانا من الاضطراب النفسى الذى يقض مضاجعهم . وقد درجت « برندا » وهى تستشعر الغيرة من أختها ، لأنه بدا لها أنها حالت بينها وبين ما كانت تتوق لها من حب . كما أنها ظلت تعانى من شعور عميق بالنقص كانت تعوض عنه بالتهكم والإزدراء ، وبميل ظاهر إلى العدوان وكانت كذلك يعوزها الاتزان الإنفعالى . تغمر كل من يبدى لها شيئاً من الحب بفيض مستغرب من الإنتباه . وقد بلغت « برندا » الثامنة والثلاثين ، وهى لا تزال شديدة التأثر إلى درجة يرثى لها بما يوجه إليها من أيسر النقد والإحباط . صحيح أنها الآن امرأة شابة على جانب من الذكاء ، وأنها الآن تستطيع أن تتغلب بعقلها على ما يصادفها من عقبات . ولكنها مع ذلك لا تزال حتى الآن متخلفة فى نموها الانفعالى . كما أنها لاتزال تعانى

فى كل يوم تقريبا من أولئك الكبار الذين أعوزتهم القدرة على فهم نفسيتها وهى طفلة .

كيف نستطيع اذن أن نتجنب ألا نخلق من أطفالنا أمثال «برندا» لنعد الى ما قلناه من قبل — عليك أن تجعل الطفل يشعر بان له دوراً يقوم به على الدوام ، لا تدعه يشعر بأنه غير مرغوب فيه ، وأن بعض الكبار ليعامل الطفل فى كثير من الغلظة والعنف .

عامل الطفل على أن له شخصيته المستقلة ، بل عامله معاملة الند للند ما استطعت الى ذلك السبيل . إن الطفل الذى يجنح الى العزلة والإنفراد لا يشعر بالشعور السائد فعلا فى الجماعة ، وبذلك يقف نموه الانفعالى. إن الأطفال فى حاجة الى أن تحبهم . وأن تكون على سجيتك معهم،وأن ترعى جانب العدل فيهم . وأن ذلك ليغرس فيهم الشعور بالطمأنينة ، ذلك الشعور الذى تقوم عليه الشخصية المتزنة المقدامة .

لقد تداعى شعور «برندا» بالثقة بنفسها لأنها لم تعد تجد إشباعا لحاجتها الى الحب والاطمئنان ، وأن من يسمح من الكبار لمثل هذا أن يحدث للطفل ليقضى على سعادة الطفل حتما ، بل وقد يدفعه فى كثير من الأحيان الى سوء السلوك .

« الفصل العاشر »

الأطفال فى مدارسهم

هذا الكتاب قصدنا به أولا وبالذات إلى أن يبحث فى العلاقات الشخصية الوثيقة التى تعمل على بناء الشخصية الإنسانية أو هدمها ، ولكننا لا نستطيع أن نغفل إغفالا تاما حياة الطفل فى المدرسة ، وإنه لمن سوء الحظ أن تتضمن حياة الطفل فى المدرسة كثيراً من الأخطاء التى لا بد لنا من أن نقومها ، حتى نستطيع أن نبنى لأطفالنا شخصيات متكاملة ، ونعدهم ليكونوا مواطنين صالحين .

لنفترض أننا قد أحسنا معاملة الطفل فى المنزل ، وفى دار الحضانة ، وأنه قد تلقن الدروس الإجتماعية الأساسية فى التعاون والمشاركة وأنه قد تعود أن يأخذ مكانه فى الجماعة ، وأن يشارك مشاركة فعالة فى حياتها.

فماذا يحدث بعد ذلك ؟ إنه ليزج به فجأة إما فى مدرسة إبتدائية عامة أو فى مدرسة خاصة . فإن كانت الأولى ، وجد نفسه وسط حشد من الأطفال يبلغ عددهم الأربعين أو الخمسين .

والطفل الصغير لا يشعر من الوفاق بينه وبين هذا الحشد الكبير من الأطفال أكثر مما يشعر به الكبير من إحساس بالارتباط الوثيق بينه وبين حشد من المسافرين الذين تموج بهم محطة سكة الحديد فى عطلة

عيد من الأعياد . وإنه لمن المتعذر أن ندرب الطفل على المشاركة في حياة الجماعة تدريباً مثمراً في مثل هذه الظروف .

وإن كانت الثانية ووجد الطفل نفسه في مدرسة من المدارس الخاصة فإنه قد يفيد إفادة مؤقتة من كونه عضواً في وحدة أصغر ، ولكنه سيعاني بعد ذلك من الآثار السيئة التي تترتب على الحياة المنعزلة في المدرسة الخاصة . فكلا النوعين من المدارس إذن لا يهيء للطفل ما يكون بحاجة ماسة إليه في هذه المرحلة الابتدائية . ونعني بذلك أن يكون عضواً في جماعة صغيرة هي بدورها جزء من خبرة عامة مشتركة .

وإذا رجعنا إلى مشكلة المدرسة العامة ذات العدد الضخم وجدنا أنه من المتعذر على المدرس — مهما أوتي من مهارة — أن يهتم إهتماما شخصياً بكل فرد من أفراد هذه المجموعة الضخمة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكون من المتعذر كذلك على الطفل أن يشعر بأنه على اتصال شخصي وثيق بالمدرس أو بسائر الأطفال . أضف إلى ذلك أن الفصول المزدحمة بالأطفال تكون سبباً في أن يجد الطفل نفسه وقد أخذ بنوع جديد غريب عنيف من النظام . وذلك أن الفصول المزدحمة تقضي اصطناع نوع من النظام . الصارم القائم على القمع ، إذ لا سبيل غير ذلك لاحتفاظ المدرس بهدوئه وسلامة عقله . بل إنه ليبلغ من صرامة النظام العسكري الذي يسود فصول المدرسة الإبتدائية أن الطفل يحرم عليه أن يلتقط قلمه من على الأرض أو أن يلتفت وراءه أو ما إلى ذلك حتى يأذن له المدرس بذلك . وذلك لأن ترك الأطفال يأتون ما توحي به فطرتهم يشيع الفوضى وسوء النظام في الفصل ، ولهذا كان من الضروري أن يحد من حريتهم ، ويحال بينهم وبين أن يكونوا على سجيتهم .

ما أسوأ ما نشاهد من أحوال المدارس الآن . إن أنسب عدد من التلاميذ فى الفصل فى المدرسة الإبتدائية يتراوح بين خمسة عشر تلميذاً وخمسة وعشرين ، وإنه لمن الأفضل أن يقل العدد عن العشرين ، إن هناك كثيراً من الجهود تبذل فى تحسين أساليب التربية فى ما قبل المرحلة الإبتدائية كما أن المدارس الثانوية بدأت ترى أن أفضل نظام ينبغى الأخذ به إنما هو « الضبط الذاتى » ولكن المدرسة الإبتدائية — وهى مرحلة تتوسط المرحلتين السابقتين — لا تزال مرحلة قاحلة يزدحم فيها التلاميذ ويكثر القمع والكبت ، ولا قدرة للطفل على أن يستعيض عنها إلا بمدرسة خاصة باهظة التكاليف . ولا تستطيع الديمقراطية أن تسكت عن هذا النقص فى التدريب على الحياة المشتركة فى الجماعة التى لا غنى لأطفالنا ومجتمعنا عنها . صحيح أن المدرسين قلة ، وان المدارس واقعة تحت الضغط ، ولكنه ينبغى ألا يهدأ بالنا حتى نرأب هذا الصدع فى التربية الديمقراطية .

وإن إغفال معظم الفصول فى المدارس الإبتدائية لهذه التربية الإجتماعية ليجعل من الضرورى أن يتلقى الطفل تربية اجتماعية حقة فى بيته وعن طريق لعبه مع رفاقه .

الحرية والنظام

لابد لنا من أن نزيد رأينا فى مسألة النظام وضوحا .

كثيراً ماتوجه الينا الاتهامات أثناء الحديث : « إنكم قد وهبتم أنفسكم للطفل » . وإننا لنظن أن أخذ الطفل بشىء من النظام لايلحق به

ضرراً . وإنكم بطريقتكم هذه فى تربية الطفل ستجعلون منهم أطفالا فيهم ميوعة وطراوة . فلنؤكد ثانية أننا لاندعو إلى أن نترك الحرية التامة للطفل . ولا إلى ألا يؤخذ بأى نوع من أنواع النظام . فان الأطفال فى حاجة إلى التوجيه والإرشاد ، أما أننا سننشىء الأطفال على الميوعة والطراوة فقد هدتنا خبرتنا إلى أن الجرأة والشجاعة فى الشبان ليست وليدة التربية القاسية الصارمة ، وأن سياسة القمع والارهاب لا تخرج إلا كل رعديد جبان هزيل الشخصية ، لأن هذه السياسة تنكر على الطفل حقه فى تنمية شخصيته ، إن النظام الحق — كما نراه — ليس انتصار إرادة فريق على آخر ، ولكنه ذلك الذى يستمد مقوماته من التوافق المتزايد بين الطفل والمجتمع . ليس النظام مسألة فردية شخصية ، ولكنه أمر اجتماعى .

إن أول مايمر به الطفل من خبرات اجتماعية إنما يكون فى منزله ولذلك فانه لو تعلم الطفل أن يشارك فى حياة الأسرة وأن يسهم — فى وقت مبكر قدر الاستطاعة — بنصيب فيها . وأن يتحمل لذلك قدراً من المسئولية ، لترتب على ذلك ألا يصبح النظام والخضوع للسلطة أمراً مقصوداً لذاته . وإنما يصبح أمراً له وظيفته فى تنظيم حياة الأسرة. سئلت إحدى الأمهات عن السر فيما تتمتع به أسرتها التى تتكون من أربعة أفراد من جو عائلى مثالى سعيد ، فأجابت . . « ان كلا منا يقوم بنصيبه ، هذا كل مافى الأمر . إن كلا منا يتحدث فى صراحة إلى الآخر فاذا رأينا شيئا قد بدأ يسوء أخذنا نتشاور فى الأمر ، ونعد للأمر عدته من قبل أن تقع الكارثة » . وبدا لنا أن كلا من أفراد هذه الأسرة

يحمل الآخر على احترام نظام الأسرة . وتحدثنا بذلك إلى الأم فأجابت « إن الأمور تسير على هـــذا النحو ، فليس بيننا سيد ومسود وأننا لنعمل جميعا متعاونين » .

إن سوء السلوك فى المدرسة كثيراً مايكون سببه المباشر عجز الأسرة عن أن تكون وحدة اجتماعية ناجحة . وقد حدث ذات مرة أن عانت احدى المدارس الثانوية من تلميذ (عصبجى) كثيراً من المتاعب . وقد كان هـذا التلميذ قوى البنية بدت عليه أمارات الانحراف من يوم أن دخل المدرسة ، فلما بلغ الرابعة عشر كون لنفسه عصابة مروعة من ثلاثة أولاد على شاكلته ، أخذت تسوم صغار الأولاد فى المدرســـة الخسف والعذاب . وقد تبين من فحص هذه الحالة أن هذا الولد لم يشعر يوما ماأنه مرغوب فيه بين أسرته . أما إخوته فقد كانوا يكبرونه كثيراً ، وأما أبواه فقد كانا يكثران من الخروج وحدهما فى المساء . ولذلك فقد تمرد الولد على النظام فى المدرسة ، لأن أسرته لم تكن وحدة مترابطة ، ولذلك فان مشكلة المشاكل فى النظام الذى ينبغى أن يسود فى المدرسة ليست فى شقاوة الأطفال وأصرارهم على العناد . وإنما المشكلة فى أن الأسرة تفتقر إلى الحياة الاجتماعية الصحيحة .

إن النظام الصحيح لايقوم الا على أساس من الشعور بالمشاركة فى حياة الجماعة . والنظام بالنسبة للطفل هو القدرة على أن يدبر شئونه الخاصة بمالا يتعارض ومصالح الجماعة التى هو جزء منها . ولذلك فإنه إذا خرج الطفل على النظام فإن اعادته إلى حظيرة النظام لا نأتى بذلك النزاع المألوف بينه وبين صاحب الأمر فى الجماعة . وإنما بأن نشجعه

على أن يقوم بنصيب أكبر فى حياة هذه الجماعة . إنه لا قيمة للخوف فى حمل الأطفال على إتباع النظام الصحيح . قد يحمل الخوف الطفل على الانصياع والاذعان ، وقد يحمله على أن يصطنع أساليب الغش والخداع . لكن النظام الصحيح إنما يقوم على دعامة من احترام الشخص لذاته . وأن الالتجاء إلى أساليب القوة والقهر لتحطم هذا الاحترام . وكم من طفل وقع تحت طائلة عقاب لارحمة فيه لأنه أراد أن يستمسك بإرادته ضد إرادة من حوله . وكل جريرته فى ذلك أنه أصر اصراراً قوياً على أن يحتفظ باحترامه لذاته .

نلخص ماسبق فنقول : علينا أن نجعل كل مايتعلق بالنظام بحيث يبدو مسألة اجتماعية لامسألة شخصية . ولابد لنا من أن نشعر الطفل بالتقدير الكامل فى الأسرة وفى كل جماعة يحيا فيها حتى يستطيع أن يمضى فى نموه بقليل من التوجيه والارشاد دون أن نلجأ إلى القسوة والاجبار . إنك أن عجزت عن أن تشعر طفلك بهذا التقدير فقد حملته على أن يقاوم كل شيء وكل إنسان ليعوض بذلك عما فقد .

فترة الانتقال

هناك مسألة أخرى ينبغى أن نوضحها هنا . نحن ندعو فى هذا الكتاب إلى الأخذ باتجاه معين نحو الصغار نؤمن بأنه يعود بالخير العميم على كل من الآباء والأطفال . وإننا لنأمل أن ينتفع الآباء بهذا الإتجاه فى تناولهم لمشكلاتهم وذلك بأن يغيروا من طرق هذا التناول ، ولكن هنا أمرا يجب أن نحذر منه بهذه المناسبة . هو أنه إذا كان الطفل

قد أخذ بالتهديد وسوء المعاملة وبنظام صارم قاس ، فانه سوف لايستجيب للتغيير فى نوع المعاملة مباشرة ، إذ من المحتمل أن يؤدى هذا التغيير إلى نكسة سريعة وبذلك يعود الآباء — فى فزع — إلى طرقهم العنيفة ، تلك الطرق الضارة ، ولذلك فان قليلا من الصبر لازم فى هذه الحالة ، وعلى المرء أن يصبر على البذرة حتى تؤتى أكلها .

أنه لمن الطريف الشيق أن نرقب سلوك الطفل الذى إعتاد الخشونة والغلظة فى تصرفاته حين يدخل لأول مرة فى غمار مجتمع درج أفراده على النظام الإجتماعى بدلا من أن تستبد بهم يد حديدية وقوة مستبدة غاشمة . إنه قد يلجأ أولا إلى الخروج على النظام والقواعد المرعية داخل الجماعة فى طريقة عنيفة عاتية . ولكنه إن منح الحب والثقة بنفسه والتقدير — على الرغم من سوء سلوكه — فان إنحرافه هذا سيستحيل بسرعة إلى مرحلة تصبح فيها همته منصرفة إلى أن يكون سلوكه من النوع الذى يرتضية المجتمع .

نقل « بيرتى » من بين أسرته التى كانت تعامله فى قسوة إلى بيت من بيوت الحضانة المستنيرة ، بعد أن ارتكب عدة أمور قبض عليه البوليس بسببها ، وامضى فى دار الحضانة عدة أيام هادئا يترقب . فلما لم يجد فى الدار أثرا للعصا أو سوء المعاملة بدأ يلعب دور « الفتوة » فى أرجاء الدار : أخذ يقتنص الدواجن .ويسرق بعض النقود ، واستعار دراجة صاحب الدار ليقوم بنزهة محرمة إلى المدينة المجاورة

فلما حدث منه ذلك أخذ صاحب الدار وزوجه والثلاثة الأولاد يتبادلون الرأى (فقدكان « لبيرتى » رفيقان معه فى الدار) . وقام صاحب

الدار يشرح الموقف وما يتحمله من مسئوليات . وذكر أنه لن يسمح للأولاد أن يتجولوا فى أنحاء الدار إن كان فيهم من لا يوثق به . وأعلن أن للأولاد الحرية فى أن يطلبوا إليه أو إلى زوجه ما يشاءون فى أى وقت . ولكنه لن يتسامح فيما قد يبديه أحدهم من سلوك يقوم على الخداع والتخفى وعدم الروية ، لأن ذلك يجلب الشقاء والتعاسة إلى حياة الجميع . وأن عليهم أن يختاروا أحد أمور ثلاثة : أن يشرع هو لهم قوانين الدار وقيودها ، وعقوبات الخارجين عليها ، أو أن يرحل « بيرتى » عن الدار . أو أن يعمل الجميع على أن يكون سلوكهم حسنا . فأى هذه الأمور يختارون ؟ . أما الولدان الآخران — وكانت الأم قد أوحت إليهما أن يتجنبا الاختيار الثانى ما استطاعا ، فقد اختارا الأمر الثالث وأما « بيرتى » فقد اختار الأمر الثالث أيضا . وعند ذلك أبدت ربة الدار أنها تظن أن « بيرتى » سيفى بما وعد أن حمل مسئولية القيام بعمل من الأعمال المهمة ، ولم يعد « بيرتى » بعد ذلك إلى خلق شىء من المتاعب .

وهكذا ينبغى للآباء الذين يريدون أن « يجربوا طريقة جديدة » أن يكونوا على استعداد للصبر والتريث ، وأن يطول بهم الانتظار .

إنه لا يزال من الممكن اصطناع طريقة الثواب والعقاب فى تربية الأطفال على شريطة ألا ننسى أن أنفس ما يكافؤ به الطفل هو شعوره بتقدير الجماعة التى يحيا معها ، وشعوره بالكرامة نتيجة لما يوفق إليه من أعمال . ولذلك فإنك إن جهدت فى أن تمنحه الثواب بالصورة

التى يفهمها لم تعد بك حاجة إلى توقيع عقاب . إن الطفل فى ٩٩ ٪ من الحالات ينزل به العقاب لأن بعض الكبار قد أخطأوا فى فهمه وتوجيهه .

خلاصة المبادىء التى يقوم عليها الاتجاه الصحيح نحو الأطفال

(١) عليك أن تحب الطفل ، ولكن فى شىء من القصد ودون أن تغرقه بهذا الحب .

(٢) عامل الطفل على أن له شخصيته المستقلة ، ووجهة نظره الخاصة .

(٣) تأكد من أن للطفل رفاقه الذين يحيا معهم حياة جمعية .

(٤) عليك أن تقف الطفل على ما يدور حوله .

(٥) اغرس فى الطفل الشعور بالكرامة واحترامه لنفسه .

(٦) لا تعمد إلى النقد ، ولكن عليك بالتشجيع .

(٧) تحدث إلى الطفل ، لاعن الطفل ، فى حضرة غيرك من الكبار .

(٨) اغرس فى الطفل روح الشجاعة والمخاطرة ، لاتكثر من النواهى قدر الاستطاعة .

(٩) لاتحسبن أن للطفل مالك من احساس بالقيم وقدرة على التفكير ، فإن الطفل حديث العهد بالتفكير واستخدام الألفاظ ، حاول أن تلج إلى عالم الطفل الخاص به .

(١٠) اجعل الطفل يشعر بأنه عضو مسئول من أعضاء الأسرة ، ولذلك بأن تعهد إليه القيام ببعض الأعمال التي تكون في مقدوره .

(١١) إن وجدت الطفل قد ركز انتباهه في شيء فلا تفسد عليه ذلك ، وعليك – إن اضطررت إلى ذلك – أن تقوم بذلك في غاية اللطف . ومعتذراً عما فعلت ، وشارحا السبب الذي دعاك إلى ذلك .

(١٢) التزم جانب العدالة ، وتجنب أن تناقض نفسك في معاملته .

(١٣) لاتحاول أن تثير بينك وبينه خصومات شخصية . وعليك أن تناقشه في سلوكه في غير حدة أو انفعال .

(١٤) عليك دائماً أن تمنح الطفل ما تمنحه صديقك الشخصي من لطف ، واحتفال به ، واحترام له .

(١٥) أنظر إلى ما بين أفراد الأسرة من محبة ومودة على أن ذلك أمر طبيعي سليم ، وتأكد من أن كل فرد يأخذ نصيبه من هذه المحبة والمودة .

(١٦) ينبغي لك أن تجيب عن كل ما يسأل الطفل في بساطة وصدق .

(١٧) لا تحاول البتة أن تخدع الطفل .

(١٨) لا تحسبن أنك وحدك من بين الآباء قد رزقت طفلا مشكلا .

هذه النقاط تلخص الاتجاه الصحيح الذى ينبغى أن يلتزمه الآباء نحو الأبناء فى كل مراحل العمر . صحيح أن طريقة معاملة الطفل فى عامه الأول تختلف عن طريقة معاملة المراهق ، ولكن الاتجاه ينبغى أن يكون واحداً فى كلتا الحالتين — أعنى أن تقوم على الحب والمودة والتشجيع والاحترام ، فإنه لاسبيل بغير هذه إلى تدعيم الروابط بين الصغار والكبار .

الباب الثالث

الشباب من الثالثة عشرة إلى التاسعة عشرة

الفصل الحادى عشر

حاجات المراهقين

تزدحم سنوات المراهقة ، حتى فى أحسن الظروف ، بالكثير من المشكلات المتصلة بالبلوغ ، وبقرب خروج المراهق إلى الحياة ، ويشتد ازدحامها بهذه المشكلات فى عصور التغيير السريع .

وإن أشد من يتأثر بأزمة حضارتنا هذه هم الشبان فى هذه السن ، ولذلك لأنهم فيما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة يزداد ما بينهم وبين العالم خارج الأسرة والمدرسة من اتصال شخصى ، ولو أنه يؤثر فيهم تأثيراً مباشراً ما يجدونه فى هذا العالم من نقص فى القيم الواضحة المحددة المعالم .

لقد كان يستطيع صغار الشبان منذ خمسين سنة مضت أن يجدوا شيئاً من الاتساق بين تلك القيم السائدة فى المنزل والمدرسة والعالم الخارجى ، أما اليوم فإن صغار الشبان لا يستطيعون أن يجدوا على

الاطلاق بمجموعة متسقة من القيم ، بل إن قيم المنزل والمدرسة كثيراً ما تتعارض ، ناهيك بما يؤثر فى نفس الطفل من أشتات القيم التى تسود العالم الخارجى .

فعلى الذين يميلون إلى أن يقسوا فى نقد المراهقين أن يدركوا مبلغ الصعوبة التى يعانيها المراهق حين يضطر إلى أن يشق له طريقا خلال هذه الأحراش من القيم المتضاربة .

فلنلق نظرة سريعة على ما يواجه المراهق من قيم شتى متضاربة ، ففى البيت مثلا نجد أن الدافع إلى الحياة كثيراً ما ينظر إليه على أنه « الحصول على عمل طيب مضمون الربح والدوام » .

أما المدرسة فإنها كثيراً ما توجه همها أولا وقبل كل شىء إلى أقدار الطفل على النجاح فى الامتحان والحصول على الشهادة بالإضافة إلى تعويده « الحياة الطيبة » التى تقوم على أساس من تعاليم الدين التى يفترض فيها أن تتضمن ألا يكلف المرء نفسه عناء التفكير فى المستقبل — وإن هذا لهو نوع من التضارب المفزع الذى يجد المراهق نفسه مضطراً إلى أن يجد لنفسه سبيلا للخلاص منه .

وأما السينما فإنها تجعل من الثراء والجد والعلاقات الغرامية أول ما ينبغى على الإنسان أن يسعى فى تحصيله .

وأما الصحف التى يقرأها صغار الشباب ، فإنها تميل إلى أن تؤكد الفضيلة التى لاشك فيها ألا وهى أن المرء عليه أن يتميز دائما على أقرانه .

وأما الكبار من أبناء هذه المرحلة فانهم عرضة لأشتات القيم التى يقفون عليها من قراءاتهم للصحف السيارة ، والنتيجة النهائية التى تترتب على كل هذه المؤثرات أنه يصبح فى غاية الصعوبة تدريب المراهقين على أن يشبوا مواطنين صالحين متكاملى الشخصية ، يتمتعون بحياة متزنة . إن الشباب — وإن كان تواقا إلى تحصيل أشتات من الخبرة — إلا أنه بحاجة إلى دعامة من القيم الثابتة غير المتضاربة الأمر الذى لا وجود له فى مجتمعنا الراهن على العموم .

أضف إلى ذلك أن المراهق معرض — بحكم كونه على أعتاب الحياة — إلى ما ينشأ عن تعليق الآباء عليه آمالا من توتر ، فقد آن الأوان لتحقق أحلام الآباء والاقارب ، ويصير الطفل رجلا . وإنه لمن أشق الأمور على النفس أن تسعى إلى تحقيق أحلام الآخرين وأمانيهم فى الوقت الذى لا تكون فيه — ولا يمكن أن تكون فيه — على ثقة من قدرتك على تحقيق كل ذلك . فاذا أضفت هذا إلى المشكلات العامة تبين لك مبلغ ما يصادفه المراهق من مشكلات هذه الأيام . وعلى ذلك فلا بد لنا من أن نبذل أقصى ما فى وسعنا حتى نشبع حاجات المراهقين ونخفف من أعبائهم .

على أنه من الضرورى بطبيعة الحال أن نعد المنزل والمدرسة أجزاء من كل واحد يتمم كل منهما الآخر ، ويتعاونان على إشباع حاجات صغار الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة وعلى كل من المدرسين والآباء أن يقوموا بدورهم فى إشباع هذه الحاجات . فان ما يصيبه كل منهما من نجاح أو إخفاق فى هذا الصدد يؤثر بدوره على ما يقوم به الآخر من مجهود .

ولهذا نجد أن المدرسة ذات النظام الصارم الشديد والتى لا تشجع روح الجماعة فيها بين القائمين عليها وبين التلاميذ تفسد ما للمنزل الصالح من آثار طيبة على التلاميذ . والعكس صحيح أيضا ، فان المدرسة التى تسود فيها روح الجماعة الطيبة قد تصلح — إلى حد ما — ما يترتب على سوء المعاملة وعدم الاستقرار فى المنزل من آثار سيئة ولهذا فاننا سنقوم فى هذا الباب بإيراد الامثلة والشواهد من كلا المجالين ، المنزل والمدرسة .

ونحن نحب أن نعتذر مرة ثانية عن أننا لن نعالج الموضوع من كل نواحيه . وذلك لأننا لن نستطيع أن نقدم هنا أكثر من إشارات عامة ، على أمل أننا حين نقدم للآباء والمدرسين خبرتنا هذه سنعينهم على أن يفهموا صغار الشبان . وما قد يبدو منهم من تصرفات مضطربة فى كثير من الأحيان . على أننا إنما نوجه حديثنا بصفة خاصة إلى الآباء ، ذلك لأن المنزل هو أكبر ما يؤثر على الأطفال فى مرحلة المراهقة — وكذلك فى سائر مراحل النمو — إن صغار الشبان فى حاجة إلى حياة عائلية سليمة يتخذون منها دعامة يبنون عليها شخصياتهم فاذا لم تتوفر للأطفال هذه الحياة العائلية السليمة أصبحت شخصياتهم مستهدفة لخطر الانهيار .

فلنحاول الآن أن نتبين حاجات الطفل الأساسية خلال فترة النمو التى يلتحق فيها الأطفال بالمدرسه الثانوية ، أعنى المرحلة فيما بين الثانية عشرة والسابعة عشرة على وجه التقريب (بل إن الأطفال الذين يغادرون المدرسة بعد بلوغهم الخامسة عشرة ليحسون هذه الحاجات نفسها ، على الرغم من أنه قد تضعف حياتهم بالمنزل نتيجة التحاقهم بعمل) .

يحتاج صغار الشبان إلى كمية كبيرة من الغذاء ، وقسط أوفى من

النوم ، وقد يبدو هذا بينا فى غير حاجة إلى إيضاح ، ولكن عدداً كبيراً من أطفالنا لايزالون يعانون نقصا خطيراً فى التغذية ، على الرغم مما تقدمه المدارس من أكواب اللبن ووجبات الغذاء ، كما أن الحرمان من النوم الضرورى أمر شائع فى مدننا الكبيرة نتيجة اكتظاظها بالسكان.
وليس المهم فى التغذية مقدارها وكميتها فقط ، فكثيراً مايرجع سوء التغذية إلى عدم استكمال الغذاء للعناصر الضرورية ، الأمر الذى يجعل صغار الشبان تحت رحمة الكبار الذين يقومون على أمر تغذيتهم . ومن المعروف أن نقص كمية الحديد فى الغذاء قد تجعل الطفل حاد الطبع سريع التهيج مشاكسا ، وأن نقص الفيتامينات قد يجعل الطفل متثاقلا بطيئا ، وأن الإمساك - الذى هو نتيجة سوء التغذية فى كل الحالات تقريبا — يؤدى بصاحبه إلى تبلد الذهن وحدة الطبع . وكذلك تؤدى قلة النوم بالطفل إلى أن يصير أحمقا عنيداً . بليد الذهن خمولا ، لكن صغار الشبان لا يكادون يملكون أمر إشباع هذه الحاجات الجسمية . من ذلك أن إطالة فترة العطلة الصيفية جرت على الأطفال عكس ما كان يتوقع لها من الآثار . فقد أخذت الأسرات تطيل السهر وأصبح الأطفال لا يأخذون حظهم الكافى من النوم لفترة طويلة . وإن لهذه العوامل لأثرها العميق فقد وجد الدكتور « سيرل بيرت » أن نحوا من ٧٠٪ من الأحداث الصغار كانوا يعانون من الضعف الجسمانى وسوء الصحة .

ولكن لنفترض أننا قد أشبعنا حاجات صغار الشبان الجسمية ، فما هى الحاجات الأخرى ؟ يحتاج صغار الشبان إلى العمل والنشاط والتغيير والتجديد على أن يرتكز ذلك كله على دعامة من البيئة المستقرة

المطمئنة . وهم يحتاجون كذلك إلى أن يشعروا بأهميتهم ونجاحهم فيما يزاولون من أعمال — وإنها لحاجة ماسة ، كما أنهم فى حاجة إلى مجال فسيح ينمون خلاله قدراتهم الجسمية والعقلية والانفعالية ، ويحتاج المراهقون إلى الحب والمودة والاحترام وإلى موضوعات وأشخاص تثير إعجابهم ، وغذاء ينمى خيالهم . هم فى حاجة إلى مثل عليا وأهداف تثيرهم للعمل لها . وإلى أن تتاح لهم الفرصة ليخلوا إلى أنفسهم ، وإلى أن تفرد لهم غرف خاصة بهم ما أمكن . هم فى حاجة إلى فترة من الوقت يكيفون فيها أنفسم لما يحدث لهم من تغيرات داخلية ، ولما تتحداهم به الحياة الخارجية من عقبات ، هم يحتاجون إلى التسامح وإلى أن يكونوا بمأمن من السخرية والاستهزاء ، هم يحتاجون إلى من يرشدهم إرشاد الصديق للصديق ، لا إلى من يملى عليهم أفكاره ويفرض إرادته وإلى من يشجعهم لا إلى من يلزمهم بوجهة نظر معينة . إنك إن وفرت للمراهقين هذه الحاجات السالفة كنت على يقين من أنك ستجد حولك شبابا سعيداً قلما يخلقون لك المتاعب ، أما إذا لم توفر لهم ذلك فلن تجد فيهم إلا الوقاحة (والشقاوة) بل قد تلق منهم الغش والجريمة .

إن الحياة تقاوم دائما من يريد وأدها ، وإن الطبيعة لتثور فى وجه من يقف فى طريقها ، وإن وراء كل خصومة شخصية تنشب بيننا وبين المراهقين المهمومين لسببا .. فالحياة تجرف كل من يعترض سبيلها .

نتبين من هذا العرض أن مادة التاريخ وعلم الجغرافيا ونظريات فيثاغورس) والامتحانات ليست مما يحتاج إليه المراهق ، فهى ثانوية

الأهمية ، إن أردت أن تنشىء رجالا ونساء فعليك أولا أن توفر لهم الغذاء الجسمي والنفسي والانفعالي الذي بدونه لا يستطيعون أن يتموا قدراتهم ، إنك إن حققت ذلك أولا وفى اتقان سهل عليهم بعد ذلك أن يتزودوا بالعلم والمعرفة .

إن كثيراً من الآباء والمدرسين ليرتكبون خطأ فاحشا حين يغفلون العمل على إنماء شخصية أولادهم من جميع نواحيها فى سبيل حشد ذهن الطفل بمعلومات ينظر إلى من اكتسبها على أنه قد نال حظا من التربية والتعليم . معلومات تعود على صاحبها بمزايا اجتماعيـــة واقتصادية فى العالم الخارجى .

وهكذا تمضى السلطات التربوية — عاما بعد عام — ويشايعها فى ذلك كثير من الآباء والمدرسين — فى تخريج شبان قد اتخمت رؤوسهم وخوت قلوبهم ، وفى استبعاد عدد كبير من الأفراد الذين لا جريرة لهم إلا أنهم لا يستطيعون أن يلائموا بين أنفسهم وبين هذه الامتحانات الصارمة التى تضعها هيئات التفتيش ، يحدث هذا فى الوقت الذى لا يكاد يلتفت فيه إلى إنماء الشخصية والعواطف ، وتدريب الشبان على تحمل المسئولية ، وعلى أن يكونوا مواطنين ديمقراطيين ، وعلى الاستفادة من وقت الفراغ .

الحق أننا نقصر — فى هذه الأيام — فى اشباع حاجات أبنائنا المراهقين ، وإنه لمن المؤكد أننا إن عاملنا أطفالنا الصغار بمثل هذا التجاهل لحاجاتهم الأساسية لكنا سببا فى أن يقضى أكثرهم نحبه ، وإن تجاهلنا لحاجات المراهقين لمعناه أننا نحكم على أكثرهم بسوء

التكيف للحياة ، لكن شبابنا الصغار — لحسن الحظ — يعملون جاهدين على إحباط كل مؤامرة لتحطيم شخصياتهم ثم هم بعد ذلك لا يسلمون من الاتهام بالعناد ، وصعوبة القياد وعدم الميل إلى التعاون وما إلى ذلك ، لأنهم يحاولون محاولة المستميت أن يحفظوا على أنفسهم شخصياتهم . لكن كثيراً منهم يخسرون المعركة التى لا يدخلها أحدهم ويخرج دون أن يمسه سوء .

أهداف ضالة

سنورد هنا بعض الحقائق التى توضح ماقلناه حتى لايظن بنا الغلو والمغالاة . يأسف جميع من اشتغل بالتدريس فى المدارس الثانوية النظرية لما يصيب التلاميذ ، فيما بين السنتين الأولى والثالثة الدراسيتين من انحطاط عقلى وتناقص فى الحيوية . ذلك أن التلاميذ يدخلون مدرستهم الجديدة فى سن الحادية عشرة وما فوقها ، وهم أشد ما يكونون توقداً وذكاء وإشراقا ، فخورين بأن المدرسة قد اختارتهم دون سائر الأقران ، ولذلك فان نفوسهم تمتلىء بأحاسيس عارمة من احترام الذات والثقة بالنفس والتفتح للحياة والاستمتاع بها .

فما الذى نجده بعد سنتين ؟

أما بعضهم وقد لايزيد على الثلث ، فلا يزال على عهدنا به من إشراق وتوقد وحيوية ، وأما الباقون فاننا نجدهم على درجات متفاوتة من القنوط واليأس ، قد انهمكوا فى محاولة التعويض بكل طريق مستطاع عن إحساس عميق بالفشل والقصور ، وكذلك يبدو عليهم الخمول

وتبلد الحس ، وينظر المدرسون إلى هذه الظاهرة الغريبة على أنها أمر غير طبيعى تماما ، على حين يأسف الآباء لهذا التدهور غير المتوقع الذى أصاب قدرات أولادهم . ويعلن المدرسون والآباء على السواء أنهم لا يستطيعون لتلك الظاهرة فهما ، ويعضون لأعمالهم وهم يهزون الرأس أسفاً على هذا الامر العجيب ، لكن قليلا منهم من يظن أن السبب فى ذلك هو فى الطريقة التى عومل بها الطفل .

لنضع أنفسنا هنيهة موضع هؤلاء الشبان الصغار ، غير المرضى عنهم . إنك قد نجحت بتفوق فى الشهادة العامة وأنت لا تزال بعد فى الحادية عشرة ودخلت مدرستك الجديدة وأنت تمتلىء شعوراً بأهميتك وثقة بنفسك . ولكنك لم تجد منصرفات عامة لذكائك العام وإنما فرضت عليك موضوعات دراسية معينة يسمونها الجبر والهندسة واللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية والفن والأشغال اليدوية وما إلى ذلك . فلا تمكنك مواهبك من أن تظهر التفوق فى هذه المجالات الضيقة . والمدرسون يقدرونك بمبلغ قدرتك على القيام بهذه الحيل (الأعمال) الأكاديمية (الدراسية) التى يقومون بتدريبك عليها حتى تجتاز بنجاح إمتحان الشهادة العامة فى نهاية المرحلة الدراسية .

ولكن ، هب أنك ضعيف فى مادة الرياضة أو اللغة الفرنسية . إنك تظل ثلاث سنوات تتجرع الأخفاق فى كل يوم (حتى تبلغ الرابعة عشرة) وتظل تعجز عن الإجابة عن الأسئلة ، ولا تبلغ الدرجة التى يرضى عنك الناس عندها ، وتأتيك (البطاقة المدرسية) فى نهاية كل فترة تشهد بأنك لا تزال على حالك من الضعف وتعلن ذلك لكل أفراد

الأسرة ، وربما لم تكن أقل شأنا من غيرك ، ولكن الأعمال المدرسية تشهد عليك بالعجز والقصور ، وتخرج من الآمال العظام التى كانت تجيش فى صدرك قبل ثلاث سنوات فقط إلى الاعتقاد بأنك شخص فاشل يشهد له الناس جميعاً بهذا ، فلا عجب أن كان هذا فوق ما تطيق ، خصوصا وأنت تجابه كذلك مشاكل المراهقة فى نفس الوقت . وتستبد بك الحاجة إلى وسائل أخرى تؤثر بها فى الناس . فتستحيل عندئذ إلى إنسان وقح ، صاخب ، غير منظم ، عابس ، شرير ، أشبه ما تكون بالنمر المتجهم الضارى (وان ذلك لأمر طبيعى) ويعجز من حولك عن ادراك « ما دهاك » فيأخذون فى تأنيبك ونصحك وتهديدك ، ويدفعك هذا إلى أن تظل سادراً فى غيك .

ثم تسدل الستار على القصة فى السنة النهائية من السنوات التى تقضيها فى المدرسة ، حين تتقدم إلى الامتحان ، فترسب . أما مدرسوك فيزفرون زفرات الارتياح أن قاموا بواجبهم نحوك ، وأما ذووك وأصدقائهم فيعدون رسوبك كارثة شنعاء ، وأما أنت فقد ظللت نزيل المدرسة خمس سنوات كاملة والآن يتركونك تنسل منها دون أن تأخذ منها لنفسك شيئا تعتز به ، اللهم إلا مجموعة من التقارير المدرسية تغطيها الكلمة الكريهة « راسب » . مثل هذا يحدث لما لا يقل عن أربعين فى المائة ممن يدخلون المدارس الثانوية النظرية . وإن أطباء الأمراض النفسية ليشهدون على ما يحدثه هذا الاخفاق من آثار سيئة فى نفوس الأطفال .

وكذلك يترتب على الأهداف الضالة ، والاهتمام بما لا ينبغى الاهتمام به ، وقلة المنافذ التى تتصرف فيها القوى الابتكارية ، من الآثار السيئة

فى المدارس الثانوية الأخرى ما يترتب عليها فى المدارس الثانوية النظرية ، وذلك لأن عدداً قليلا من المدارس المستنيرة هى التى تتجنب مثل هذه المزالق . بل إن التلاميذ الناجحين ليتأثرون بما يلقن لهم من قيم باطلة ، تكون نتيجة هذا الإتجاه التربوى القائم على النفعية ، و ليس أدل على ذلك من أن القائمين على شئون التعليم فى الجيش وجدوا أن الجنـــود يخشون و يتهربون من كل ما يتصل « بالمدرسة » وأن كلمات مثل « المدرس » ، « الفصل » ، « المحاضرة » كفيلة بأن تقتل فيهم كل اهتمام بأى نشاط تعليمى . ولهذا فإنهم يرون أن التربية لا تعينهم على بلوغ الحياة السعيدة الكاملة وإنما يرون فيها عائقاً عن كل ذلك ، وذلك لأن المدرسة كانت قد أشعرتهم بالعجز والقصـــور لدرجة أنها صارت اليوم لا تعنى حين يذكرونها أكثر من فترة كريهة من القهر والإعاقة .

فرانك نجم من نجوم المسرح

حالة « فرانك » من الحالات الفردية التى تكشف لنا عن قلة ما يتيحه الجو الدراسى المفرط فى الناحية العلمية من فرص للمراهق تعينه على أن ينشأ مواطناً صالحا .

كان « فرانك » أحمر الشعر ينبض بالحيوية . ولكنه كان متخلفاً فى المواد الدراسية ، عاجزاً فى الألعاب الرياضية ، ولذلك فانه سرعان ما فقد ثقته بنفسه وإحساسه بقيمة ذاته . وتحول خلال السنتين الثالثة والرابعة الدراسيتين إلى شخص يشق به الجميع ، كسولا ، وقحا ، يكثر الهرب من المدرسة ، ورأى المدرسون أن من الأفضل طرده من المدرسة ، وتوسل أبواه إلى المدرسين أن يلتزموا جانب الحزم فى معاملته . لكن

« فرانك » كان يزداد إصراراً على العناد كلما ازداد أخــذه بالشدة والعنف ، وشهدت بداية السنة الخامسة « لفرانك » بالمدرسة تحولا خطيراً فى حياته .

كانت المدرسة تتأهب لتقديم مسرحية من مسرحيات « الكريسماس » وكانت بحاجة إلى تلميذ طويل القامة أحمر الشعر ليقوم بدور البطل فى الرواية . واختير لهذا الدور تلميذ سرعان ما أصيب بجدرى بعد أن بدأ يتمرن على دوره . وبعد أسبوع كسرت ذراع من خلفه ، ولذلك فقد أصاب مخرج الرواية كثير من اليأس والقنوط ، وكان لا بد من إتخاذ إجراء سريع ، ولكن لم يكن هناك من تتوفر فيه صفات البطل الجسمية غير « فرانك » قوة فى الذاكرة أو قدرة على النهوض بالدور ، وأكثر من هذا أنهم كانوا يشكون فى قدرته على أن يوكل إليــه تمثيل الدور وتحمل هذه المسئولية . غير أن واحداً من المدرسين رأى فى « فرانك » غير ما رأى سائر المدرسين ، وأغراه أن يقبل الدور ، حتى استبدت به الرغبة ، وسمح له بأن يقوم ببعض التجارب .

وبدا على « فرانك » منذ البداية أنه قد استحال شخصاً آخر ، فقد أتقن دوره فى عشرة أيام . وكان يتمرن على دوره هذا مع نفر من أصدقائه فى منزله ، كما كان ينتهز كل بضعة دقائق تتاح له فى المدرسة لكى يتمرن على المواقف الصعبة . وجاء اليوم الأكبر ، يوم التمثيل ، وتبرم المخرج من بعض الأمور ، لكن « فرانك » لم يكن من بينها على أى حال ، فقد نهض بدوره خير نهوض حتى جعلت منه إحدى صحف المنطقة نجما من نجوم المسرح . ولم يعد « فرانك » يخلق المتاعب لأحد طوال فترتى

الربيـع والصيف ، كما اجتاز امتحانه النهـــائى بنجاح وقد تفوق فى مادتين .

ما السر فى هذا التحول ؟

لقد وجد « فرانك » لنفسه مكاناً فى مجتمع المدرسة ، بعد أن ظلوا ينكرون عليه ذلك ، ولذلك فقد استعاد تقديره لنفسه ، ولم يعد فى حاجة إلى أن يستعلى على العمل ليعوض بذلك عن إحساسه بالفشل . ولم يعد يجد من الوقت ما ينفقه فى التسكع مع عصابة من الشبان غير الموفقين فى دراستهم كان يرافقهم من قبل ، إذن لقد بلغ الغاية فأصبح شيئاً مذكوراً ، وأحرز لنفسـه نجاحا فى المجال الاجتماعى ، ولم يعـد بحاجة إلى أن يشبع فى نفسه حب الظهور بالعنف والوقاحة .

إن «فرانك» لسعيد الحظ ، فكم يدفع إنعدام الإحساس بالنجاح ـ ذلك الإحسـاس الذى لا يتحقق إلا بالمنهج الدراسى الغنى الواسـع ـ الآلاف من صغار الشبان إلى أن يشقوا بأنفسهم ويشقى بهم من حولهم ، إن كل نظام تعليمى لا يبقى على ما يشعر به طفل فى الثانية عشرة من عمره تبدو عليه مخايل الذكاء والاقتدار من شعور بأهميـة نفسه وإقباله على الحياة لهو نظام تعليمى فاشل علينا أن نعيد تشكيله من أساسه . لكن شيئاً من هذا لا يحدث لسوء الحظ ، ذلك لأن الآباء أصابهم من العمى ما أصاب المدارس العادية ، فأصبحوا يرون أن اشتغال التلميذ بما لا يؤدى مباشرة إلى النجاح فى الامتحان أو الحصول على عمل طيب مضيعة الوقت .

توم يستحيل شخصا آخر

يقدم لنا « توم » مثلا آخر فقد استحال كذلك من شخص يضيق به الجميع إلى شخصية نافعة مثمرة حين استعاد احساسه بقيمة ذاته ، ذلك الإحساس الذى كان قدفقده خلال السنتين الثانية والثالثة بالمدرسة اللتين كان يشق فيهما بالمواد الدراسية ، دون أن يكون نصيبه منها الا أن يوصف بأنه «العاجز» الضعيف « لا يكاد يبدى اهتماما بدروسه» وما إلى ذلك من تعليقات موجهة وميئسة ، ثم واتته الفرصة من خارج المدرسة فكون لنفسه هواية اصلاح الراديو ، وذاعت شهرته فى ذلك حتى أن كثيراً من المدرسين أخذوا يستأجرونه لإصلاح أجهزتهم ، ولقد أعانه اعتراف من حوله بنفعه على هذا النحو على أن يستعيد ثقته بنفسه واعتداده بشخصيته ، ولم تتحسن حاله فى الدروس النظرية فحسب ، بل إنه ازداد كذلك مهارة فى الألعاب الرياضية ، كما ازداد احساسه بالمسئولية ، وامتنع عن مرافقة إخوان السوء بالمدرسة الذين كان ينضم اليهم كل من يشعر بأنه ملفوظ منبوذ من مجتمع المدرسة .

دعهم يدلون بآرائهم

لابد لنا من أن نذكر كذلك نوعين آخرين مما يشترك فى ارتكابه كل من الآباء والمدرسين من أخطاء ، ذلك أن الآباء والمدرسين يزعمون أنهم تواقون إلى أن يعود أطفالهم على أن يكونوا على صلة طيبة بالمسئولين عنهم ، وأن ينموا فيهم الإحساس الصحيح بالمسئولية . يحدث هذا فى الوقت الذى يقفون منهم موقف المستبد ، وإن فى هذا السلوك

لتناقضا عجيبا . فالاستبداد بشتى صوره يفســـد ما بين الأشخاص من علاقات طيبة ، ولهذا فهو يحول بين الأطفال وبين أن ينموا فى أنفسهم اتجاها سلبيا نحو السلطة المسئولة عنهم من جهة ، وبينهم وبين الإحساس بالمسئولية من الجهة الأخرى ، على حين أن إشراك صغار الشبان — إلى أقصى حد مستطاع — فى شئون المنزل والمدرســـة يتيح لهم الشعور بالانتماء إلى الجماعة ، ويفيد مما لديهم من استعداد للتعاون ، درب الشباب على أن يحترم نفســه يحترمك ، أكد لهم أنك تقدر ما يسهمون به حق قدره وذلك لكى يتعودوا أن يفكروا ويسلكوا تفكير من يحس المسئولية وسلوكه ، إنه لمن الظلم البين أن تحرم المراهق من أن يكون له رأيه فى شئونه الخاصة ، وألا تضع رغباته موضع الاعتبار والتدبر ، ثم تتوقع منه فى الوقت ذاته أن ينشأ شخصاً مسئولا فى اتجاهاته وأنواع سلوكه .

ولقد وقع فى خبرتنا منذ وقت قريب مثال نموذجى لما يقع فيه الآباء من أخطاء فى هذا الصـدد ، كان الوالد — الذى لم تكن تبدو عليه القسوة يصر على أن يشرف على توجيه حياة ولديه البالغين الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمريهما ، ولم يكن يسمح بحال من الأحوال أن يبرم أمر دون أن يكون له الرأى الراجح فيه . كان ذا روح عملية يسره أن يصرف بنفســه شئون الجميع ، وكان يسيطر على أسرته ، حتى إذا حاد أحدهم عن رأيه سكت حتى ينتهى الأمر لينحى باللائمة على المخالف وليبين له مدى ما تورط فيه من حمق حين أهمل نصحه ، لـكنه كان إذا أراد انجاز شىء لجأ إلى أطفاله يسألهم تنفيذ ما يريد . وقد يقول هذا

ماأريد لكم أن تفعلوا ، انكم مسئولون شخصيا عن أداء هذا العمل» .
ومن الطبيعى أن هذا التصرف من الوالد ليس فيه اشراك لأولاده فى
المسئولية ، ولذا فقد كان من الطبيعى ألا يتحمس الشباب لمثل هذه
المسئولية المفروضة عليهم ، وأن يقوموا بأداء هذه الأعمال فى غير
اكتراث ، مما جعل الأب يشكو فى الحال أنهم قد خيبوا أمله ، معلنا
أن مثل هذا الاهمال دعم رأيه فى ضرورة الاشراف المباشر على الأولاد
إن أردت أن يحسنوا أداء ماطلبت اليهم أداءه . وما أحوج هذا الأب
إلى أن يعرف أن الأطفال لايبذلون قصارى جهدهم إلا إذا عاملناهم كما
نعامل غيرنا من الكبار ، وأنهم يكرهون أن يدفعوا إلى العمل أو
أن يترأس عليهم فيه أحد .

أما الخطأ الثانى فانه مرتبط بالخطأ السابق ، فمن الظلم والتهور أن
نزج بصغار الشبان إلى هذا العالم المضطرب دون أن نكون على يقين
من أنهم قد اكتسبوا المعايير الصحيحة التى يعيشون على هديها ، والعقل
الذى درب على أن يحسن وزن الأمور والحكم على الأشياء ، ونحن إن
ظللنا نقول للطفل . «لاتجادل أباك» و «ينبغى ألا تعارض مدرسك» ،
فاننا لن ننشىء شخصيات يعتمد عليها ، وإنما سنظل نخرج عقولا غير
متزنة ميالة إلى الاعتداء وعلى استعداد لأن نقع فريسة لأى واحد
من قادة السوء . إن المدرسة تستطيع أن تفعل الكثير لتنمى القدرة
على الحكم ، وذلك عن طريق مايدور فى الفصل بين الحين والحين من
مناقشات تشوق التلاميذ حقا ولا يكون المدرس فيها رئيس المناقشة وإنما
تكون الرئاسة لأحد التلاميذ فى الوقت الذى لا يزيد دور المدرس فيه
عن مجرد الاشتراك فى المناقشة .

أما فى المنزل فينبغى أن تقوم كل المناقشات العائلية على أساس من الود والتفاهم ، دون أن يندفع أحد الأبوين إلى أن يقول « أنا أعلم لأننى أعلم » .

إنه لمن الخطأ الفاحش أن تظن أنك إن سلمت برأى من هو أصغر منك سنا فقد أهنت كرامتك ، وإن التزام جانب العدل فى المسائل العقلية لتزيد من احترام المراهق للكبار . فلاتخشى شيئاً من الاعتراف بالخطأ ، فانه لاسبيل إلى أن يشيع الاحترام بين الناس إلا على أساس من الأمانة والعدالة . وأن ما نلحظه على بعض الشبان من صفاقة وميل إلى العدوان ، وادعاء العلم بكل شىء ، لايرجع إلى المناقشات التى تقوم على الأمانة وتحرى جانب الحق ، والتى يحدث فيها أن يسلم المدرس أو الأب بين الحين والحين بوجهة نظر الطفل ، وإنما هى نتيجة مباشرة لأولئك الآباء والمدرسين الذين يدعون العلم بكل شىء .

الوفاء للحياة

لنا فى النهاية كلمة عن الأغراض التى هى بمثابة المبدأ المنظم للحياة العقلية ، لابد للأطفال قبل أن تتفتح قدراتهم من أن يدركوا الغرض من الأعمال التى يقومون بها ، إن الطفل لايستطيع أن يمضى لعمل لايدرك الغرض الذى يدفع إليه . وقد تبين بطلان علم النفس الذى ينادى « إجعلهم يعملون » وأصبحت النصيحة الوحيدة التى ينبغى الاستماع إليها « اجعلهم يريدون أن يعملوا » ولاتؤتى هذه النصيحة ثمارها إذا كان اتجاه الطفل ضيقاً مادياً منعزلا عن الخبرة ، عاريا عن الشوق ، وعلى ذلك فلابد من أن يكون اتجاه الطفل واسعاً خصب الخيال وثيق

الصلة بالحياة ــ الحياة الحقة ــ الحياة التى تشوق صغار الشبان الحياة الفتية القوية الزاخرة .

إن الأطفال يحبون أن ينظر إليهم على أنهم قادرون على بذل المساعدة موفقون ، مرضى عنهم ، فان بدا أنهم على عكس ذلك كان معنى هذا أننا معشر الكبار قد قلبنا عالمهم رأسا على عقب بسوء معاملتنا لهم ، ومعلوماتنا الضحلة ، وأغراضنا المحدودة ، أننا نحاول أن نقرهم على أن ينظروا إلى الأشياء من وجهة نظرنا الخاصة ، فيناضلون عندئذ المستبدين بهم ، ثم نعود فنشكو مقاومتهم لنا . وإن نضالهم فى سبيل حرية الفهم أشبه بنضال أبناء الوطن فى سبيل حرية وطنهم ، وإنه لمن طبيعة الحياة أن يقوموا بهذا النضال ، أما نحن معشر الكبار فاننا نضطرهم إلى ذلك النضال .

وقد تبين للمؤلفين من تحليلهما لكل مادرسناه من حالات الصراع بين صغار الشبان وبين المجتمع أن الطفل هو الوفى للحياة ، وأن المجتمع هو الخارج عليها . إن صغار الشبان يحتاجون ويقدرون ما يقدمه الكبار لهم من معونة وتوجيه . وهم لا يحجمون عن أن يتعاونوا معنا وعن أن يعملوا من أجلنا مادمنا نساعدهم على أن يمضوا فى سبيل الحياة ، ولكن الذى يحدث فى كثير من الأحيان أنهم يسألوننا الخبز فنقدم لهم الحجارة ، ونظل نؤكد لهم كاذبين أن مانقدم لهم هو الخبز الذى يقيم الحياة .

علينا إذن واجبات ضخمة نحو المراهقين ، لكننا نعجز عن فهمهم

وإشباع حاجاتهم ، وإن هذا الخطأ ينبغى أن يقوّم ، فان مايسود بيننا من عدم التفاهم ايؤدى إلى مالاحد له من الشقاء وضياع الجهود ، وأنه لايسلم من المراهقين إلا أشدهم بأسا ، وإن أكثرهم ليصعب عليه أن يبرأ من تلك الخبرة المرة ، خبرة الشعور باليأس والخيبة التى ترجع إلى سوء معاملة الكبار .

رسمنا فى هذا الفصل الخطوط العريضة لما نراه من أخطاء ترتكب فى معاملة المراهقين ، والآن نعود فنسرد عدداً أكثر من الحالات نكمل بها إيضاح النقاط التى أثرناها فيما سبق . ولكى نزيد من إيضاح ذلك الاتجاه الذى ينبغى أن نصطنعه بازاء الأطفال، والذى يمكن عن طريقة أن نقيم الصداقة الوطيدة بين الأجيال .

الفصل الثانى عشر

على أعتاب الحياة

هارى يضع قدميه على الطريق

كان « هارى براون » بطىء النمو ، مشوه الخلقة ، فلم يكن لذلك ولغيره من الأسباب مصدر فخر لوالده فى المدرسة ، وكان السيد «براون» بائع خضر ، طموحا ، يعلق على نفسه وعلى إبنه آمالا كباراً . ولكنه بدلا من أن يبذل قصارى جهده ليتغلب ولده على مشكلاته فى المدرسة بأن يغرس فيه ثقته بنفسه فى المنزل ، أخذ يؤنبه ويعنفه مما زاد من فقدانه لثقته بنفسه . وكان السيد « براون » كثيراً ما يستخدم ولده ليعينه عند إنتهاء عمله آخر اليوم أو ليعينه عند الازدحام بالعمل أيام السبت . ولم يكن «هارى» يلقى من والده طوال اليوم إلا «يالا ياواد يامكسح» «أهوده كل اللى إنت تقدر عليه» وأصبح «هارى» كثير الهم عبوسا وبدأ يسرق الفاكهة من الحانوت ليأكلها أو ليطعمها أصدقاءه وكانوا جماعة من الغلمان على شاكلته حيل بينهم وبين رغباتهم ، فكان من الطبيعى أن يجتمعوا على مناصبة المجتمع العداء كتعويض عمافقدوه من تقدير فى المجتمع المحترم ، وغدا «هارى» فظا غليظ القلب ، يشب الشجار بينه وبين مدرسيه دائماً ، وكذا أبويه .

فلما بلغ «هارى» الخامسة عشرة توفى والده ، وأشرف عمه على

الحانوت ، وانتقل ليعيش مع «هاري» وأمه . وكان «هاري»حين رأى ذلك العم عدة مرات من قبل قد أحبه . وأخبرالعم «هاري» حين اجتمع به لأول مرة فى الحانوت .. أنت تعلم«ياهاري»أننا سندير هذا الحانوت سويا ، وأننى لا أعلم الكثير عن شئونه ، سأعتمد عليك لتبصرنى بما أجهل . واستجاب «هاري» فى الحال ، وما زال بأمه وعمه حتى سمحا له بترك المدرسة ، وبدأ عندئذ يعمل فى الحانوت حتى أصبح الساعد الأيمن لعمه .

وعاد «هاري» إلى مدرسته القديمة بعد أن انقضت ستة شهور ليقوم بجولة يزور فيها أصدقاءه ومدرسيه . وقد بدت عليه آمارات الشخصية الناضجة . وكان مما جرى به حديثه فى شيء من الكبرياء «لقد قمنا بعمل هذا» ، «لقد صممنا على أن نفعل ذاك» وراع مدرس الرياضة — وكان قد قال ذات مرة أن لا أمل يرجى من « هاري » — أن يجد « هاري » يتحدث بمثل هذه السهولة عن التكاليف والأرباح ولم يدر كل من فى المدرسة أكان «هاري» يصدقهم القول أم يخدعهم بهذا المظهر . ولكنه لم يكن يخدعهم . فقد كان عمه يقول إنه لا غنى للدكان عن «هاري» .

إن الشعور بالكرامة واستعادة الثقة بالنفس ليفعلان فعل السحر فى تقويم الشخصية المعوجة . وإنه لمن الوحشية أن نحرم صغار الشبان من كل ما يؤدى بهم إلى تقدير الذات والاعتزاز بالنفس وما أكثر ما يستطيع الآباء والمدرسون أن يوفروا على أنفسهم وعلى الصغار من بأس وشقاء ، لو أنهم أدركوا تلك الحقيقة . إياك أن تقول للطفل إنه عديم الفائدة ، وإنما عليك أن تعامله بكل احترام على أن له شخصية .

ثق بالطفل وستجد أنك كنت على حق حين جعلت منه موضعا لثقتك .
أما إن لم تثق به ، فإنه سيكثر من ارتكاب الأخطاء التى كانت سببا فى أن فقدت ثقتك به .

« أريك » لا يحسن الا اللعب

الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والرابعة عشرة والذين لا يشغلون أنفسهم إلا بالتفكير فى كرة القدم ، وغيرها من الألعاب ، وينصرفون عن دروسهم ما أمكنهم ذلك هم مصدر قلق دائم للآباء . وأن أمثال هؤلاء الأطفال لغير مخطئين فيما يفعلون « إهمال العمل وإتقان اللعب » . فهم ليسوا سوى طائفة من الصغار الأسوياء الأقوياء الذين يستجيبون لبيئتهم إستجابة طبيعية ذلك أنهم فى حاجة — كما قلنا مراراً — إلى أن يجدوا التقدير من الجماعة التى ينتمون إليها ، وإلى الشعور بالكرامة ، كما أنهم بحاجة إلى أن يشعروا بأنهم أعضاء فى الحياة الفعلية لهذا المجتمع . واللعب يشبع هذه الحاجات ، على حين أن المواد الدراسية لا تكاد تشبعها . لهذا كانت كرة القدم أولى بالإهتمام فى نظر « أريك » من الجبر واللغة الفرنسية . فالصحف تفرد لها الأعمدة الطوال والسينما تقوم بتصوير مناظرها . والجماهير الغفيرة تقصد إلى مشاهدتها فى كل أسبوع . بل إن « أريك » كثيراً ما يسمع الناس يتحدثون عنها فى المركبات العامة ، بينما المواد التى يطلبون منه إستيعابها فى المدرسة منعزلة عن الحياة ، يجهلها كل الناس عدا نفر من المدرسين — الذين يؤمنون بأهميتها لسبب ما — ويشاركهم فى ذلك الآباء والأمهات الذين يبدو أنهم وقعوا تحت تأثير المدرسين .

فما العمل إذن ؟

إن وجهة نظر اريك منطقية معقولة ، ولكننا لا نستطيع أن ندعه عند هذا التفكير ، وأن ما ينبغي علينا أن نقوم به هو أن نثير فيه الدافع ، بأن نوقظ فيه خياله بدلا من أن نضع نصب عينيه أغراضاً عقيمة يسعى إليها كالنجاح فى الامتحانات أو الحصول على عمل . علينا أن نجعله يحس الحاجة إلى أن يتعلم الجبر وغيره من المواد الدراسية ، وذلك بأن نجعله يحس مالها من قيمة راهنة ، فلو أننا دعونا للمدرسة أحد الذين يقومون بتصميم الطائرات ليبين « لاريك » وزملائه الدور الذى يقوم به الجبر والهندسة فى الحصول على أحدث ما توصلت إليه البشرية فى الطائرات السريعة ، لاستثار ذلك فى الحال اهتمامهم بهاتين المادتين واقبالهم عليهما ، وكذلك نستطيع أن نستل مافى نفس «اريك» من عدم تذوق للغة الفرنسية بأن نظهره على الصحف والمجلات الفرنسية . اجعل « اريك » يتمنى أن لو استطاع قراءة ما تحت الصور من كلام ، فإنه عند ذلك سيغير رأيه فى ضرورة حفظ الأفعال الشاذة فى اللغة الفرنسية ، إنه لمن العبث أن تستثير الطفل للعمل من أجل أغراض بعيدة فقط . وإنما ينبغى لنا أن تحقق له الشعور العاجل بالنجاح فيما يقوم به من أعمال . كذلك ينبغى أن نربط هذه الأعمال بالحياة كما يفهمها .

وبعد ، فما رأيكم — معشر الآباء الأعزاء — لو أن واحداً من الناس طلب إليكم أن تتوفروا على دراسة اللغة الصينية حتى يمكنكم

أن تجتازوا امتحانا سيعقد بعد خمسة عشر عاما يحصل من ينجح فيه على وظيفة استم تحسون الرغبة فيها والميل إليها . أتراكم تقبلون على هذه الدراسة فى حماس يوما بعد يوم؟ إن هذا لهو ما تطلبه إلى «اريك» وأمثاله من التلاميذ الذين لا تطمئن نفوسهم إلى أن الحياة ستستمر عامين يتحقق لهم بعدهما ما يمنيهم به الكبار ، إن ما يفتقر إليه الكبار من قدرة على التخيل لهو السبب فى أكثر المشاكل التربوية .

اياك وهؤلاء الأولاد الشريرين

كان «نورمان» فى الثالثة عشرة من عمره ، وكانت أسرته قد انتقلت قريبا من ضاحية راقية من ضواحى لندن إلى مدينة من مدن الأقاليم ، حيث أقامت الأسرة فى بيت لم تجد سواه ، وكان أبناء الحى الذين فى سن «نورمان» من سوء الحال بحيث أشفقت على ولدها من مرافقتهم . ولكنها رجت أن يعمد ولدها إلى مصاحبة أولاد أفضل من ذلك من بين تلاميذ مدرسة ثانوية التحق بها . وكانت فى ناحية أخرى من نواحى المدينة ، ولكن «نورمان» كان وحيداً . كان قد خلف أصدقاءه فى لندن ، وكان يعامل معاملة الغريب فى مدرسته الجديدة ، كما كان أبناء الحى يعدونه «الطفل المرهف» ويطلقون وراءه صيحات الهزء والاستخفاف .

كان «نورمان» عائداً ذات يوم من مدرسته فرأى جمعاً من أبناء الحى يلعبون كرة القدم إلى جوار مخزن ، فسرعان ما وقف بينهم وأقبلت الكرة نحوه ، فتأهب لردها ، فصاح به أحد اللاعبين — بعد أن رأى

فيه ذلك الوافد الجديد ـــ « احذر أن تصيب نفسك بسوء يا « حضرة الكتكوت » ، وما أن سمع هذه الكلمة حتى استشعر في نفسه القدرة على اللعب ، وجرى نحو الكرة ليضربها بقوة وعنف فإذا بها تصيب الهدف ، وإذا برئيس الفريق يصيح في إعجاب « جول » وشهد مساء ذلك اليوم « نورمان » وقد انضم إلى الفريق لقد وجد الفريق الذي كان ينشد الانضمام إليه ، لكن أمه روعها ذلك ، وأخذت تبين له بأوضح ما تستطيع أنها لا يرضيها أن يلعب ولدها مع أمثال هؤلاء الأولاد الشريرين ، ونجم عن ذلك شجار متصل صاخب بينهما ، وانتصرت الأم في النهاية . ولم يعد « نورمان » يمضي للقاء أصدقائه بعد تناول الشاي ، ووعدته أن تعمل على الحاقه في القريب بفريق المدرسة ، وبدا لها في النهاية أن كل شيء قد أصبح على ما يرام ، ولكن « نورمان » لايزال وحيداً ، إنه لم يكن قد انضم بعد إلى مجموعة من الرفاق في المدرسة .

ومضى على ذلك شهران تبين بعدها أن « نورمان » كان يتغيب بانتظام عن المدرسة في فترة الغذاء زاعما أنه إنما يتناول غذائه في منزله . ولكنه كان ينفق ساعة الغذاء في كرة القدم مع بعض أبناء الحي في إحدى حدائق المدينة . أما الطعام فقد كان يكتفي ببعض الفطائر يتناولها وهو منهمك في اللعب ، وكذلك كان يفعل سائر اللاعبين . هل ننظر إلى الأمر على أن جماعة من الأولاد الشريرين قد « أغروا « نورمان » بأن يتنكب طريق الرشاد ؟ ليس الأمر كذلك

أبداً . وكل ما هنالك أن الأم قد نسيت مبلغ قسوة الوحدة على ولد فى الثالثة عشرة من عمره .

إن الإنسان لا يستغنى فى أى مرحلة من مراحل العمر عن أن تكون له حياة اجتماعية ، وأن ينتمى إلى جماعة أو عدة جماعات تكون من السعة ، بحيث يستطيع أن يشارك فيها كشخص له قيمته وأهميته . والجماعة الصغيرة من الرفاق هى الوحدة التى يتألف منها المجتمع .

وتمتاز جماعة الرفاق الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة بأنها عصبة سرية من عدد محدود لا يقبل الزيادة من الرفاق ، فإن كان هؤلاء الرفاق لم يجدوا الإشباع الكافى فى المنزل والمدرسة للروح الإجتماعية عندهم جنحت العصبة إلى محاربة المجتمع ، وقد تتورط فى أى شىء يتفاوت بين السلوك الهدام وبين ارتكاب الجرائم . أما إن كان أفراد هذه العصبة قد أحسوا بأن المجتمع يتقبلهم ويرضى عنهم ، وظفروا بإشباع حاجاتهم ، وفازوا من المنزل والمدرسة بالإحساس بالكرامة لم تزد العصبة على أن تكون أكثر من جماعة لا تسعى لأذى أحد ، وكل همها أن تستمتع بإنفاق وقتها فيما يحبه المجتمع ولا ينكره .

على الآباء إذن — إن وجدوا أطفالهم قد انتموا إلى عصبة «شريرة» — أن يبحثوا عن السبب فى حياة المنزل أو المدرسة لا أن يبحثوا عنه فى طبيعة الأطفال ، وإنه لإنذار للآباء إن وجدوا أن أطفالهم قد عجزوا عن أن يجدوا التقدير بالطرق الإجتماعية ، وأنهم لذلك قد عمدوا

إلى مناصبة المجتمع العداء . ذلك المجتمع الذى وضع من أقدارهم فإن
كل سلوك سيء تقترفه عصابات المراهقين ليرجع إلى الشعور العميق
بالنقص ، اغرس فى طفلك تقدير الذات والاعتزاز بالنفس ما استطعت
إلى ذلك السبيل ، حتى تحميه من كل المؤثرات السيئة . والويل لك إن
أنت عمدت إلى شن حرب مباشرة صريحة على هذه العصبة ، فإن هذه العصبة
هى آخر ما بقى للطفل من مصدر للشعور بالكرامة ، إن الطفل يدافع
عن عصبته حتى آخر رمق ، وأنك إن حاولت أن تقطع صلته بها لتفوز
بما تراه نصراً ، واستعملت فى ذلك القوة والعنف لتحطم ما يحمله لك
من مودة ، وتقوض ما كان وضعه فيك من ثقة ، لا يستطيع المرء أن
يدفع السيئة بالسيئة ، وإنما يدفعها بالحسنة ، وعليك أن تذكر أن
العضو فى جماعة يحس نحوها — وإنه لينبغى له ذلك — بالولاء ،
ولذلك فإنك إن اصطنعت العنف لتحطم صلة الطفل بجماعته المفضلة ،
تقوض بذلك ما لديه من إحساس عميق بالولاء . وإنما ينبغى عليك
— إن وجدت طفلك ينضم إلى عصبة شريرة (ولا يدخل فى تقديرنا
بالطابع التبعية التى يكون فيها العضو إمعة) أن تستبدل بهذا الشعور
بالولاء للعصبة الشريرة شعوراً آخر بالولاء لجماعة جديدة طيبة . فالطفل
يقبل دائماً أحكام الكبار على خصاله بقبول حسن ، فعليك أن تجعل
الضال من صغار الشبان يشعر بأن له أهدافاً أسمى يسعى إلى تحقيقها
فى الحياة ، وأنه قادر على بلوغ هذه الأهداف ، حتى يقلع عن سوء
سلوكه ، أما إن أخذت تزيد من افتقاره إلى الثقة بنقدك له وتوبيخك إياه ،
فلا تدهش إن وجدته يمضى سريعاً من سيء إلى أسوأ .

هل أستطيع الذهاب الى السينما ؟

عادت صاحبتنا من المدرسة وهى تحمل تحت ابطها بعض الكتب واقتحمت على والدتها الحجرة التى كانت تحتفل فيها بالضيوف ثم قالت وهى تلهث . . « ماما أنا سأذهب إلى السينما » .

وأصبح الموقف فى غاية الحرج بالنسبة للسيدة سميث إذ لم تكن تريد أن تدخل فى نقاش مع ابنتها أمام الضيوف ، فى الوقت الذى وجدت فيه أن سلوك ابنتها لم يعد يحسن السكوت عليه . لقد طلبت فى هذا الأسبوع ثلاثة شلنات ذهبت بها إلى السينما ثلاث مرات . فقالت السيدة سميث : « لا يا ابنتى . لا يمكن أن تذهبى إلى السينما اليوم وإنه ليكفى أن تذهبى إليها مرتين فقط فى الأسبوع ، والآن خذى كتبك وأدواتك وامضى لعمل واجباتك المدرسية »..«أوه . لاسأذهب يا أمى إننا سنذهب إلى سينما رخيصة الثمن » .. « لا لم يعد عندى مال أنفقه فى السينما هذا الأسبوع أكثر من ذلك » .

وانصفق الباب من وراء الفتاة ، وعلق بعض الضيوف على رعونة الجيل الجديد وطيشه . ثم استأنف الجميع حديثهم الأول .

لكن الباب لم يلبث أن انفتح ثانية :

« ماما . جلاد أعارتنى شلناً وسأقوم برده إليها من النقود التى سأقبلها هدايا فى عيد ميلادى . والآن أستطيع أن أذهب إلى السينما ؟ أليس كذلك ؟ انا لم أبطىء كثيراً . سعيدة يا ماما » وانفلتت خارجة من

قبل أن تتمكن أمها من أن تجيب أية إجابة . وقال أحد الضيوف ليخفف من حدة الحرج الذى استشعرته الأم « إن الإنسان لا يجتاز فترة الطفولة إلا مرة واحدة » وكانت الفتاتان فى طريقهما إلى السينما يتحدثان فى شغف حول العرض الذى كانا على وشك أن يشاهداه .

الأطفال فيما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة شديدوا الميل إلى الذهاب للسينما . وهم يترددون عليها بانتظام وفى تفاؤل ، على الرغم من أنهم كثيراً ما يصفون الأفلام التى يشاهدونها بأنها « مش ولا بد » ذلك أن السينما تمدهم بالاستثارة والمغامرات الغرامية والدراما التى تفتقر إليها حياتهم والتى من شأنها أن تجعل للحياة لونا وطعما ، ثم إنها تمدهم كذلك بالمكان الفسيح والراحة التى لا يصيبونها فى مكان آخر . والواقع أن السينما ليست سببا من أسباب جناح الأحداث كما يظن البعض . فأنه وإن كانت السينما تعمل على نشر بعض القيم الفاسدة غير الصحيحة ، ألا أنها تتيح للفتيان مهربا من كل ما تتألم منه نفوسهم ومن الأماكن التى تزدحم بهم وبغيرهم . كما أنها توسع من آفاقهم وتعوضهم عن كثير مما تنكره الحياة فى المجتمع الحديث على الأطفال . ولهذا فالسينما ، فى نظرنا ، تعصم الفتيان من أن تستبد بهم ثورة عاصفة تنقلهم إلى صفوف المجرمين . والذى لاشك فيه أن للسينما دوراهاما تقوم به . ومع هذا فإن إعتماد الطفل على السينما وحدها فى إشباع حاجاته العاطفية والتخيلية أمر لا يبشر بخير . وأن الطفل السليم النفس ليتميز بأنه يخصص من وقته قدراً أكبر للنواحى الترويحية ذات الصبغة الإيجابية المبتدعة متى تساوت الظروف الأخرى . ولكن الظروف الأخرى غير متساوية للأسف .

فإن المكتبات العامة ونوادى الشباب والدوائر العائلية مملة تخلو من عنصر الاستثارة وبذلك لا تفى بحاجات الشباب أما السينما فإنها تهز الأطفال هزا بما تقدمه لهم من أفلام وما تتيحه لهم من مقاعد وثيرة وملابسات مصقولة . وبما تخلعه على مرتادها من أهمية مصدرها أنه صاحب الحق فى هذا الكرسى طوال مدة العرض

ولو أننا رغبنا فى أن نقدم لشبابنا بديلا عن السينما يكون نوعا من الترويح ذا صبغة إيجابية مبدعة ويشبع فى نفس الوقت ميولهم الجمالية لكان علينا أن نوفر لهم من النواحى الترويحية مالا يتيسر لهم الآن . فان الفصول الدراسية البغيضة التى تجعل فيها نوادى للتلاميذ لا تفى بديلا ، ويكفينا أن نذكر أن الاتحاد السوفيتى يخصص للشبان بعض الأبنية والقصور التى تعد من أنفس قصور الدولة وأمتعها . فهذا هو المستوى الذى ينبغى أن نقيس أنفسنا بالنسبة له ونعمل على الوصول إليه .

إنه لمن الخطأ أن يقال « آهو أى حاجة تقضى عشان الأولاد وبس » وأنك إذا لم تحاول أن تمزج الترويح المبدع بالملابسات البراقة المرحة وبجو من البحبوحة والوفرة لغادرك الشبان والتمسوا ماهم فى حاجة اليه من رواء ومتعة حيثما تيسر لهم أن يجدوها . قامت جماعة من التلاميذ فى الرابعة عشرة من عمرها بدعوة أحد الكبار إلى حفلتها الراقصة التى عقدتها فى صالة المدرسة وكتبت إليه فى رقعة الدعوة تقول : « وإنه ليسرنا أن تتفضلوا بارتداء ثياب السهرة الرسمية » . « إننا لا نكترث كثيراً بشباننا وفتياتنا على حين أنهم يريدون منا أن نحفل بهم ونقيم لهم ألف حساب » .

وما أجدر الآباء بأن يتبينوا مبلغ المتعة التى يصيبها الطفل حين يقول « الكرسى ده بتاعى أنا لوحدى » وما أجدرهم أن يخصصوا لأبنائهم مكانا مستقلا حتى ولو كان مغارة أو كهفا. فانه لا عبرة بالرواء والبهاء طالما كان المكان خاصا بهم وحدهم. وأنه لرواء وبهاء لا مزيد عليهما أن يكون المكان « بتاعى أنا لوحدى ». وقد تبين للباحثين من دراسة قاموا بها لمبلغ غشيان طلاب المدارس الثانوية لدور السينما فى لندن أن أقل التلاميذ والتلميذات ذهابا إلى السينما هم التلاميذ الذين كانت لهم هوايات ثابتة ومكان خاص بهم يمارسون فيه هذه الهوايات. والواقع أن الشباب يرضى بأيسر اليسير ليتخذ منه « مكانه الخاص به ».

دعا أحد التلاميذ المولعين بدراسة الكيميا واللاسلكى مدرس العلوم فى مدرسته ليشاهد « المعمل اللى أنا بنيته فى الجنينة » ثم تبين للمدرس أن هذا المعمل لم يكن أكثر من فناء خلفى للدار بذل التلميذ محاولات جبارة ليجعل منه مكانا يصلح للإقامة فيه وغرس فيه بعض الزهور. ولكن هذا لا ينفى أن هذا المكان خاص به وأنه كان يستشعر فيه من السعادة ما لا يستشعره فى أى بقعة أخرى على الأرض، يفكر فى قضاء وقت فراغه فيها. ولم يكن يذهب صاحبنا هذا إلى دار السينما أكثر من مرة واحدة فى الأسبوع أو أقل من ذلك فى بعض الأحيان على العكس من كثير من رفقائه الذين كانوا يذهبون « مرتين دائماً فى الأسبوع ».

لقد بات من المحتمل أن تنقص ساعات العمل فى اليوم إلى ست ساعات أو أقل من ذلك فى خلال العشرين سنة القادمة. وإن هذا ليحتم علينا أن نعلم شبابنا كيف يعتمد على نفسه فى قضاء وقت الفراغ. وأن

الطفل صاحب الهواية الذى يجد لنفسه مكانا يستطيع أن يستقل به لحرى أن يغدو رجلا قد تحصن ضد الملل والسأم وضد الحاجة إلى أن يهرب من متاعبه الشخصية إلى وسائل تسلية يشتريها جاهزة مصنوعة .

والذى يلزم عن هذا أننا إذا كنا نريد أن نتيح لشبابنا فرصة تنمى فيهم الإعتماد على النفس عن طريق وسائل الترويح المبدعة لكان لزاما علينا أن نكف عن العادة التى درجنا عليها من إرهاق كاهلهم بواجبات وأعمال مدرسية تضطرهم إلى أن ينفقوا فيها الجانب الأكبر من الليل . ومن الواجب علينا أن نلتفت إلى أن هذه المسألة ليست من اختصاص المدرسة وحدها فقط ، فقد حاولت بعض المدارس أن تستغنى عن الواجبات المدرسية التى يؤديها التلاميذ فى منازلهم فكان آباء التلاميذ وأولياء أمورهم أول من هاجمها . بل لقد قالت إحدى الأمهات حين علمت بالأمر أنها كانت تعتمد على الواجبات المدرسية فى احتجاز ولدها بالدار شطراً كبيراً من المساء . والآن يكفى ما قلناه فى وجوب إتاحة فرص النشاط المبدع الإيجابى الذى يستطيع الشباب أن يقضى فيه وقت الفراغ . ونضيف شيئاً واحداً هو أن اللوم والتثريب ينبغى أن يقع على المجتمع بأسره لا أن ينصب على رؤوس الآباء وحدهم .

ربتنا تكثر من السهر

من مظاهر نزوع المراهقين إلى أن يبلغوا مبلغ الكبار ميلهم إلى السهر وعدم النوم مبكرا . والدافع الذى يدفعهم إلى هذا السلوك دافع سليم سوى لا غبار عليه ولكنهم مع ذلك فى حاجة إلى قسط كبير من النوم يعينهم على اجتياز فترة المراهقة بسلام .

وتأنيب المراهق وردعه عن السهر ومهاجمة هذا السلوك فيه بطريقة صريحة مباشرة يدفع به إلى التمرد لأنه سيعد ذلك عندئذ نوعا من القيود تفرض عليه ، وتحتجز من حريته . ولهذا فإن أحسن طريقة هي أن نربط بين رغبة المراهق في أن يبلغ مبلغ الكبار وبين عدم السهر والذهاب إلى الفراش مبكراً .

تكرر الشجار بين « ريتا » وبين أبويها بسبب إكثارها من السهر حتى ترتب على قلة ما تصيب من النوم وما أصابها من إجهاد وإرهاق نتيجة خلافها مع أبويها أن وقعت فريسة المرض وحملت إلى عيادة الطبيبة . وكانت الطبيبة سيدة شابة رشيقة جذابة ، أو قل نموذجا حياً لعنفوان الاكتمال ، كما كانت من الحكمة والتبصر بحيث لا تفكر في أن تلقي على مسامع « ريتا » محاضرة من المحاضرات أو مجموعة من المواعظ . ولكنها عمدت بدلا من ذلك إلى أن تشرح للفتاة الصلة بين الصحة والنوم وحسن المنظر وأخبرتها أنها كثيراً ما كانت تضطر - هي نفسها - إلى أن تنام في وقت مبكر على غير ما تشتهي . وأنها - ريتا - تستطيع أن تغدو شابة في غاية الجاذبية إذا هي اعتنت بصحتها . ثم اقترحت عليها أخيراً أن تضع لنفسها نظاما لا تسهر فيه أكثر من ثلاث ليال شهريا تذهب فيما عداها إلى النوم مبكرا .

ولم تعد هناك مشاكل ...

ما أجدر الآباء أن يصطنعوا الحكمة في مثل هذه الأمور وأن يتخذوا من دوافع الفتى في مثل هذه المرحلة دوافع تحمله على أن يسلك

كما يشاءون حتى يجنبوه الشعور بالخزى وحتى يجنبوا أنفسهم الصراع بينهم وبينه .

وعلى هذا النحو أيضاً ينبغى أن تعالج مشكلات التدخين وإدمان الخمر . فإنه لا جدوى فى هذه المشكلات من سياسة «خليك ناشف معاه قوى» . بل علينا أن نناقش الأمر مع الفتى على أنه موضـوع مشترك بيننـا وبينه . وبذلك نصل إلى قرار مشترك مرض . ولنثق بأن المراهق لن يرتد على عقبيه فى مثل هذه المساومات .

وفيما يلى نسوق هذه القصة مثالا للطريقة التى ندعو إليها :

علم أحد الآباء أن ولده اعتاد أن يدخن خفية . فلم يفعل شيئا ولـكنه انتظر حتى اجتمع فى داره بعض الضيوف لتناول الغذاء — وكان من المزمع تقديم عدد من (السيجار) للضيوف — ثم دعا ولده إلى غرفة الاستقبال بعد الغذاء . وقال «انت تدخن أيضاً يا ولدى — على ما أظن خذ لنفسك سيجارا تدخنه معنا» — فأخذ الفتى واحدا ، واستوى فى أحد المقاعد . وأخذ يدخن هنيهة وعليه سمات الجد . لقد زاد عمر هذا الصبى الآن على العشرين ، ولـكنه لم يقرب التدخين منذ ذلك اليوم ولـكننا لا نوصى باتباع هذه الطريقة وإنما أردنا أن نبين أن الآباء يستطيعون أن يبلغوا ما يريدون فى هدوء ومن غير صخب أو ضجيج ، وإنه لمن الضرورى فى أمثال هذه الحالات أن نوجه ونرشد لا أن نقهر ونجبر . فإن الدافع الذى يحمل الأبنـاء على أن يلجئوا إلى التدخين أو نحوه هو رغبتهم فى النمو وبلوغ مستوى الـكبار وانه لدافع سليم سوى ينبغى لنا أن نسعد له ونرحب به .

اختيار المهنة

ما أكثر ما نضحى بأبنائنا المراهقين فى سبيل مهنة مأمونة أو مهنة توافق هوى الآباء . وما أكثر ما يكره المختص بتربية الشباب هذه الأقوال « أصلها مهنة كويسة ومضمونة » ، « أصل احنا عاوزينه يمشى الحل » على أن « المهنة المضمونة » و « إدارة محل الأب » قد تكون اختياراً موفقا فى بعض الأحيان . ولكنه كثيرا ما يكون السبب الذى يدعو إليها سبباً باطلا غير وجيه . إن على الآباء أن يدركوا أنه لا يعدل الفشل فى اختيار الزوجة الصالحة غير الفشل فى اختيار المهنة المناسبة . ذلك الفشل الذى يحطم استعدادات الناشىء . ويئد فيه حب الحياة . إن من الواجب أن يترك للنشء باب اختيار المهنة مفتوحا على مصراعيه .

•

اصحبهم إلى المصانع والمزارع والمكاتب والمحلات ليروا أرباب المهن المختلفة وهم يعملون . يسر لهم سبيل لقاء الناس الذين يعملون فى المهنة التى تجد عندهم الميل إليها . وإذا لم يكن فى استطاعتهم أن يتخيروا لأنفسهم . فعليك أن تتيح لهم فرصة العمل فى مهنة أو مهنتين بطريقة مؤقتة للتجريب والتعرف . وأن هذه الطريقة لكفيلة بأن تهديهم إلى اختيار أنسب المهن لهم . أو ما يقرب أن يكون كذلك على الأقل . إجعل عندك الرغبة فى أن تتيح لأبنائك فرصة الاختيار . وإن كان المال عقبة فى سبيل اختيار ولدك المهنة التى تناسبه فاعمل على أن تزيلها من طريقه . فان على الاختيار الموفق تتوقف حياة ولدك . أيقضيها

فى توفيق وسعادة . أم فى خيبة وشقاء ، وإنه لمن الأفضل أن تبطىء وتتأخر فى الاختيار من أن تتعجل الاختيار فينخرط ولدك فى سلك مهنة لا يجـــد فى نفسه الشوق إليهـا ، ولا الحماس الذى يدفعه إلى النجـاح فيها .

كان بعض الصيادلة حريصاً على أن تسلك ابنته من سبل التعلم ما يمكنها من الاشتراك فى إدارة صيدليته فيما بعد . وقال مدرسو الفتاة إن فى مقدورها أن تجتاز مثل هذا النوع من التعليم بنجاح ، ولـكن الفتاة على الرغم من كل ذلك كانت تريد أن تصبح ممرضة . ودأب الوالد على أن يبين لفتاته ما ينتظرها فى مهنة التمريض من كد وكدح وأجر ضئيل دون أن يثنيها ذلك عن أملها وأمانيها .

ثم وافقت الفتاة أخيراً على أن تنصاع لرغبة والدها . فرسبت فى الإمتحان ثلاث مرات كان الوالد يشعر فى كل منها أن الرسوب يعنى أن إهانة لحقت به . ثم تحولت رغبة الفتاة فى التمريض إلى ميل جارف إلى رسم المرضى بالأشعة. ولـكن والدها أصر على أن تقوم ابنته أولا بالتخصص فى الصيدلة لـكى يمكنه أن يمنحها بعد ذلك من المال ما تدفعه رسوما لدراسة فن الرسم بالأشعة إن كانت ستظل على حالها القديم .

ولم تلبث الفتاة أيضاً أن أنفقت ستة شهور من عمرها فى دراسة الـكيمياء دراسة فاشلة غادرت دار أبيها بعدها وأقامت فى مسكن تشاركها فيه اثنتان من صديقاتها . ثم عملت ساقية (جرسونة) فى مقهى وهى تنوى أن تدخر من راتبها مبلغا يمكنها فيما بعد من دراسة فن التصوير

بالأشعة . وأخيراً أدركها أحد أقربائها بالنجدة وأعارها بعض النقود فتمكنت من اجتياز بعض امتحاناتها بدرجات عالية وفى زمن قليل . وقد يكون صحيحاً أن الأحوال انتظمت فى نهاية الأمر، ولكن كم ضاع على الفتاة من مجهود وسعادة . أضف إلى ذلك أن صلتها بوالدها قد كادت تتداعى وتتحطم إلى الأبد .

التعلم عن طريق التكسب

من أروع الحكم التى ينبغى مراعاتها فى تنشئة المراهقين .. «لا تعطهم إلا القليل النادر من الأشياء . ولكن لا تنكر عليهم شيئاً البته » فلا ينبغى أن نجعلهم ينالون الأشياء فى يسر وسهولة . ولكن ينبغى أن نكلفهم بذل الجهد فى سبيل الحصول عليها . كما يجب ألا تقام أمامهم الحواجز التى تحول بين عقولهم وقدراتهم وبين أن ترتاد وتستطلع . إن الطفل الذى ينحدر من أبوين على درجة من الثراء هو طفل سىء الحظ فى حقيقة الأمر وكثيراً مالا يكون سعيداً . اعتاد بعض الآباء أن يعين ولده وبنته على شراء كل ما يرغبون بأن يعطيهم بمقدار مايدخرونه من مال لشراء هذا الشىء وذلك كلما قاموا بعمل موفق يفيد منه هو أو أولاده . وأحسن الاثابة المباشرة ما كانت متصلة بطبيعة العمل الذى أثيب من أجله الناشىء فلو أن مدرس التربية البدنية أرسل اليك يمتدح ولدك . ويثنى على تفوقه فى مجال الرياضة لكانت هذه خير مناسبة تهدى اليه فيها كرة قدم بدلا من أن تقدمها له عند تفوقه فى مادة دراسية أخرى كاللغة الانجليزية أو الفرنسية . وإذا كانت الحكمة التى تقول

«اجعل العقوبة من جنس المخالفة» صحيحة لاريب فيها . فانه من الحكمة أيضاً أن تجعل المكافأة مناسبة للنجاح الذى أحرزه الشخص المكافأ ، إن كل مايوفق الناشيء إلى احرازه عن طريق كسبه بعرق جبينه يفيد الطفل ويبنى فيه خلق الاستقلال فى الحياة . وفى الحق أنه لما يدعو إلى الأسف أن الأطفال فى المدارس لايعطون الكتب وأدوات الرياضة ملكا خالصا لهم عندما يظهرون التفوق فى الميادين الدراسية أو الرياضية . إذ من المعلوم أن الصانع لايشعر باحترام نفسه إذا كان قد استعار من غيره الأدوات والآلات التى يستخدمها فى عمله .

إن كثيرا من الآباء لايستطيع لسوء الحظ أن يمكن أبناءه من تملك مايستحقون . ولكن هذا لا ينفى أنهم يستطيعون تطبيق المبدأ الذى ندعو إليه ولو فى حدود ضيقة .

فبهذه الطريقة فى التربية وحدها يستطيع الطفل أن يتعلم قيمة المال وأن يعرف قدر ما يمتلك . وإنه لامراء فى أن أحسن أسس التملك والإقتناء هو أن يحرز الطفل كل ما يشعر أنه بحاجة إليه عن طريق جهوده الخاصة وكده وكدحه فى سبيل ذلك .

الأب الصارم

إذا رأيت رجلا — أوسيدة — يفاخر على ملأ من الناس بصرامته وعنفه فى تنشئة أبنائه فكن على يقين من أن أسرة هذا الرجل لاتعرف السعادة إليها سبيلا . فاما أن يكون الرجل غير صارم ولاعنيف ، وأنه يخجل من أنه ليس كذلك ويعوض عن هذا بما يدعيه كذبا ويفخر به،

وكفى بهذا دليلا على سوء العلاقة بينه وبين أولاده . وإما أنه صارم صرامة تجعل أسرته على أبواب كارثة محققة . فالصرامة ليست عدلا من الآباء ولكنها نوع من استبدادهم وتعسفهم بالابناء — وما أكثر ما يعرف المدرسون والضباط فى دور التمرين عما تؤدى إليه التربية المتساهلة والتربية الصارمة القاسية من عواقب وخيمة . وأن كلا منهما لدليل على إخفاق الآباء فى تربية الأبناء .

كانت مارجرى فتاة ذكية ، على جانب كبير من الحساسية وكان أبوها طبيباً يعلق الكثير من الآمال عليها ، ويدفع بها فى عنف إلى تحقيق هذه الآمال . لم يكن يسمح لها بدخول السينما إلا لماما وكان يضطرها إلى النوم فى ميعاد مبكر عن الساعة التى ينام فيها من كان فى مثل سنها من الفتيات . وكان يومها ينقضى فى أعمالها المدرسية وبعض الأعباء المنزلية وفى دروس الموسيقى والرياضة إذ كانت تجيد كثيراً من الألعاب الرياضية . وكان والدها ممن يؤمنون بوجوب خضوع الأبناء لإرادة الآباء . كانت قد بلغت سنها الثالثة عشرة حين صفعها لعصيانها أمره وبقائها بالمدرسة بعد انقضاء اليوم المدرسى لمشاهدة مباراة فى الهوكى بدلا من التوجه إلى درس الموسيقى .

وكان والد مارجرى قد وضع خطة مؤداها أنه ينبغى أن تنال الفتاة شهادة إتمام الدراسة الثانوية قبل أن تزيد سنها على السادسة عشرة وأن تظل بالمدرسة سنتين أخريين بعد ذلك لتنال شهادة M. B. حتى يمكنها بعد ذلك أن تدرس لنيل شهادة الطب . وقد عمد خلال دراستها فى السنة النهائية من المرحلة الثانوية إلى أن يزيد مراقبته لها وإشرافه عليها

صحيح أنه أذن لها فى الاشتراك فى مباريات المدرسة إلا أنه كتب إلى المدرسة يخبرها بأنه لا يوافق على اشتراك إبنته فى مباريات التنس التى تعقد فى الأسابيع السابقة للامتحان حيث أن ذلك قد يصرف تفكيرها عن المواد الدراسية التى هى عملها الرئيسى .

وكان الدكتور بلانك هذا — والد مارجرى — كثيراً مايتحدث عن طريقة معاملته لأولاده — فقد كان لمارجرى أخ أصغر منها سناً — إلى الناس الذين يحسدونه على حزمه . كذلك كان مغرماً بالسخرية من الذين يتشدقون بالحديث عن نظم التربية الحديثة . ولم يكن فن التربية الحديثة عنده أكثر من كلمات هى « الحزم فى تربية الأبناء » .

وترتب على شدة الوالد وصرامته وموقفه من مارجرى أنها لم تنجح فى امتحان آخر العام . وحملت الفتاة هذا النبأ إلى والدها بالمنزل فما كان منه إلا أن ذهب تواً إلى غرفتها وجمع عصى الهوكى ومضارب التنس وجعل يحطمها تحطيما . ثم أخبر ابنته أنه لن يسمح لها مطلقاً بممارسة لعبة ما إلا بعد أن تتم اجتياز الامتحان بنجاح .

ولم تطق الفتاة كل هذه الإهانات والخزى الذى أحست به عند مواجهتها لزميلاتها فى المدرسة ، فكفت عن محاولة الاستعداد للامتحان وأصابها الانهيار التام بعد مدة لا تزيد على الستة شهور .

هذه حالة استثنائية قد لا تكون كثيرة الوقوع اليوم . ولكنها تبين لجميع الآباء الذين يتشدقون بالتشدد فى الرقابة على أبنائهم ويتبعون الصرامة معهم ، ما تجره عليهم هذه المعاملة من هوان وشعور بالخزى

والضعة . إن الأب الذى لا يستطيع أن يعامل ولده كما يعامل الصديق صديقه لهو أب فاشل مخفق فى تربية أولاده و بناته ، ونحن لا ننهى عن الحزم ؛ فإن من طبيعة الأطفال ألا يرفضوه إن كان متسما بروح العدالة والإنصاف ، ولكنهم لا يرتضون مطلقاً أى موقف يترتب عليه فقدانهم للشعور بالعزة والكرامة . وإن من الحكمة ألا نعرضهم لاجتياز أمثال هذه المواقف .

إذا وجدت من اللازم أن تقسو فى النقد والتجريح على واحد من الفتية الناشئين فليكن رائدك أن تنتقد الخطأ الذى ارتكبه لا أن تنتقد ذاته وشخصيته . ومن الواجب بعد كل مرة توبخ فيها ولدك على أخطاء ارتكبها أن تعيد إليه ثقته بنفسه ويقينه من أنك لا تزال تحبه وتثق به . وإنه لمما يضيع أثر الموعظة التى تلقيها على مسامع ولدك أن تختمها بقولك « غور بق من وشى جاتك داهيه » . أما إن اختتمت حديثك قائلا : « الواقع انك انته شخص كويس وإن ده هو السبب فى أنى مش راضى عن إنك تخسر نفسك بأعمال زى كده » كان لكلامك الأثر الذى تنشده وأبقيت روح المودة بينك وبينه . فلنتجنب أن نوبخ ولدنا ونعنفه على ملأ من الناس . اللهم الا إن كان الخطأ الذى ارتكبه قد جر على الناس المضرة وكنا نتكلم بلسان المجموعة التى تأذت من فعله .

حذركم أيها الآباء

لا نظنه جميلا أن نقول إن فتاة السادسة عشرة من عمرها تكره أباها على الرغم من أنه يجمع فى الظاهر كل صفات الأب الفاضل . ولكن

هـــذا هو الحال مع « هيلين » . كانت هيلين فتاة على جانب من رقة الشعور والميل إلى الخيال . على حين كان والدها رجلا صلباً يميل إلى النواحي العملية الواقعية . أرادت هيلين أن تقوم بتزيين حجرة نومها وطلائها فسخر منها أبوها ، وعد ذلك حماقة منها . ورأى أن المال الذي ينفق في ذلك إنما يضيع هباء ولا يجلب نفعاً . وكان لا يبخل بالمال على الفتاة نفسها ، ويمسك يده إذا ما توهم أنها ستصرف هذا المال فيما لاطائل منه .

فهذا الأب لا يفهم أن المراهق يحتاج إلى ما هو أكثر من الأكل والشرب ، لكي يستمتع بحياته . وأن الجانب الحساس الشاعرى من المراهق هو مظهر من مظاهر النمو ، لا ينبغي أن نناهضه ونقف في وجهه . وإنما ينبغي علينا أن نتناوله في رفق وحذر وتشجيع وأن الأب الذي يغفل عن الحاجات العاطفية والانفعالية لولده ويظنها نوعا من الحماقة ليقع في مثل ما وقع فيه أبو هيلين .

ونحن نرجو أن يتوخى الآباء مراعاة هذه القاعدة عند تنشئة أبنائهم في جميع مراحل الطفولة . وما أكثر الآباء (والأمهات كذلك) الذين هم في حاجة إلى أن تكون عواطفهم أكثر دفئا وحرارة وإلى أن يشاركوا أبناءهم ماهم فيه من خيال وإلى أن يتخلوا عن صلابتهم وتزمتهم والتزامهم الجانب العملي الجاد في نظرهم إلى تصرفات الأطفال . فلو أن والد هيلين استمع يوما إلى ولده الذي لا يزال يدرج في الثالثة من عمره وهو يقص عليه كيف أنه رأى دبا أسود يتسلق سور الدار ألا ترى معى أنه كان ينهره بقوله . « بس اسكت . وبطل بقى التخريف بتاعك ده »

« كم نتألم لكثرة تحوله من هواية إلى هواية . ولأنه متقلب لا يثبت على حال واحدة » هكذا قالت الأم لمدرس الفصل ثم أردفت « لقد بدأ فهوى اللاسلكى . ثم عاد فاتخذ من الدراجات هواية له . والآن ها هو يريد زوجا من (قباقيب التزحلق) . إننا لا نستطيع أن نجاريه فى كل هذا » .

« أيها القارىء ما أكثر ما يسوؤنا سماع أمثال هذه العبارات التى يبين ما يعقبها من حديث عجز الآباء عن أن يفهموا ناحية هامة من نواحى التناقض فى طبيعة أبنائهم الشبان — هى حاجتهم إلى الاستقرار وإلى التغيير فى نفس الوقت . ذلك أن الطفل يفتقر إلى قيم ثابتة وأصول مستقرة وهو فى هذه الناحية ميال إلى المحافظة والتمسك بالقديم . ولكن الآباء يفطنون إلى هذه الخلة فى خلقه ثم إذا رأوا منه ميلا إلى التقلب والتغيير فى ميادين أخرى عدوا ذلك تدهوراً خلقيا وانحطاطا فى شخصيته . والطفل يحتاج كذلك إلى التقلب والمخاطرة والاستكشاف والارتياد . وهو فى هذه النواحى من النشاط محب للتغيير والتنويع . ولكن الآباء لا يكادون يلمسون هذا النمو المفاجىء لميوله حتى يستبد بهم الأسى والقلق . على حين أن المخاطرة والاستكشاف والارتياد هى فى الواقع دليل بين على أن الطفل قد تخلى عن الجبن الذى كان يتصف به فى المراحل السابقة من النمو .

ينبغى للآباء أن يتيحوا للطفل حرية التجريب والتعرف على ذواتهم واختبار العالم الذى يعيشون فيه . وعليهم ألا يخلطوا بين هذا و بين تقلب

المزاج وعدم ثباته . وليس معنى هذا أن يستجيب الآباء لكل نزوة من نزوات أطفالهم . بل انهم ليستطيعون الوقوف على درجة صدق ميول أطفالهم بمبلغ مالديهم من استعداد لأن يضحوا فى سبيلها . فقد أغرم طفل بالتصوير غراما جعله يستمرىء العمل فى إحدى المزارع طوال أجازته الصيفية دون أن يستمتع بعطلة نهاية الأسبوع يسافر فيها إلى بلدته لكى يمكنه أن يجمع من المال مايستطيع أن يشترى به آلة مستعملة للتصوير . مثل هذا الجهد ومثل هذه العزيمة تستحقان من الآباء والأقرباء التقدير بأن يضيفوا إلى ماجمع الطفل مبلغاً من المال يعينه على أن يبلغ مايريد .

عم توم الشاطر

لم يوفق بيل الصغير فى اجتياز امتحان التوجيهية . فقد كان تخلف عن الدراسة وهو طفل صغير فترة من الوقت بسبب المرض كما كان الامتحان يسىء إلى حالته المزاجية . وقد أحس والداه عند رسوبه بشىء كثير من خيبة الأمل ، وجعلا يدفعانه دفعا للمذاكرة ويذكرانه بباقى أفراد الأسرة من أمثال العم توم الذين ضربوا الأمثلة الناطقة على تفوقهم . ولكن هل كان لهذا أثره فى تشجيع بيل ؟ طبعا لا . بل ان هذا جعله يشعر بأنه منبوذ مكروه أكثر من ذى قبل وتأكد عنده أنه لم يمنح مامنح غيره من المواهب وأنه لن يقدر له اجتياز الامتحان . ولذلك فقد جعلت ثقته بنفسه تتناقص وتتلاشى كلما أمعنت الأسرة فى لومه وإذلاله .

وأخيرا عرض أحد أعمامه ــ وكان مدرسا ــ أن يباشره ويشرف على دراسته فى المساء ــ واكتشف العم أن بيل مغرم جداً بالتاريخ فعزم على أن يلج إلى قلبه من هذا الباب . ولم تنقض أكثر من حصتان قاما بعدها برحلة إلى متحف المدينة حتى أخبر العم الطفل أن له حاسة تاريخية أدق وأرق من أغلب الأطفال . وساعده العم كذلك على أن يكتب قصة تاريخية قبلت مجلة المدرسة أن تضمنها صفحاتها . وبعد ثلاثة شهور من معونة العم وتشجيعه استعاد بيل ثقته بنفسه فى سرعة وأصبح يعمل فى همة لا تعرف الفتور ولا الكلال . واجتاز فى يونيو التالى امتحان التوجيهية بدرجات كانت أعلى بكثير مما توقع له الناس . وشىء آخر هو أهم من هذا كله أنه عاد يؤمن بذاته كإنسان .

لو أن رجلا وصل إلى مكتبه ذات صباح وهو فى صحة جيدة ثم جعل بعض زملائه يسرون اليه فى الفترة ما بين الصباح والظهيرة أن امارات المرض بادية عليه . فهل تراه يظل يشعر بالصحة الجيدة ويحسن القيام بعمله فى فترة ما بعد الظهيرة أم أن العكس هو الصحيح ؟

إنه لمن السهل اليسير أن ننتقد ونثبط الهمم . ولكن ذلك أمر ينطوى على كثير من الضرر والأذى بالناس . ومن طبيعة المراهق أنه أكثر حساسية للنقد من الراشدين ، وخصوصا لذلك النوع من النقد الذى تعرض له بيل . وإن الرجل ليخطىء إن أراد أن يزيد من قدرة زوجته على الطهى ، فجعل يقارن بين طريقتها فى الطهى والطريقة الرائعة التى كانت تتبعها والدته . وما أجدرنا بأن نتذكر هذه المبادىء كلها . ونحن نعامل صغار الشبان وبأن نقلع عن محاولة فرض إرادتنا الحديدية الغاشمة عليهم .

ديك وهاري يبدآن الطريق

كان «ديك» غليظا ، لايحسن القيام بشيء فى دروس التربية البدنيـة ولذلك كان سائر زملائه يتخذون منه سخرية لهم . وذات يوم أخبره مدرس التربية البدنية أنه لاداعي لأن يتسرب الهم واليأس إلى قلبه فإن قوته ستزداد بازدياد وزنه . وأنه سيصبح عندئذ قادراً على أن يؤدى كل مايؤديه زملاؤه من حركات . بل انه قد يصبح عنـدئذ أكثر منهم قوة وبأسا . وأخبره المدرس كذلك أنه سيتمكن من تسلق الحبال لو أخذ نفســه بالمران بضعة أسابيع . وطلب ديك أن يؤذن له بغشيان الملاعب فى أى وقت يحلو له ذلك وسمح له بذلك . فلم ينقض شهر حتى كان ديك يجيد تسلق الحبل بطريقة مكنته من الحصول على درجات عالية فى هذه المادة . وبدأ ديك منذ ذلك اليوم يتحول إلى رياضى لابأس به . ولم يعد — كما كان — هزؤا . واكتسب من الثقة فى نفســه ماجعله يشارك فى كل الألعاب . وانتهى به الأمر أن أصبح عضواً فى فريق المدرسة الذى يتبارى مع فريق المدارس الأخرى .

وكان « هارى » شبيها بديك فى كل النواحى فيما عدا أن والديه كانا يقفان منه موقفا مغايراً . كان أبوه من بين لاعبى كرة القدم المشاهير . وكان يهمه ويشغل باله أن يترسم إبنه خطاه . ولكن هارى كان غليظاً يعتمد على قدمه اليسرى أكثر من اليمنى . يحسن الجرى دون أن يجيد لعبة ما ودون أن يظهر الاهتمام بواحدة منها . وكان يبذل جهده فى أن يقضى حصة التربية البدنية فى التدرب على الجرى أو فى عمل الحقول .

وقد حاول أبوه وأمه كثيراً أن يزيداه اهتماما بالألعاب الرياضية دون أن يفلحا فى ذلك . وأخذا يتتبعان تقدمه عساه ينمو أو يتطور ولكن فى غير طائل .

وافتقر فريق الكرة بالمدرسة يوما إلى لاعب يستكمل به أفراده بعد أن مرض أحدهم . ولم يعد يستطيع المشاركة فى اللعبة . واعتزم مدرس التربية البدنية أن يستدعى هارى وكلمه قائلا : « إسمع ياهارى . أنت تستطيع أن تقذف الكرة بقدمك اليسرى هذه » ورد هارى بالإيجاب فأردف المدرس « حسنا » . فهل تستطيع أن تساعدنا فى اللعب مع فريق المدرسة فى مركز (أوتسيدلفت) وهو لا يتطلب منك إلا سرعة الجرى والقدرة على ضرب الكرة بقدمك اليسرى فى المرمى مباشرة . وأنا واثق من أن هذا سيكون بمناسبة تمرين طيب لك » وتردد هارى ولكنه وافق فى النهاية . وظل يلعب طيلة الموسم فى نفس المركز الذى اختاره له المدرس . وكذلك طوال الموسم التالى . وتبين له أنه موفق مع هذا الفريق فازداد اهتمامه بأن يزيد من قدرته على اللعب . وأخذ يتعلم كيف يتحكم فى الكرة وكيف يستخدم رأسه فى قذفها وتوجيهها كما يشاء . وهكذا جعل اتجاهه نحو الرياضة يتغير واحجامه عن ممارستها يتلاشى فأصبح لديه الاستعداد لأن يحاول ممارسة ألعاب أخرى ، وصار يجيد لعب التنس والهوكى .

إن أكثر مايجده الكبار من صعوبة فى توجيه المراهقين يرجع إلى أنهم لا يعرفون كيف يبدأون هذا التوجيه . وما أكثر ماتزخر به نفوس

الشبان من نشاط وعزم لايثوران إلا إذا عرفنا كيف نستثيرها .

والواقع أن أحسن وسيلة لذلك هي التشجيع وحسن التفاهم لا التوبيخ والإرغام . وواجبنا أن نكون على استعداد لأن نبني توجيهنا على شيء ذي بال وقيمة في نظر الفتى نفســـه ، لا أن نحاول فرض وجهة نظرنا عليه .

صحيح أن اهتمامنا معشر الآباء بأبنائنا المراهقين قد يكون حسنا جميلا ولـكنه ينطوي دون شك على شيء من غرور الـكبار وحسن ظنهم بأنفسهم .

ثم نقطة أخرى نحب أن نضيفها . لانتوقع الـكثير من المراهقين فان أمامهم من مشاكلهم الخاصة التي تواجههم أثناء محاولتهم التـكيف مع الحياة ما ينبغي أن يعفيهم من مطالب الـكبار . ونحن ينبغي علينا ألا نتعجلهم . وعلينا إن كنا نتمنى لهم أن يبلغوا المراتب العالية أو المناصب الرفيعة ، أن نحتفظ لأنفسنا بهذه التمنيات وأن نتجنب — ما وسعنا ذلك — أن نكلفهم تحقيق ما كنا نطمع إليه نحن .

كذلك لو أننا وثقنا بهم الى درجة أكثر مـــا نفعل ، وفرنا على أنفسنا كثيراً من المضايقات . ولم نتسبب لهم في إيجاد العوائق من أمثال العائق الذي بيناه في حالة هاري من أن والده كان لاعب كرة ممتاز مشهور يتطلب من إبنه أن يخلفه في الرياضـــة والشهرة ، ولأصبح في مقدورهم عندئذ أن يسيروا في طريق النمو سراعا . بعد أن أصبحوا

أحراراً لاتكبلهم القيود ، إن قلق الآباء وما يشعرون به من الأسى والهم يقف نمو الأبناء وخصوصا إذا كشفوا لأبنائهم عن هذا الهم وهذا القلق .

فى المنزلة الأولى

كان دافيد أصغر أبناء الأسرة وأشدهم ذكاء . يجيد العزف على الكمان إجادة منح بسببها كثيراً من الجوائز . رياضيا ، أريباً . وكان يدرس بالمدرسة الثانوية ويعد نفسه للجامعة فيما بعد . فقد كان له أمل قوى فى الحصول على منحة دراسية تيسر له ذلك ، ومع هذا فقد كانت حياته فى الأسرة سلسلة متصلة من المشكلات . فأبوه يعده وقحاً لا يطيع الأوامر ، ويذكر عنه أنه لايقيم بالدار يستذكر دروسه . وإنما يقضى الأمسيات يتسكع حول الدار حتى ساعة متأخرة من الليل . وكان أبو « دافيد » من بين تجار الأثاث الموفقين فى تجارتهم ، واتصلنا به فشكا إلينا ولده ، فى عدة أمور من بينها :

١ ــ طلب إلى الوالد أن يسمح لإبنه بالعزف فى حفلة ستقام بإحدى المستشفيات فأذن له ووافق على ذلك . ثم ها هو دافيد يرفض أداء هذه المهمة .

٢ ــ وذات مساء ، أراد دافيد أن يعود إلى الدار . ولكن والده طلب إليه أن يمكث بالمحل حتى يفد إليه زبون كان يريد شراء بعض الأثاث . ولم يمتثل دافيد ، وحضر الزبون ولم يتمكن من شراء شىء .

٣ ـــ وأنذر الرجل ولده لئن لم يصرف فى المذاكرة عدداً أكبر من ساعات المساء ليمكنه عن التعليم ويقيمه بالعمل فى المحل . ولكن هذا لم يزد دافيد إلا سوءاً . وعجز الأب عن أن يفهم ماذا دها ولده وأصبح يقول لكل من يتحدث إليه « أنا مش عارف إيه الحكاية ، الولد ما كانش متعب بالشكل ده أبداً »

لاجرم أن السبب فيما أصاب دافيد واضح كل الوضوح .

فأبوه من جهة ، فخور بما أحرزه من نجاح ، حريص على أن يصيب أمثال هذا النجاح فى المستقبل . ولكنه يرفض من جهة أخرى أن يعامله كفرد له كيانه المستقل . وأنت لا تستطيع أن تدع ولدك يتصرف فى متجرك بالبيع والشراء تصرف الكبار المسئولين ، ثم تتولى أمره وتكون أنت صاحب الحق فى أن تأذن له بالعزف فى حفلة موسيقية . كذلك أنت لا تكون سبباً فى أن يحسن سلوك ولدك إن أنت هددته باقصائه عن التعليم وعن المدرسة التى أصبحت بفضلك أنت وحدك رمزا لفقدانه مركزه وكرامته . وسببا فى كل متاعبه .

ولو أن والد دافيد أحسن صنعا لكان قد قال لصديقه وهو يحدثه عن الحفلة « آه ، أستطيع أن أقول لك إن دافيد لن يمتنع عن العزف بشرط أن يقوم منظم الحفلة بدعوته إلى ذلك . ومع هذا فانه مشغول فى هذه الأيام ، كما تعلم » ولو أنه عامل ولده على هذا النحو لكفا نفسه كثيراً من المشكلات الأخرى التى أصبح يعانى منها .

إن المراهقين يدفعهم الشوق إلى النمو والاستقلال إلى أن يعاملوا كما يعامل الكبار . وإنه لمن الخطأ الجسيم أن نعاملهم يوما على أنهم كبار ثم يوما آخر على أنهم أطفال . فلا بد لنا من أن نعاملهم فى كل شئون الحياة العادية على أنهم كبار ، نأخذ بعين الاعتبار وجهة نظرهم ، ونستشيرهم فى المسائل التى تتعلق بهم والمسائل التى تتعلق بحياة الأسرة ، ولو أن الكبار أشبعوا حاجة المراهقين إلى أن يكون لهم مركزهم وامتيازهم لدفعوا المراهقين بذلك إلى أن يتعاونوا معهم . أما إذا اتبعوا معهم أساليب التهديد والوعيد فلن يزيدهم ذلك إلا عناداً ورغبة فى المقاومة والصراع . ثم أن رغبة المراهقين فى أن يبلغوا مبلغ الكبار . وأن يعاملوا كما يعامل الكبار تصطرع إلى حد ما بالشعور الذى يخالجهم من أنهم لم يبلغوا بعد مرحلة الكفاية التامة وأنهم لا يعرفون كيف يوجهون أنفسهم . ولعل هذا هو ما يجعلهم سريعى التأثر وهى نتيجة حتمية للصراع الذى يدور فى نفوسهم .

والمراهقون يحرصون كذلك على أن يصيبوا النجاح فى حياتهم ، كما أنهم على استعداد لأن يبذلوا كل الجهود فى سبيل هذه الغاية ، ولكن أول ما يحرص عليه مع هذا هو أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز مستقل وبكيانهم كأفراد لهم ذاتياتهم المستقلة . فإذا حدث أن أساء الكبار معاملتهم ونشب فى نفوسهم صراع بين أن يبلغوا المستقبل المرموق وبين أن يحتفظوا بكرامتهم وعزة نفوسهم ، تراهم فضلوا الثانية على الأولى . ولذا فإن الآباء مطالبون بأن يراعوا هذه الناحية فيهم لكى لا يكونوا بمثابة من ينكر دبيب الحياة والنمو فى المراهقين .

والذى يلزم عما قلناه هو أن الطالب الذى يتخلف فى المدرسة بعد أن يكون أقرانه قد خرجوا إلى مضمار الحياة العملية العامة أحوج من غيره إلى أن تحترم ذاتيته ، لا إلى أن تمتهن كرامته . وأن المدرس ليخطىء إن عمد إلى توبيخ طالب بقوله «إنك لا تعدو أن تكون تلميذا . فلا تنسى هــذا» .

ولو أن والد دافيد وضع نفسه مكان ولده والتفت إلى الاعتبارات التى أسلفنا القول فيها . لكان قد استبقى أواصر المودة بينه وبين ولده .

الرجال معا

كان الرجل من كبار صيادى السمك . وكان ولده ريتشارد يقتفى أثره منذ نعومة أظفاره . فكان يحاول صيد السمك بمختلف الوسائل والأدوات ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره أعطاه والده شصاً وجعل يصحبه فى بعض أيام الآحاد إلى الصيد . ثم كان اليوم المعظم ، يوم أن بذ ريتشارد أباه فى مسابقة محلية لصيد السمك . وعادا على الدراجات يمزحان كما يمزح الكبار بعضهم مع بعض .

ولكن هذا لم يكن ليروق أم ريتشارد . فقد أصبح الولد شديد الارتباط بأبيه حتى لم تعد هى تعرف لنفسها مكانا بينهما . وكان لها إبنة صغيرة . ولكنها كانت فتاة فى طبعها ميل إلى الإستقلال جعلها تستمرىء صداقة الفتيات بدلا من أن تصادق أمها ، وأصبحت الأم تكثر من التبرم والاستياء من أنهم يتركونها وحيدة هذه الفترات الطوال . ثم جعلت تقاوم ولدها وزوجها كلما فكرا فى ممارسة هوايتهما

حتى إضطرا إلى أن يستخفيا عندما أرادا الإتفاق على مرة ثانية يخرجان فيها للصيد . وعزما على ألا يخبراها بذلك إلا وهى فى حالة مزاجية طيبة .

وفى يوم من أيام الأحد بلغ التوتر أقصاه . كان الاتفاق قد تم على أن يذهب ريتشارد وأبوه ومعهما صديقان من الجيران على الدراجات إلى منطقة صالحة للصيد تبعد عن دارهما بخمسة عشر ميلا . وكانوا قد اتفقوا على قضاء اليوم كله فى مسابقة للصيد . وعلى أن يتناولوا غذاءهم فى أحد فنادق الريف .

ولم يكن قد انقضى زمن طويل على شفاء ريتشارد من نزلة برد شديدة أصيب بها . ولذلك فقد اعترضت أمه على هذه الخطة . قائلة إن الجو لن يناسبه . ولم يقبل ريتشارد أن يسمع لاعتراض أمه . كما أحس أبوه بأن هذا الاعتراض تكمن وراءه دوافع أخرى غير الاشفاق على صحة الغلام . وقالت الأم تهدد ولدها «إذن فلا تتوقع منى أن أقوم بتمريضك إن عاودتك نزلة البرد » .

واستمع ريتشارد إلى قولها وهو يمضى بالدراجة إلى مكان الصيد فى صحبة أبيه والغيظ يجتاحهما ولم يصب ريتشارد بنزلة البرد ثانية ، مما زاد ريتشارد وأباه استمساكا بهذا الاتجاه المعارض للأم وحباً فى الخروج للصيد . وجعلت الأم تكشف للناس عن معارضتها وكراهيتها لهذه الهواية ، وتتحدث للزائرين بين الحين والحين ، عن أن ريتشارد وأباه لا هم لهما إلا الصيد والصيد فحسب .

ثم مرت الأسرة بموقف حرج كان نتيجة مؤامرة فعلية دبرها

ريتشارد وأبوه . فقد كان ريتشارد يقضى أجازة نصف السنة . ورأى أبوه أنه إذا وافقت المؤسسة التى يعمل بها على أن تمنحه أجازة ليوم واحد . فإنهما يستطيعان أن يسافرا إلى ساحل البحر . حيث يقضيان نهاية الأسبوع فى الصيد . وقال الأب لإبنه وهو يناقشه فى موضوع هذه الرحلة «وستمكن والدتك وأختك من ركوب القطار واللحاق بنا واستنشاق هواء البحر المنعش إن أرادا ذلك » واتفقا على ألا يفضيا بشيء عن هذا الاتفاق إلى الآخرين إلى أن يتيسر لهما إعداد العدة للموضوع ودراسة التفاصيل اللازمة .

ولكن الأم انتهزت فرصة غياب الأب وسألت ولدها عما انتويا أن يفعلاه فى أجازة نصف العام . ورأى ريتشارد أن يبر بوعده لأبيه. فأجاب «لا أعرف عن هذا الموضوع شيئا . قد نذهب لنعسكر فى مكان بعيد فان من الجيران من ينتوى ذلك» . ثم كشفت الأحداث التالية عن الاتفاق بين ريتشارد وأبيه . واتهمت الأم ولدها قائلة «إذن لقد كنت تكذب على والدتك» . وأحس الولد لذلك بشيء من الخزى والخجل والاستياء وشعر أبوه بأنه ينبغى له أن يظاهر ولده . فقال متحديا «فاذا كنت تتوقعين اذن ؟ أنه لا هم لك إلا معارضتى ومعارضة الولد فى أن نمارس هوايتنا» وردت الأم «ان الأنانية فى طبعكما أنتما الإثنين . ومتى أتيحت لى الفرصة لكى أروح عن نفسى أو استمتع بأوقات الفراغ ؟ » وكان صحيحا ، للأسف ، أنها لا تملك أن تروح عن نفسها .

فهذه أسرة كانت سعيدة ثم أصبحت منقسمة إلى معسكرين .. الأم منفردة تعسة فى ناحية ، والأب وإبنه فى ناحية أخرى سادرين فى أنانية تزداد يوما بعد يوم .

وأنت تجافى العدالة إن ذهبت تلوم واحداً بعينه فى مثل هذه المواقف . وإن هذا لهو ما يحدث فى الأسرة حين تتوثق الصلة بين أحد الأبوين وواحد أو أكثر من الأبناء نتيجة اشتراكهما فى الميول إشتراكاً يترتب عليه أن ينسلخ عنهما الأب الذى لا يشاركهما ذلك الميل ، ومع هذا ففى اعتقادنا أن الموقف لا يصبح حرجاً إذا بحث الأب الذى لا يشارك الآخرين ميولهم عن شىء يدفع عنه الشعور بالسآمة والانفراد والوحشة وجعل يشاركهم ولو « بروحه » ما هم فيه من متعة وهواية ، ولم يجعل نفسه عالة عليهم بدرجة تحول دون أن تستمتع الأسرة بأكلها بكل ما تستطيع أن تستمتع به .

وإذا كان الآباء يودون لأبنائهم أن تصبح لهم شخصياتهم المستقلة فعليهم أن يعملوا معاً من أجل هذه الغاية . ومعلوم أن العلاقات الطيبة الحسنة لا يمكن أن تنمو بين أفراد الأسرة بعضهم وبعض إلا إذا تحلى كل واحد منهم بالإعتماد على النفس، وبالميل إلى الإستقلال ، وبروح المودة . ولو أن واحدا من أفراد الأسرة جعل من نفسه عالة على بقية أفرادها . وبدأ يطالبهم بحقوقه لترتب على ذلك أن تودع الحرية ميدان الأسرة وأن يسود سوء التفاهم والاستياء جميع أفرادها ، وخصوصاً المراهقين منهم الذين هم على أبواب الرشد ولابد لهم من أن يشعروا بالتحرر من جميع القيود والحواجز التى تحد من نمو شخصياتهم.

كفوا عن المشاحنات

كل ما يحدث فى الأسرة من عراك واحتكاك يسىء إلى الطفل

ويعرقل نموه هذه حقيقة لم يعد يجهلها أحد ولذلك فلن نتحدث عنها هنا وإنما نريد أن ندعو الآباء إلى أن يكفوا عن المشاحنات التي تنشأ بينهم وتكون متصلة بالطفل نفسه، كأن يتناقشا في نوع العمل الذي يصلح له. فإن من طبيعة هذه المشاحنات أن تنشأ بين الوالدين ولا هم لهم في البداية إلا صالح الطفل ثم تستمر بعد ذلك ورائد كل منهما أن يكسب المعركة فحسب. ومن شأن هذه الخلافات غير الجدية أنها تحول بين الطفل وبين أن يشعر بالأمن. وقد لا تخلو حياة الأسرة من بعض الخلافات بين الحين والحين ولكن هذه الخلافات ينبغي ألا ينظر إليها على أنها حزازات بين الأشخاص وإنما على أنها وجهات نظر متباينة حول مسائل عائلية. ولهذا فمن واجب الآباء أن يناقشوا هذه الموضوعات مجتمعين وأن يسمحوا للطفل الذي يعنيه الأمر أكثر من غيره بأن يبدي رأيه ويبين وجهة نظره. فإن كان الوالدان هما كل ما في الأسرة من أشخاص كبار كان من المستحسن أن تدعو الأسرة واحداً أو اثنين من أصدقائها المقربين لتستعين بهما على تبين وجهة الصواب في المسألة موضوع البحث أما إذا لم يتيسر ذلك فإن من أوجب الواجبات أن يخرج الوالدان من المنزل إلى مكان بعيد يناقشان فيه الموضوع وحدهما ودون أن يكون ذلك على مرأى ومسمع من الطفل فإنه لمن أشق الأمور على نفس الطفل أن يكون وحده الفيصل في خلافات الأسرة.

احجام الآباء عن التحدث في المسائل الجنسية

ما أكثر ما كتب وما قيل في هذا الموضوع من مقالات وأحاديث

ومع هذا فلا يزال بعض الآباء يخجلون ويحجمون عن أن يجيبوا إجابات بسيطة مباشرة عن الأسئلة التى يوجهها إليهم أبناؤهم حول وظائف أعضاء الجسم وحول المسائل الجنسية حتى وهم فى مرحلة مبكرة من العمر . لقد كتب الدكتور ج . د . ريد يقول « إن كثيراً من السيدات المتزوجات يقدمن إلى عيادتى وهن على جهل مطبق بأبسط الحقائق الأولية المتعلقة بميلاد الطفل ويطلبن إلى أن أحدثهن عن هذا الموضوع الذى لم تكن إحداهن تجرؤ على أن تسأل فيها والدتها شيئاً من الإيضاح أو التفسير » . كذلك نجد المدرسين والمشرفين على النوادى يهملون بدورهم التحدث إلى الشبان فى النواحى الجنسية المتعلقة بالرجل. ومن الواجب أن يدرك الآباء أنهم يفقدون ثقة أبنائهم بهم بسبب هذا التصرف . والمكتبات مكتظة بالكتب المبسطة التى تشرح المبادىء الأولى للتربية الجنسية وعلى الآباء أن يقرأوها حتى لا يستهدفوا لشعور الاحتقار الذى يكنه المراهقون لآبائهم ان هم لم يبصروهم بهذه النواحى .

والآباء كثيراً ما يرجئون الحديث فى مثل هذه المسائل السبب ما يشعرون به من حرج ولما يظنونه خطأ من أن ذلك سيترتب عليه شقوة المراهق أو المراهقة وسوء التفاهم بينهم وبينه .

وهاك قصة تبين ذلك . .

كانت جوان وهى فتاة فى الثانية عشر والنصف من عمرها متعبة ترقد فى سريرها واستدعت أمها الطبيب فقال إنها مصابة بفقر الدم

ووصف لها الدواء . ثم سمعته جوان يهمس إلى أمها وهو يغادر الغرفة ويقول « أرى من الضرورى أن تقومى بتحذيرها فوراً » . وسألت جوان والدتها بعد أن عادت عن معنى الجملة التى همس بها الطبيب إليها . ورأت الأم أن الوقت لم يحن بعد لكى تتحمل جوان هموم الحيض ومتاعبه فضحكت بتكلف وفى حرج وقالت ان الطبيب لم يكن يتحدث عنها . وكان بعض أفراد الأسرة قد أجريت له عملية جراحية وخشيت جوان أن تضطر هى يوما إلى إجراء مثل هذه العملية الجراحية لتقف هذا النزيف الذى لا تفهم له معنى . وركبها الهم واضطربت أعصابها وتأكد لها ما توهمته من كثرة تدبرها فى الجملة التى سمعت الطبيب يهمس بها إلى أمها « أرى من الضرورى تحذيرها فوراً » . ومن تهرب والدتها من شرح معناها . وقضت عاماً بأكمله وهى تترقب دخول المستشفى بين يوم وليلة حتى وقعت عين أمها عليها ذات ليلة وهى ترقد فى الفراش تبكى . وكشفت جوان لأمها عن سبب مخاوفها . فشرحت لها الأمر كله فى الحال وهدأت من روعها وكفتها مئونة ألم استبد بها طيلة عام كامل دون مبرر . ولكنها مع ذلك قد فاتها أن تعد جوان إعداداً طيباً لاستقبال الحيض فى غير فزع ولا رهبة .

والمراهقون كثيراً ما يشعرون بالتعاسة والشقوة لأنهم قد عاينوا الحيض أو الإمناء من قبل أن يتهيأوا له عقلياً ووجدانياً ولذلك فإن من أكبر الخطأ أن يتأخر الآباء فى القيام بهذا الإعداد . والعجيب أن الآباء الذين يشاهدون برامج التربية الجنسية التى يتلقاها أبناؤهم يخجلون مع ذلك من التحدث إلى أبنائهم عن الحيض والقذف والإحتلام

وعن دور الأب فى عملية التناسل وعن التفاصيل الدقيقة للحياة الجنسية ونحن نرى من الصواب فى أمثال هذه الحالات أن يقوم واحد من خارج الأسرة بتبصرتهم بهذه النواحى الجنسية الدقيقة . على أن تحرج الآباء من الخوض فى المسائل الجنسية أمر طبيعى يشعر به أكثر الآباء ، ولكن المهم هو ألا ينقلب هذا الشعور السوى بالتحرج إلى إحساس بالاثم والخطيئة ليس له ما يبرره .

لماذا نصطنع كل هذا الجد والوقار ؟

حاولنا فى هذا الكتاب أن نبين أن المرح والمزاح شيئان لا غنى عنهما لكل من يبتغى النجاح فى تربية الصغار . والآن نحب أن نؤكد هذا الأمر لأن الآباء معرضون لأن يلتزموا الجد والوقار مع أبنائهم المراهقين . والحق أن الآباء قد يتعرضون هم أنفسهم — إذا لم يأخذوا حذرهم — للضرر بسبب أزمة المراهقة التى يجتازها أبناؤهم . فكثيراً ما نلاحظ أن الآباء يصبحون فى حال من عــــدم الاستقرار طوال السنوات التى يجتاز فيها أبناؤهم مرحلة المراهقة ويكشفون بالتغالى الذى يبدو فى استجاباتهم عن التوتر الوجدانى الذى يشق به صغار الشبان .

وقد شكا بعض نظار المدارس ممن نعرف من أن الآباء الذين عهد فيهم الرضا والاغتباط يصيبهم شىء من الغم والكآبة وعدم الرضى خلال الفترة التى يراهق فيها أبناؤهم . فمن واجب الآباء إذن أن يتجنبوا أن يصيبهم هذا العارض السقيم .

ولكن حرصنا على أن نصطنع المرح وعلى أن نتخلى عن التوقر والتزمت لا يكفى . فكثيراً ما يشكو المراهقون من أن أسرهم تتندر بهم وتركبهم بالهزل والمزاح وما أكبر ما يصيب هذا المراهقين بالضرر .

إن جميع الكائنات الحية تكره أن يسخر منها أحد أو أن يتهكم منها غيرها، والإنسان أكثر الكائنات الحية كراهية لذلك ؛ لأنه يشعر عندئذ بأن كرامته قد امتهنت وبالهم يتسرب إلى قلبه . ولهذا كان من الضروري لكي نشبع حاجات المراهقين أن نتسم بالطيبة وأن نشاطر المراهقين شعورهم وأن نكون على استعداد لأن نشاركهم المزاح لا أن نتخذهم موضوعا للسخرية والتندر.

والواقع أننا فى حاجة إلى شيء من الاتزان لكى نستطيع مساعدة المراهقين على بلوغ مرحلة الرشد والنماء . وما أكثر ما نحتاج إلى روح المرح فانه يخفف من حدة المواقف ويذهب بالتوتر ويلطف من المشاعر الجريحة ويعيد روح الود والصداقة ويرأب الخلافات وسوء التفاهم .

الأهداف والغايات

والمراهقون يستهويهم عشق الحياة ، والإيمان بالإنسانية والأهداف السامية والإقدام والشجاعة . ولكننا مع ذلك لا نضع أمامهم إلا أهدافا هزيلة وغايات تافهة ، . مهنة مضمونة ، معيشة ثابتة ، وفتاة لطيفة يسكنون اليها . . . الخ . ولو أن الكبار وضعوا أمام أعين المراهقين غايات أسمى من ذلك يبذلون حياتهم فى سبيل الوصول اليها ، وعاملوهم كرفقاء يسيرون واياهم فى الطريق الموصل اليها لما ثار الفتيان ثوراتهم التى لا يجهلها أحد والتى لا ترجع إلا إلى سببين رئيسيين ، سوء التوافق مع أصحاب السلطة بسبب عجز الآباء والمدرسين عن أن يوفروا للمراهقين الإحساس بالكرامة وبتقدير البيئة لهم ، ثم استياء المراهقين من أن تفكير الكبار يعوزه الحماس والخيال .

إن الفتيان فى حاجة إلى أن يدركوا الدور الذى يمكنهم أن يلعبوه

فى الخبرة الكبرى للانسانية ، وأعنى بها الحياة والتقدم . فانه لا يرضى الفتيان إلا أن يعملوا من أجل بناء عالم يتحقق فيه قدر أكبر من الجمال والعدالة وإلا أن يشيدوا طريقا جديدة توصل الإنسانية إلى التحرر . فلنجعل الفتيان يدركون أن لهم دوراً يساهمون به ويشعرون بأن لهم الحق فى أن يشاركوا الكبار العمل من أجل هذه الغايات السامية فى الحياة وستخرج عندئذ جهود الشبان وحماسهم بحكمة الكبار وخبرتهم ويعود النفع على الجميع .

قد يقول بعض الكبار إننا لا نستطيع القيام بما يطلب إلينا . فقد أصابنا الكبر وأقعدنا عن بلوغ هذه الأهداف . ولكن أليس ذلك مؤسفاً ؟ هل تقل متعة الحياة إذا نحن كنا فى الخامسة والثلاثين من عمرنا أو فى الخامسة والأربعين بدلا من أن نكون فى الثامنة عشرة ؟ . إن الكبار لا يستطيعون أن يشبعوا أمس حاجات الشباب إلا إذا احتفظوا بحماسهم وخيالهم قوياً غير ذى وهن . وإن الشباب يكره ويقاتل كل من يقف فى وجهه ويحول بينه وبين أن يستمتع بالحياة الكاملة . ولعل هذا أمر بديهى ، لأن الشباب هو أقصى درجات المدنية . وليس يكتفى الشباب بالحياة الكاملة المليئة . بل إنه ليريد كذلك أن يعيش عيشة رغدة سعيدة . وفى هذا مسئولية أخرى على عاتق الكبار . . تزويد الصغار بالأهداف التى يعملون لها وبالقيم التى يلتزمونها حتى يمكنهم أن يستمتعوا بالحياة .

والآن وداعا أيها الآباء .

أيها الآباء ، ذلك ما أردت أن أتحدث به إليكم . وإننى لأرجو أن تفيدوا من اطلاعكم على ما يدور بيوت الناس فى حل المشكلات

التى قد تعترضكم وأنتم تقومون بتنشئة هذا الجيل الجديد . لم نحاول فى هذا الكتاب أن نزودكم بقواعد صارمة تلتزموها فى كل المناسبات . فانه لا وجود لمثل هذه القواعد . وأن العلاقة بين الأب والإبن اتختلف فى كل حالة عنها فى الحالات الأخرى . وإن كانت تخضع فى العموميات لمبادىء واحدة وكل الذى حاولنا أن نقوم به هو أن نوصيكم بأن تقفوا من أبنائكم موقفاً خاصاً ، وبأنكم إذا أحسنتم التوافق العام ، تمكنتم من أن تجدوا لكل مشكلة الحل المناسب .

والآن هل نستطيع أن نتقدم بنصيحة أخيرة ؟

عليكم أن تحبوا الحياة ، فلو أن الحياة كانت تستأهل أن نحياها ، وإن هذا لهو ما تؤمنون به ، وإلا ما أنجبتم لها من أنجبتم من أطفال — لكان لزاما علينا أن نستمتع بها . فاعقدوا العــزم على أن تستمتعوا بالحياة استمتاعا صحيحاً وبقلب جاسر وروح مرحة ، ومهما صادفكم من مكروه . وسيجملكم هذا أكثر استعداداً لأن تشاطروا أطفالكم مشاعرهم، اما هم فسيزيدهم حبكم للحياة حبا لها وبذلك ينمو فيهم الاستثارة والمودة والثقة بالنفس . ثم تفيدون أنتم منهم بعد ذلك زيادة فى حب الحياة والإقبال عليها . وما أحوج العالم اليوم إلى أناس تدفعهم السعادة التى يشعرون بها والأغراض التى يعملون لها إلى وضع الثقة بالإنسانية . والأطفال يمكنهم أن يوفروا للآباء هذا النوع من الحياة بشرط أن يقوم الآباء أولا باشباع حاجات أبنائهم . فالدور إذن عليكم أنتم أولا .

فلتمضـوا إليـــه

ولتسعد أوقاتـــكم

وليحالفكم التوفيق .

المحتويات

الباب الأول : مرحلة الحضانة

الباب الثانى : نحو آفاق أوسع

صفحة

الباب الثالث : الشباب من الثالثة عشرة الى التاسعة عشرة

صفحة

١٨٦ الفصل الثانى عشر — على أعتاب الحياة

هارى يضع قدميه على الطريق — «اريك» لايحسن إلا اللعب — إياك وهؤلاء الأولاد الشريرين — هل أستطيع الذهاب إلى السينما — ربنا تكثر من السهر — إختيار المهنة — التعلم عن طريق التكسب — الأب الصارم — حذركم أيها الآباء — ليس طفلك «هوائياً» — عم توم الشاطر — ديك وهارى يبدآن الطريق — فى المنزلة الأولى — الرجال معاً — كفوا عن المشاحنات — إحجام الآباء عن التحدث فى المسائل الجنسية — لماذا نصطنع كل هذا الجد والوقار — الأهداف والغايات .

صدر من كتب العلوم الإنسانية

فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ،
جغرافيا ، رحـــلات ، دين ، سياسة ، فلسفة ،
قانون ، معـارف عامة)

---

١ ــ حضارة الإســلام ــ تأليف جوستاف جرونباوم
(الناشر) ــ مكتبة مصر الثمن ٤٠٠ مليم

٢ ــ اتجاهات الفلسفة المعاصرة ــ تأليف اميل برهييه
(الناشر) ــ دار الكشاف الثمن ١٢٠ مليم

٣ ــ البوليس والكشف عن الجريمة اليوم ــ تأليف ريجنالد مورش
(الناشر) ــ مكتبة النهضة المصرية الثمن ٢٢٠ مليم

٤ ــ سكتلنديارد ــ تأليف سير هارولد سكوت
(الناشر) ــ مكتبة النهضة المصرية الثمن ٢٢٠ مليم

٥ ــ فلسفة الخير ــ تأليف لويس دكنسن
(الناشر) ــ مكتبة الانجلو المصرية الثمن ١٨٠ مليم

٦ — حركات الشباب — تأليف الصاغ الدكتور محمد فتحي
(الناشر) — مكتبة الشرق   الثمن ١٥٠ مليم

٧ — بلاد ما بين النهرين — تأليف ل . ديلابورت
(الناشر) — مكتبة الآداب   الثمن ٤٠٠ مليم

٨ — بسمرك — تأليف اميل لدفيج
(الناشر) — دار الهلال   الثمن ٥٠٠ مليم

٩ — آثار حضارة الفراعنة — تأليف محرم كمال
(الناشر) — دار الهلال   الثمن ١٤٠ مليم

١٠ — الحياة الناجحة — تأليف اوستاس تشسر
(الناشر) — مكتبة نهضة مصر   الثمن ١٥٠ مليم

١١ — كيف تقرأ الجريدة — تأليف ادجار ديل
(الناشر) — مطابع الشعب   الثمن ١٧٠ مليم

١٢ — الحياة اليومية فى مصر القديمة — تأليف الن شورتر
(الناشر) — مكتبة الانجلو   الثمن ٣٣٠ مليم

١٣ — الديانات فى أفريقيا — تأليف هـ . ديشان
(الناشر) — دار الكتاب المصرى   الثمن ١٤٠ مليم

١٤ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة — تأليف ارنولد جزل
(الناشر) — لجنة التأليف والترجمة   الثمن ٢٢٠ مليم

١٥ ــ علم نفسك الاقتصاد ــ تأليف ايفلين توماس
(الناشر) ــ لجنة التأليف والترجمة الثمن ١٧٠ مليم

١٦ ــ تاريخ العالم من ١٩١٤ ــ ١٩٥٠ ــ تأليف دافيد توموسون
(الناشر) ــ مكتبة النهضة الثمن ٢٢٠ مليم

١٧ ــ نحو مجتمع أفضل ــ تأليف برتراند رسل
(الناشر) ــ العالمية الثمن ١٧٠ مليم

١٨ ــ الأحلام والجنس جزء أول ــ تأليف فرويد
(الناشر) ــ دار الكتاب المصرى الثمن ١٥٠ مليم

١٩ ــ تاريخ طابع البريد ــ تأليف يوجان فاييه
(الناشر) ــ مكتبة الأنجلو الثمن ١٢٠ مليم

٢٠ ــ صحوة أفريقيا ــ تأليف بازيل دافيدس
(الناشر) ــ مكتبة الانجلو الثمن ٢٧٠ مليم

٢١ ــ الانقلاب الصناعى ــ تأليف ت . س . اشن
(الناشر) ــ مكتبة نهضة مصر الثمن ٢٣٠ مليم

٢٢ ــ الحضارة العربية ــ تأليف ى . هيل
(الناشر) ــ مكتبة النهضة الثمن ١٦٠ مليم

٢٣ ــ مدخل إلى علم الآثار ــ تأليف سير ليونارد وولى
(الناشر) ــ مكتبة سعد مصر الثمن ١٤٠ مليم

٢٤ ــ الجغرافيا والسيادة العالمية ــ تأليف جيمس فيرجريف
(الناشر) ــ مكتبة النهضة الثمن ٢٩٠ مليم

٢٥ — طبقات المجتمع — تأليف اندريه جوسان
(الناشر) — مكتبة سعد مصر الثمن ١٥٠ مليم
٢٦ — قصة التجارة الدولية — تأليف فيلبس دين
(الناشر) — مكتبة سعد مصر الثمن ٧٠ مليم
٢٧ — تاريخ الصحافة — تأليف اميل بوافان
(الناشر) الدار المصرية للنشر بالاسكندرية الثمن ١٥٠ مليم
٢٨ — إفهم طفلك — تأليف جيمس همنج وجوزفين بولز
(الناشر) دار العالم العربى بالقاهرة

صدر عن دار العـــالم العربى

١ ـــ الكيمياء فى خدمة الطب	الثمن ٦٠ مليم
٢ ـــ صحتك بين يديك	الثمن ١٠٠ مليم
٣ ـــ الرجل الذى لم يوجد	الثمن ٢١٠ مليم
٤ ـــ افهم طفلك	(تحت الطبع)

دار العالم العربى للطباعة
٢٣ شارع الظاهر تليفون ٤٤٧٠٦
(منير خليل)

أهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارئ العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل اليه العلم فى تلك الموضوعات .
* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك اكبر عدد من الناشرين فى نشرها .
* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .
* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .
* الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء فى شتى الامم ، باتاحة الفرصة أمام القارئ العربى للاطلاع الواسع على ما عندهم .
* افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والادب للمساهمة بصورة ايجابية فى النهضة العلمية والادبية .
* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .
* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة .

نشرته

دار العالم العربى بالقاهرة

الثمن ٢١ ص

حصريات

مجلة الابتسامة

www.ibtesama.com